مجلة مجمع اللغة العربية بالشارقة

العدد الخّامس عشر – مارس 2025 م

المفردةُ القُرآنيّة بين الكلمَة والمصطَلح

الدّلالة الإفراديّة في الشّواهد القرآنيّة للمعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة

مركز التَّرجمة والتَّعريب

والاهتمام باللُّغة العربيَّة (سلطنة عمان)



مدينة مسقط – سلطنة عمان

رمز الاستجابة السريعة للنسخة الرقمية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ
ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ
وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ
عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾

[فصلت ٤٤]

صدق الله العظيم

البيانُ العرَبيّ في شَهْر القرآنِ

ها هو ذا العدد الخامس عشر من مجلة المجمع يأتي متزامنًا مع شهر رمضان المبارك، الشهر الذي تسعى فيه أرواحنا وعقولنا للتدبر والغوص في أسرار البيان، إذ يُجلّي القرآنُ العربيةَ في أسمى صورها، لا بوصفها لغة فحسب، بل كيانًا معجزًا اصطفاه الوحي ليكون الوعاء الأمثل لكلماته. إذ كان نزول القرآن عربيًّا لحظةً فارقة في تاريخ البيان، فقد تجسّدت في نصه القدسيّ كل طاقات العربية، من دقة المفردة إلى إحكام النسق، ومن إشراقة المعنى إلى عمق التأويل، فكان المعجزة التي تتحدّى الزّمن، لتظل مطلّةً على أفق لا ينقضي من التأمل والبحث.

وفي هذا العدد، خصّصت المجلة حيزًا واسعًا لاستجلاء البيان القرآني، فتناولت أكثر من خمسةِ موضوعات تتعمق في بلاغة القرآن وما يتصل بها من علوم، لتضيء جوانب جديدة من فرادة هذا النّص، وكان من بينها: التَّشَكُّلُ السَّـرْدِيُّ للقَصَصِ القُرْآنيِّ للدكتور محمود فرغلي والبَلَاغَةُ في أُسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ وأَغْرَاضِهِ في القرآن الكـــريم للدكتور غسّان الشيخ.

وفي باب اللّغويّات تجدد المجلّة حرصها على الجمع بين التّراث اللّغويّ والمعاصرة، إذ يتناول الباحث عبدالمالك حسنيوي "الملَكة اللسانية بين النظرية الخلدونية والنظرية الحديثة"، كما يُقارب الباحث جواد عامر "صنعة اللغة في المقال العلمي"، عبر دراسة لأدبيّة المقال عند الدكتور أحمد زكي، وهي مقاربة تعيد النظر في العلاقة بين العلم وأسلوب عرضه، وما يمكن أن تضيفه البلاغة إلى الخطاب العلمي.

أما في المعجميّات، فإن المجلة تستمر في تسليط الضوء على أحد أعظم المشاريع اللغوية الحديثة، المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة، الذي لم يعد مجرد أداة بحث، بل تحوّل إلى ميدان للدراسات اللغوية والمعجميّة. ومن بين القضايا التي يناقشها هذا العدد، تأتي دراسة الدكتور بكري الحاجّ "الدلالة الإفرادية في الشواهد القرآنية للمعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة"، كما يبحر العدد في عوالم الشواهد الاستعمالية، عبر دراسة للدكتور محمد السّملالي، تفتح أفقًا جديدًا لفهم الشّواهد الاستعمالية التي أوردها المعجم التّاريخيّ في رصده تاريخ الكلمات ودلالاتها.

ولا تكتمل هذه الرحلة اللغوية دون الالتفات إلى تراث العربية وأعلامها والعروج على فنون أدبها ونقدها. فقد خصص العدد وقفة مع كتاب "الشعر والشعراء" لابن قتيبة، الذي يعرضه الدكتور رشيد الخديري برؤية جديدة تبرز أثره في النقد العربيّ. كما تتناول المجلة شخصيات رائدة في تاريخ العربية، من بينهم ابن جني، وأحمد شوقي، في إطلالة على مسيرة أعلام أسهموا في صياغة الوعي اللغوي والأدبيّ عبر العصور.

وإننا إذ نقدم هذا العدد، فإننا لا ندعو فقط إلى قراءة موضوعاته، بل ندعو إلى تأمل العربيّة في جوهرها الأعمـق، و استنطـاق نصـوصها، واستكشاف أسرارها، والبحث عن مكنوناتها التي لم تُستنفَد بعد. فاللغة التي حفظت كتاب الله، والتي حملت إرث أمة كاملة، هي رسالة ممتدة في الزمن، تنتظر من يعيد قراءتها بعيون الباحث، وعقل المفكر، ووجدان المتأمّل.

هيئة التّحرير

مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة

مجلّة أدبيّة لغوية تصدر عن

حكومة الشارقة Government of Sharjah

مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

السّنة الثّالثة – العدد الخامس عشر – مارس 2025 م

مجلّة أدبيّة لغويّة تُعنى بقضايا اللّغة العربيّة وآدابها

المراسلات

هاتف : 400 60 51 6 971+

فاكس : 401 60 51 6 971+

ص.ب : الشارقة ، 1973

shj_ala www.alashj.ae

Sharjah.ala info@alashj.ae

مجمع اللغة العربية بالشارقة

امسح الرمز

لزيارة موقع مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة

لمشاركاتكم ومقترحاتكم يرجى التّواصل على البريد الإلكترونيّ

Magazine@alashj.ae



16

مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة يسلّط الضّوء على منهجيّات التّدريس الحديثة في «المجلس اللّغويّ العاشر»

مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة

المحتويات

وقفات بيانيَّة في آيات الصيّام



د.امحمد المستغانمي
الأمين العام لمجمع اللغة العربية بالشارقة

شرع الإسلام العبادات لتهذيب النّفوس وربط القلوب بخالقها وباريها، والمرء في هذه الحياة، مهما قرأ ودرس، ومهما جدَّ واجتهد مُنقّبًا في مناكب الأرض وسهولها وبحارها، سائحًا فاحصًا ومتأملًا في آفاق الكون، سابرًا لُجَجَ النّفس الإنسانيّة، مُجرّبًا في العلوم التّجريبيّة، ومهما كانت النّتائج العلميّة التي حقّقها ويُحقّقها يومًا بعد يوم، فإنَّ ثمّةَ في قلبه فراغًا عظيمًا لا يملؤه إلا حُبُّ الله العليّ العظيم، الذي خلق كلَّ شيء في أحسن تقويم، والذي خلق الإنسان من طين، ونفخ فيه من روحه، واستخلفه في الأرض وهداه إلى سواء الصّراط في الاعتقاد والشّرائع والأخلاق.

أشواقُ قلبِ المؤمن إلى ربّه سبحانه لا يُطفئها إلّا الانغماسُ في عبادة روحيّة صحيحة شرعًا، تَعْرُجُ به في سماء الإخلاص، وتسبحُ به في جوزاء القُنوت لربّ العالمين، في كلّ آنٍ يجد نفسه ضائقًا مهمومًا من ضغوط الدّنيا، جائعًا متطلّعًا إلى غذاء روحه وإرواء ظمئها.

وهل ثمّة غذاءٌ للرُّوح هو أطيب وأشهى، وهل ثمّة شرابٌ للرُّوح هو ألذّ وأحلى من مخاطبة ربّ العالمين والشّروع في مُناجاته والتّضرّع بين يديه؟؟

هذه هي الحكمة الكبرى من تشريع العبادات بدءًا بالصّلاة التي هي مِعْراجُ المسلم يرقى بها إلى ربّه سبحانه وهو يقرأ بين يديه آياته، ويخضع إليه قائمًا وراكعًا وساجدًا... مُـرورًا بالزّكاة التي تُحرّكُ كيانه نحو إخوته في الإنسانيّة ممّن قلَّ ما في أيديهم، فيهتزّ قلبه ويتفطّر إشفاقًا عليهم فتجودُ يمينه بمفروض الزّكوات ونوافل الصّداقات، ثمّ تأتي عبادة الصّيام التي تنتشله من حمإ اللّذات ولُجّة المشتهيات لترفعه إلى عالم الطّهر والسّمو النّفسيّ، ووصولًا إلى عبادة الحجّ التي هي تدريبٌ عمليٌّ يرى فيه المسلم معالمَ الطَّريق التي سيسلكها إلى موضع قيامه بين يدي ربّه في صعيد الحشر والحساب في يوم الجمع والمآب.

ونحن اليوم على موعد مع عبادة الصّوم التي تذوق حلاوتَهُ النّفوسُ المؤمنة كلّما حلّ رمضان وارتحل.

ما هو الصَّومُ؟ وعن أيّ شيء نصوم؟ وما الغرضُ الأكبر من هذه العبادة؟ وهل نحن نُؤدّيها على وَفْق معايير الشّرع وهداياته؟

وهل آتى الصّومُ ثمراتِه في نفوسنا وقلوبنا ومجتمعاتنا؟ أم أنّنا نُعَرِّضُ جوارحنا ونفوسنا للجوع والعطش والحرمان؟؟

أبدأ حامدًا ربّي مُثنيًا على جلاله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأعتذر عن قصور عباراتي عن إدراك كيفيّة حمدك يا ربّي وكيفيّة الثّناء عليك، ولا أملك إلا أن أردّد في خضوع وخشوع: سبحانك لا أُحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

وأثنّي مُصَليًّا على الرّحمة المُهداة والنّعمة المُسداة، واسطةِ عقد النبيين وإمام المرسلين محمّد بن عبد الله، شمسِ الهدى ونور الأبصار، وسراج

البصائر الذي اصطفاه ربُّهُ الجليل وأرسله إلى العالمين رحمةً بهم، وأنزل عليه القرآن الكريم هاديًا ومُعلّمًا، وجعله مبشّرًا ونذيرًا.

وأثلّثُ مُتأمّلا في الحديث القُدسيّ الجليل الذي رواه سيدُنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن ربّه «كُلّ عمل ابن آدم فهو له إلا الصّوم فإنّه لي وأنا أجزي به».

هذا الحديث القدسيُّ الجليل الذي رواه أئمة السّنن وصيارفة الحديث ووصفوه بالصّحة والقبول. وكفى بهذا الحديث تنويها بأمر الصّوم، وثوابه العظيم وشأنه الفخيم.

ويحسنُ بنا ونحن نتحدّث عن عبادة الصّوم أن نُعرّج على ما جاء في القرآن الكريم عن هذه العبادة المتفرّدة المتميّزة عن سائر العبادات، مُتوقّفين عند جملة من المحطّات البيانيّة والإيحاءات في آيات الصوم التي وردت في سورة البقرة. قال جلّ شأنه: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: 381].

أوّلُ ما يلفت الانتباه في هذه الآية الكريمة أنّها وردت بعد آية البرّ الجامعة لأركان الإيمان والعبادات والمعاملات {ليس البرّ أن تُولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب....} [البقرة: 771]، ولا يخفى أنَّ آية البرِ المقصودُ الأكبرُ منها هو حِفظُ الدّين، ثمّ وَلِيَتْها آيةُ القِصاص المتعلّقة بحفظ النّفس، ثمّ آية الوصيّة التي تندرج ضمن مقصد حفظ المال، ثمّ عاد الحديث إلى حفظ الدّين بتشريع فريضة الصّيام.

من خلال هذا النّظر، يتبيّن للمتدبّر في الذّكر الحكيم أنّ آيات الصّيام تدور في فلك حفظ الدّين، الذي شرعه الباري سبحانه لمصلحة الخَلق وتعبيدهم لخالقهم، وتبصيرهم بمعالم الصّراط المستقيم الذي يصل بهم إلى حياة طيّبة في الدّنيا، والفوز بجنّات النّعيم في الدّار الآخرة.

نلحظ أنّ الباري بدأ آية الصّيام بنداء المسلمين بعنوان الإيمان: {يا أيّها الذين آمنوا...}، وهو عنوان يُذَكّرُ المسلم بالعَقْد الذي دخل فيه مع خالقه ورضي به، ... يا من تجمعكم بي رابطة الإيمان، يا مَنْ آمنتم بي إلهًا لهذا الكون، وربّا خالقا، ورازقا مُدبّرا لشؤونكم وشؤون الخلق أجمعين، اسمعوا توجيهي لكم، واحفظوا وصيّتي إليكم لعلّكم تتقون فتسعدون.

ثمّ جاء الفعل {كُتِبَ} مَبْنِيّا لِما لَمْ يُسَمّ فاعله إيماءً إلى أنّ هذا الفعل يتجاذبُهُ طرفان: الطرف الأوّل هو الفاعل الحقيقيّ وهو الله سبحانه المشرّع لعبادة الصّيام، والطّرف الثاني هو المؤمن الذي يستقبل هذا النّداء ويعمل به بمقتضى أنّه آمن بالله تعالى إلها مشرّعا وربّا متصرّفا في كلّ ما خلق.



في حين أنّك، أخي القارئ، حين تقرأ الفعل (كَتَبَ) في صيغة المبنيّ للمعلوم، فاعلم أنّ النّظر مُتوجّه إلى الفاعل الحقيقي فقط الذي لا يشاركه في الفعل أحدٌ سواه مثل قوله تعالى {كَتَبَ الله لأغلبنّ أنا ورسلي}، فالغلبة لله تعالى وحده لا يشاركه فيها أحد، ولا يتسبّبُ فيها سواه، وكذلك قوله جلّ شأنه: {كَتَبَ ربُّكم على نفسه الرّحمة}؛ إذ هو وحده سبحانه الذي كتب على نفسه الرّحمة، ولا يتدخّلُ في هذا الوصف أحدٌ سواه.

ومضمون الآية الأولى هو بيانُ أنّ الباري سبحانه قد كتب الصّيام على الشّعوب والمِلل التي كانت من قبلنا وعلى رسلهم وأنبيائهم كما كتبه سبحانه علينا نحن المسلمين، وكأنّي بهذه الآية تقول للمسلمين: لستُمْ وحدكم في طريق الصيام الشّاق، ولستم بِدْعًا من الشّعوب والأقوام، فقد سلك هذا السّبيلَ قبلكم أنبياءُ ومرسلون وأقوام كثيرون، فأبشروا خيرا، والخَطْبُ الشّاقّ حين يَعُمُّ، يخِفُّ حمله، ويتأسّى الإنسان بأخيه، ومِنْ هذا الباب كانت الخنساءُ شاعرة الرّثاء ترثي أخاها صخرا وهي تقول:

ولولا كثرةُ الباكين حَوْلي
على إخوانهم لقتلتُ نفسي
وما يبكونَ مِثْلَ أخي ولكن
أُعزّي النّفسَ عنه بالتّأسّي

ثمّ ختم سبحانه الآيةَ مُبيّنا أنّ فَرْضَ الصّوم يُحقّقُ لفاعله درجة التّقوى، ويجعله في حِرْزها المنيع وحصنها الحصين، هذا لمن صام رمضان إيمانا واحتسابا وتقرّبا إلى خالقه سبحانه.

ثمّ ذكر سبحانه أنّ فترة الصّيام المفروض لا تتجاوز {أيّـامـا معدودات}، والمراد من هذا تحبيبُ الصّيام إلى القارئ وتقليل عدد أيّامه في عينيه، فأنت أيّها المؤمن تصوم أيّاما معدودات فقط، ولا يخفى ما في هذا الأسلوب من تخفيف وتسهيل لأمر هذه العبادة حتى تقبل عليها النّفوس بانشراح وفرح وهمّة عاليّة.

ولمزيد من التّخفيف والتّيسير، بدأ سبحانه بذكر رُخصة الإفطار لمن كان مريضا أو على سفر، فليس الصّيامُ سيفا مُصلتا في وجه كل مسلم دون مراعاة ظروفه، فقد يكون المرءُ مريضا ويثقل عليه أن يصوم، وقد يكون مسافرا، والسّفرُ مظنّة التّعب والعياء، وهنا يُدرك العاقلُ الحصيف أنَّ الله تبارك وتعالى لا يريدُ بعباده العنت، وإنّما يريدُ لهم الخيرَ واليُسرَ، يريدُ لهم أن يُقبلوا على عبادة الصّوم بسرور وحُبّ، فإذا كان المرض والسّفرُ يشقُّ عليهم أداء الفريضة فيهما، فلا جناح عليهم من الإفطار، ثمّ بعد انقضاء شهر رمضان يَقْضون تلك الأيّام.

نعم، هذه هي فلسفةُ الإسلام في التّخفيف والتّيسير. ولم يكتفِ القرآن الكريم بالحديث عن جواز إفطار أصحاب الأعذار، بل أضاف بأنّ كلّ الذين يصومون ويجدون مشقّة كبيرة ممّن طعنوا في السّنّ، فإنّهم يستطيعون أن يُقدّموا فدية عن كلّ يوم أفطروه. قال جلّ شأنه: {وعلى الذين يُطيقونه فديةٌ طعام مسكين}، وهذه أيضا من رُخص الصوم ومن جملة الأحكام والقيود التي ينشرح قلب المؤمن وهو يتلوها.

ثمّ بيّنَ الجليل سبحانه أنّ من تكلّف الصيام واجتهد في الطّاعة فهو خيرٌ له، وجعل لفظَ الخيريّة علامة جاذبة للقلوب المؤمنة، ومَن ذا الذي لا تستهويه ثمرات الخيريّة التي يذكرها الباري العليم بكلّ ما هو خير والعليم بكل ما هو شرٌّ في هذا الوجود.

وانظر إلى الجملة الشّرطيّة التي ذيّل بها الدّعوةَ إلى الصيام {وأن تصوموا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون}، صَوْمُكم أيّها النّاس، خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون الفوائد العظيمة والثمرات الطيّبة التي تجنونها من الصيام، صومكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون عظيم الثواب الذي أعددته لكم يا عبادي، صَوْمُكم سبيلٌ إلى تمتّعكم بالصّحّة وتَسَرْبُلِكم بلباس العافية،... صوموا تصحّوا لو كنتم تعلمون. صَوْمُكم جسرٌ إلى الخير العميم والأجر العظيم في جنّات النّعيم لا ينفع مالٌ ولا بنون.

ثمّ إنّه سبحانه، استأنف التّحبيب وهزّ القلوب إلى الصوم بذكر الزّمان الذي اختاره للصّوم في الإسلام، إنّه شهرُ رمضان الذي أنزل فيه سبحانه القرآن الكريم هدى للنّاس وبيّناتٍ من الهدى والفرقان. كأنّي بهذه الآية الكريمة تنادي المسلمين والنّاس أجمعين بصوت عالٍ جهوريّ، تُنادي كلّ ذي مِسْكة من عقل من أبناء أمّة الإسلام: أتدرون ما هو الزّمنُ الذي طلبتُ منكم صيامه؟ أتدرون قُدسيّة

الزّمن الذي تصومونه؟ أنتم تصومون شهرًا هو عيدٌ لكم أيّها المسلمون. أنتم تصومون شهرا فيه أنزلتُ عليكم كتابي الأعظم المعجز الذي يحمل الحقّ للبشريّة جمعاء. أنتم تصومون الأيّام التي أنزلت فيها الذّكرَ المبين، المعجز بلفظه ومعناه، الذي أنزلته بعلمي، وضمّنته كلّ حِكَم الحقّ، وشرائع العدل، وأوضحت فيه سبيل الخير الذي تسعدون بسلوكه في دنياكم وأخراكم.

أنتم تصومون شهرا قُدسيّتُه من قدسيّة كلامي الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ومن خلفه. كلامي الذي هو الحقّ المطلق، والنّورُ المبين، والذّكرُ الحكيم، الذي لا يستطيع الإنس والجنّ أن ينسجوا على منواله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

وتالله لو أنّ أبناء أمّة الإسلام يعلمون عظمة الكنز الإلهيّ الذي بين أيديهم، ما ذاقت أعينهم طعم النّوم، ولا التذّت نفوسهم بشيء إلا بتلاوته آناء الليل وأطراف النّهار. أنت أيُّها المسلم، تقرأ كتابا قال عنه منزّله: {ولو أنّ قرآنًا سُيّرت بها الجبالُ أو قُطّعت به الأرض أو كلّم به الموتى بل لله الأمر جميعا} [الرعد].

وهذه الآية العجيبة، لو يفقهها المسلمون لاهتزّت جوانبهم وهم ينظرون في صفحات هذا الكتاب ويتأمّلون في ألفاظه وعباراته. أنت تقرأ قرآنا، لو أنّ ربّ العالمين شاء تنزيله على الجمادات لقطّعها، تقرأ كتابا من شأنه أن يُسيّر الجبال من أماكنها ويُقَطّع الأرض التي يزيد قطرها على ٠٠٧٢١ كيلومتر، وأنت تتلو قرآنا من شأنه أن يُكلّم الموتى، لو أراد له منزله ذلك، كلُّ هذه المعاني تفيض بها هذه الآية المبنيّة على جواب الشرط المحذوف حيث إنّ أداة الشرط (لوْ) كثيرا ما يحذف البلغاء جوابها ليذهب القارئ في تقدير جوابها كلّ مذهب.

لو أنّ قرآنا يفعل تلك الأفعال العظيمة العجيبة لكان هذا القرآن هو الذي يفعل ذلك! وليس هذا الكلامُ من المبالغة في شيء لأنّه كلام علّام الغيوب سبحانه.

ونظير هذه المعاني، قوله سبحانه: {لَوْ أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدّعا من خشية الله}، نعم، لو أنزله سبحانه على جبل لتصدّع وانشقّت صخوره من عظمة معانيه ومبانيه، فما بالُ المسلمين يقرأونه ولا يتّعظون به، ولا يهتزّون لآياته؟

نَعَمْ، بهذا الأسلوب الجاذب الفاتن الآسر النّاضر، يُحبّبُ القرآنُ للمسلمين صوم شهر رمضان لو كانوا يفقهون.

ومن بديع التّناسب في رصف آيات الذّكر أنْ وَضَعَ سبحانه آيةَ إجابة الدّعاء في عِقد لآلئ آيات الصيام: {وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريب أجيب دعوة الدّاع إذا دعان}؛ ومفادُ هذا الاختيار أنّ الصّيام مظنّةُ إجابة الدّعاء، فأنت أيُّها الصّائم القائم قريبٌ من مولاك، ليس بينك وبينه إلا الدّعاء، وإذا كان الله تعالى قريبا من عباده كلّهم في

يتبيّن للمتدبّر في الذّكر الحكيم أنّ آيات الصّيام تدور في فلك حفظ الدّين، الذي شرعه الباري سبحانه لمصلحة الخَلق وتعبّدهم لخالقهم.

ثمّ إنّه سبحانه، استأنف التّحبيب وهزّ القلوب إلى الصوم بذكر الزّمان الذي اختاره للصّوم في الإسلام، إنّه شهرُ رمضان الذي أنزل فيه سبحانه القرآن الكريم هدى للنّاس.



كلّ آن وحين، فإنّه من الصّائمين القوّامين الذين أشرقت نفوسهم بأنوار الإيمان والقرآن أقرب، يُجيب دعواتهم ويقبل صلواتهم، فأين أنت أخي المسلم، وأين أنت أختي المسلمة من فرصة إجابة الدّعاء، والناس كلّهم تتقاذفهم أمواجُ الفتن، ما ظهر منها وما بطن، وتعصف بهم أعاصير الدّنيا ومشاكلها وتحدّياتها ومصاعبها ومزالقها وعوائقها.

ثمّ عاد السّياق القرآنيّ إلى التّخفيف الذي هو الملمح الأصيل لهذا المقطع القرآني الفريد الذي يتناول جملة من أحكام الصيام... التّخفيف الذي بُنيت عليه هذه الآيات، وغيرها من آيات الذّكر، فلا جناح عليكم أيُّها المسلمون في ليالي الصيام أن تُفْضوا إلى أزواجكم، فما جعل عليكم ربّكم في الدّين من حرج، أنتم لباسٌ لأزواجكم، وهنّ لباسٌ لكم، فلا تُشدّدوا على نفوسكم، واسْتَمْسِكوا بدينكم برفق: {أُحلّ لكم ليلةَ الصيام الرّفث إلى نسائكم هنّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنّ}... نعم، إنّه دين الفطرة السليمة البسيطة.

هذه كلمات قلائل، ورَشَفاتٌ من زُلال التّيسير، ونَسماتٌ من عبير التّخفيف، انجذبت نفسي لتسجيلها ومُشاركتها مع الصّائمين والصّائمات إدراكا منّي لواجب الكتابة وأمانة الحرف التي تُخفِّفُ على أبناء الإسلام شدّةَ لأواء الطريق في وقت ادلهمّت فيه الخطوب، وفتحت الفتنُ فيه أبوابها، وهاجت أعاصيرُها، والمسلمون أحوجُ ما يكونون للالتزام بشرع ربّهم الذي يَقيهم مزالق الطريق، ويعصمهم من مهاوي الفتن التي تقذف بها أرحامُ عصر الانحلال والشّهوات والملذّات.

وهل ثمّة غذاءٌ للرُّوح هو أطيب وأشهى، وهل ثمّة شرابٌ للرُّوح هو ألذّ وأحلى من مخاطبة ربّ العالمين والشّروع في مُناجاته والتّضرّع بين يديه؟؟

المسلمون أحوجُ ما يكونون للالتزام بشرع ربّهم الذي يَقيهم مزالق الطريق، ويعصمهم من مهاوي الفتن التي تقذف بها أرحامُ عصر الانحلال والشّهوات والملذّات.

لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾



أخبار المجامع

- إطلالةٌ على مـركـز التَّـرجمـة والتَّعريب والاهتمام باللُّغـة العـربيَّة
- مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة يسلّط الضّوء على منهجيّات التّدريس الحديثة في «المجلس اللّغويّ العاشر»
- مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة يفتح باب التّرشّح للدّورة الثّامنة من جائزة الشّارقة للدّراسات اللّغويّة والمعجميّة

مركز التَّرجمة والتَّعريب والاهتمام باللُّغة العربيَّة

التَّعريف بالمركز:

جهاز يتبع الأمانة العامة لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، وتشرف عليه وزارات الثقافة بدول المجلس، ويهدف بشكل عام إلى الإسهام في تعزيز مكانة اللغة العربية في نفوس أبناء المجلس، إضافة إلى التَّعاون والتنسيق مع الجهات المختصة بأعمال التَّرجمة والتَّعريب في الدول الأعضاء؛ لتوحيد الجهود والإنجازات، وإيجاد مرجعية خليجية مشتركة في هذا الشأن، ويتخذ من مدينة مسقط عاصمة سلطنة عُمان مقراً له.

رؤية المركز:

مرجعية خليجية للاهتمام باللغة العربية والتَّرجمة والتَّعريب.

رسالة المركز:

إبراز الجانب الحضاري للغة العربية وتعزيز مكانتها في نفوس أبناء المجلس، وتحقيق التَّعاون والتَّنسيق بين الجهات ذات العلاقة بالترجمة والتعريب.

القيم

الأصالة: الاعتزاز بالإرث الحضاري للغة العربية، والعمل على إبرازه، وتطويره، ونشره، والتعريف به.

الريادة: السعي نحو التَّنسيق بين الجهات ذات العلاقة بمجالات اللغة العربية والتَّرجمة، وقيادة جهود الاهتمام باللغة العربية والارتقاء بها.

الإبداع: العمل على التجديد والابتكار في الأنشطة والبرامج والمشاريع بما يواكب مستجدات العصر.

الشراكة: تحقيق التَّعاون والتَّكامل بين مختلف الجهات ذات العلاقة بمجالات اللغة العربية والتَّرجمة من أجل تحقيق الاستفادة المثلى من مختلف الجهود.

المهام والمسؤوليات

* الإسهام في إبراز الوجه الحضاري والثَّقافي لدول المجلس عن طريق التَّعريف بتراثها ومنجزاتها الحضارية من خلال رصد نتاجها الفكري المتعلق بمجال عمل المركز ونشره.

* التَّعاون والتَّنسيق مع جهات ذات الاختصاص بأعمال ترجمة الكتب والدراسات ذات القيمة العلمية والأدبية من اللغة العربية إلى اللغات الأجنبية الحيَّة والعكس.

* التَّنسيق مع الجهات اللغوية الخليجية والعربية لرصد كلٍّ ما يختص بتعريب المصطلحات والتَّعبيرات والمفاهيم التي تستجد في المراكز المختلفة في العالم وتنتج عنها؛ لتوحيد الجهود والإنجازات.

* متابعة كلٍّ ما يصدر من معجمات لغوية ومعجمات اللَّهجات والموسوعات العلمية بالتَّنسيق مع الجهات اللغوية الخليجية والعربية.

* تنسيق الجهود مع المجامع اللغويَّة والعلميَّة والجهات المختصة في الدول

العربية والإسلامية للوصول إلى مخرجات معرفيَّة هادفة وواعدة.

* التواصل مع رجالات الفكر واللغة والثَّقافة والأدب والعلوم الإنسانية إقليميًّا ودوليًّا.

* رَصْد البحوث والدراسات التي تُعنى بالتَّرجمة والتَّعريب ونشرها، والتَّنسيق مع الجهات المعنيَّة في هذا الصدد.

حرص مركز التَّرجمة والتَّعريب والاهتمام باللغة العربية بدول مجلس التَّعاون على تنفيذ المبادرات والأنشطة والمسؤوليَّات الموكلة إليه مستنيرًا في ذلك بتوجيهات لجنة أصحاب السمو والمعالي وزراء الثقافة بدول مجلس التَّعاون؛ لتحقيق هدفه العام وهو الإسهام في تعزيز مكانة اللغة العربية في نفوس أبناء المجلس، إضافةً إلى التَّعاون والتَّنسيق مع الجهات المختصة بأعمال التَّرجمة والتَّعريب في الدول الأعضاء؛ لتوحيد الجهود والإنجازات، وإيجاد مرجعيَّة خليجيَّة مشتركة في هذا الشأن.

أبرز إنجازات المركز:

- اعتماد الخطة الإستراتيجيَّة والخطة التنفيذيَّة للمركز (2024-2030م).

يعمل المركز على تنفيذ خطة إستراتيجيَّة (2024 – 2030م) اعتُمِدَت في اجتماع المجلس الوزاري في دورته الثالثة والخمسين بعد المئة (153) التحضيرية للدورة (44) للمجلس الأعلى المنعقد في الثالث ديسمبر 2023م في الدوحة عاصمة دولة قطر، واجتماع لجنة أصحاب السمو والمعالي وزراء الثقافة بدول مجلس التَّعاون لدول الخليج العربيَّة في الحادي عشر أكتوبر 2023م في مسقط عاصمة سلطنة عُمان. ويُعدُّ المركز الموقف التنفيذي للخطة الإستراتيجية لكلِّ سنةٍ ميلاديَّةٍ يرفع إلى أصحاب السمو والمعالي وزراء الثقافة بدول مجلس التَّعاون، الذي يتضمن تنفيذ عدَّة من البرامج والمبادرات التي تسهم في تحقيق أهداف العمل الخليجي المشترك.

- إعداد الدراسات والبحوث:

أولًا: دراسة واقع التَّرجمة بدول مجلس التَّعاون لدول الخليج العربيَّة.

أعدَّ مركز التَّرجمة والتَّعريب والاهتمام باللغة العربيَّة دراسة عن واقع التَّرجمة بدول مجلس التَّعاون لدول الخليج العربيَّة من أجل بحث الوضع الرَّاهن للتَّرجمة عمومًا في دول المجلس، ورصد شيء من جهود التَّرجمة وأنشطتها ومؤسساتها،

"الهدف العامّ للمركز هو الإسهام في تعزيز مكانة اللغة العربيّة في نفوس أبناء المجلس، إضافةً إلى التَّعاون والتَّنسيق مع الجهات المختصة بأعمال التَّرجمة والتَّعريب في الدول الأعضاء.









وإبراز بعض الإنجازات في هذا المجال المهم؛ وصولاً إلى توصيات من شأنها أن تخدم التَّرجمة والتَّعريب في نطاق دول مجلس التَّعاون الخليجي.

اعتَمدتْ هذه الدراسة في بياناتها على استقراء مصادر متعددة، من أهمها؛ الدراسات والتَّقارير الرسميَّة عن التَّرجمة في دول مجلس التَّعاون لدول الخليج العربيَّة، والوثائق الرسميَّة، والمواقع الرسميَّة للوزارات والهيئات والمؤسسات الحكوميَّة وشبه الحكوميَّة والأهليَّة، والمؤسسات والهيئات الأكاديميَّة والتدريبيَّة، والمواقع الرسميَّة للجوائز، والندوات الدولية وغيرها، وكذلك المؤسسات والشركات التجاريَّة في كلِّ دولة من دول مجلس التَّعاون.

ثانيًا: دراسة الواقع اللُّغوي للغة العربيَّة بدول مجلس التَّعاون لدول الخليج العربيَّة.

أعدَّ مركز التَّرجمة والتَّعريب والاهتمام باللغة العربيَّة دراسة عن الواقع اللُّغوي للعربية بدول مجلس التَّعاون لدول الخليج العربيَّة بالتَّعاون مع مجمع الملك سلمان العالميّ للغة العربيَّة بالمملكة العربيَّة السعوديَّة. هدفت الدراسة إلى وصفِ واقع اللغة العربيَّة في كلِّ دولة من دول مجلس التَّعاون. وقد حُددت المحاور ضمن مجالات استعمال اللغة العربيَّة في كلِّ دولة خليجيَّة ثم اختتمت الدراسة في الدولة الواحدة بنقاشٍ حول أبرز التَّحديات والتَّوصيات؛ ليُستخلَص من ذلك توصيات عامة تعين الدول الأعضاء في توحيد مبادئ العمل الخليجي المشترك في خدمة اللغة العربية، ورعايتها في المنطقة من جهة، وتعين مركز التَّرجمة والتَّعريب والاهتمام باللغة العربيَّة على توحيد الجهود والتَّنسيق وإحداث التَّعاون بين الدول الأعضاء في دول مجلس التَّعاون لدول الخليج العربيَّة من جهة أخرى.

> **يصدر المركز الكثير من الدّراسات والكتب والنّشرات التي تدرس واقع اللّغة العربيّة وتسعى إلى تمكينها.**

إصدارات المركز:

أولًا: إصدارات المركز حول اللغة العربية:

* تأليف كتاب بعنوان «اللغات العربية في شبه الجزيرة العربية».
* تأليف كتاب بعنوان «الصلات الأدبيَّة بين الخليج العربي والبصرة".
* تأليف كتاب بعنوان «تطوُّر النَّثر العربي في شبه الجزيرة العربيَّة ».
* تأليف كتاب بعنوان « الغفران- اتساقًا وانسجامًا- في ضوء القصديَّة والمقبوليَّة».

ثانيًا: إصدارات المركز حول الترجمة والتعريب:

* ترجمة كتاب بعنوان «معدن الأسرار في علم البحار »من اللغة العربيَّة إلى اللغة

الإنجليزيَّة».

* ترجمة كتاب بعنوان «في تاريخ اللسانيات العربيَّة «من اللغة الإنجليزيَّة إلى اللغة العربيَّة».

* ترجمة كتاب بعنوان «اللغة والعالم «من اللغة الإنجليزيَّة إلى اللغة العربيَّة».

* ترجمة كتاب بعنوان «اللغة في العصر الرقمي «من اللغة الإنجليزيَّة إلى اللغة العربيَّة».

ثالثًا: نشرة مركز التَّرجمة والتَّعريب والاهتمام باللغة العربيَّة

أتت نشرةُ مركز التَّرجمة والتَّعريب والاهتمام باللغة العربيَّة نصف السَّنوية؛ لتُترجم الاهتمام بالنَّشر اللغوي في حُلَّةٍ جديدة وطابعٍ مختلفٍ، وصدر العدد الأول في شهر يونيو 4202م، والعدد الثاني في شهر ديسمبر 4202م. وتهدف النَّشرة إلى نشر أخبار المركز وإطلاع المهتمين بما يحققه من إنجازات وفعاليَّات مستمرة، والإسهام في نشر الوعي اللغوي في ظل التَّطورات اللغويَّة الحاصلة، ومواكبة الحراك التَّرجمي في الوطن العربي عامة والخليج العربي خصوصًا، واستقطاب أصحاب الأقلام المميزة من الكتَّاب العرب للكتابة في المجالات التي يعنى بها المركز.

– تأسيس قاعدة بيانات حول الجهات ذات العلاقة وذوي الاختصاص والمهتمين

أسس المركزُ قاعدة بيانات حول الجهات ذات العلاقة وذوي الاختصاص والمهتمين باللغة العربيَّة والتَّرجمة والتَّعريب إقليميًّا ودوليًّا، بهدف نشر المعرفة في دول المجلس، أُطلق عليها باسم (منصة رصد)، ونُشرت على صفحة المركز بموقع الأمانة العامة لمجلس التَّعاون الإلكتروني، وقد تضمنت المنصة عدةَ محاور أتت في جداول (قوائم).

– مؤتمر التَّعريب الرابع عشر

نظَّم مركزُ التَّرجمة والتَّعريب والاهتمام باللغة العربيَّة بالتَّعاون مع مكتب تنسيق التَّعريب، مؤتمر التَّعريب الرابع عشر، في مدينة مسقط بسلطنة عُمان، خلال الفترة 71–81 نوفمبر 4202م، وبحضور عددٍ من الأكاديميين والباحثين البارزين من المجامع والمراكز والهيئات والجامعات والكليات اللُّغوية والعلميَّة من مختلف الدول العربيَّة.

مؤتمر التَّعريب الرابع عشر تضمن ندوة علمية بعنوان «توظيف المصطلحات العلميَّة والتقنيَّة في فضاءاتها التخصصيَّة»، وأربع جلسات علميَّة:

الجلسة الأولى: واقع التَّرجمة والتَّعريب والآفاق المستقبليَّة،

أسَّسَ المركزُ قاعدة بيانات حول الجهات ذات العلاقة وذوي الاختصاص والمهتمين باللغة العربيَّة والتَّرجمة والتَّعريب إقليميًّا ودوليًّا، بهدف نشر المعرفة في دول المجلس، وأَطلَق عليها اسم (منصة رصد)





يحرص المركز على تنظيم المؤتمرات والنّدوات لتعزيز التّعاون في مجالات التّرجمة والتّعريب وإبراز المكانة الحضاريّة للّغة العربيّة إقليميًا ودوليًا.

نظّم المركزُ بالتّعاون مع مكتب تنسيق التّعريب، مؤتمر التّعريب الرابع عشر، في مدينة مسقط بسلطنة عُمان.

والجلسة الثانية: تجارب الباحثين والمؤسسات في الاستفادة من المعاجم المختصة في مجال العلوم والتقنية، والجلسة الثالثة: المناهج الدوليَّة في اختيار المصطلحات العلميَّة والتقنيَّة ومؤشرات نجاحها، والجلسة الرابعة: رقمنة المصطلحات العلميَّة والتقنية. وتزامن مع هذه الجلسات العلميَّة إقامة ورش معجميَّة، في مصطلحات الاقتصاد والمحاسبة والمراجعة الماليَّة والمال والأعمال.

الجلسات العلميَّة:

ناقش المؤتمرُ في الجلسات العلميَّة أربعةَ محاور رئيسة، اشتمل كلُّ موضوعٍ على عددٍ من أوراق العمل البحثيَّة وبيانها وفق الآتي:

الجلسة الأولى: واقع التَّرجمة والتَّعريب والآفاق المستقبليَّة

وبها أربع أوراق عمل بحثية: -

1- تجربة المركز العربي لتأليف وترجمة العلوم الصحية، قدَّمها الأستاذ الدكتور/ مرزوق يوسف الغنيم - أمين عام المركز العربي لتأليف العلوم الصحية وترجمتها.

2- الترجمة في دول الخليج العربية بين الخصوصية والتعاون، قدَّمها المترجم الدكتور/ هلال بن سعيد الحجري - أكاديمي وكاتب وناقد.

3- التعريب: الواقع والمأمول، قدَّمها الدكتور/ مسلم بن علي بن سالم المعني - عميد كلية الزهراء للبنات.

4- الترجمة والتعريب والمصطلح: دراسة في ترجمة كتاب «نظرية التأدب: بعض الكليات في استعمال اللغة»، قدَّمها الدكتور/ عبد الجبار محمد الشرفي - أستاذ مشارك في دراسات الترجمة بقسم اللغة الإنجليزية والترجمة - جامعة السلطان قابوس.

الجلسة الثانية: تجارب الباحثين والمؤسسات في الاستفادة من المعاجم المختصة في مجال العلوم والتقنية

وبها أربع أوراق عمل بحثية: -

1- تجربة مجمع اللغة العربية بالشارقة في إنشاء المعجم التاريخي للغة العربية، قدَّمها الدكتور/ أمحمد صافي المستغانمي - الأمين العام لمجمع اللغة العربية بالشارقة.

2- تحديات الترجمة المتخصصة في مجال النقد الأدبي والدراسات الثقافية، قدَّمها الدكتور/ محمد الشحات - أستاذ النقد ونظرية الأدب - جامعة الشرقية.

3- تجربة المجمع العلمي العراقي في تعريب المصطلحات العلمية، قدَّمها الأستاذ الدكتور/ علي ناصر غالب - عضو المجمع العلمي العراقي.

4- الترجمة الصخرية: وقفات مع

الترجمة العربية لكتاب «دليل ميداني لجيولوجية شمال شرق عُمان»، قدَّمها المترجم الأستاذ / يعقوب بن ناصر المفرجي – شركة تنمية نفط عمان.

الجلسة الثالثة: المناهج الدولية في اختيار المصطلحات العلمية والتقنية ومؤشرات نجاحها

وبها ثلاث أوراق عمل بحثية: -

1- المصطلح بين الترجمة والتعريب: الواقع والتحديات – منظور تحليلي في المصطلح اللساني، قدَّمها الأستاذ الدكتور/ خليفة بوجادي – نائب مدير الجامعة للشؤون الأكاديمية – جامعة الوصل.

2- مقروئية المعجم الطبي الموحد التابع للأمم المتحدة وفرص إدماج تقنيات الذكاء الاصطناعي التوليدي، قدَّمها المترجم الأستاذ/ أيمن بن مصبح العويسي – باحث دكتوراة في جامعة ليدز، المملكة المتحدة.

3- المنهجية الألمانية في اختيار المصطلحات العلمية والتقنية ومؤشرات نجاحها، قدَّمها الدكتور/خير الدين محمد عبد الهادي، أستاذ مساعد – رئيس شعبة اللغة الألمانية – جامعة نزوى.

الجلسة الرابعة: رقمنة المصطلحات العلمية والتقنية

وبها ثلاث أوراق عمل بحثية: -

1- توحيد/ تنميط ورقمنة المصطلحات التقنية والعلمية في العربية: مراجعة نظامية للأدبيات، قدَّمها الأستاذ الدكتور/ حسن عبيد الفضلي، من قسم الدراسات اللغوية والترجمة – جامعة نزوى، والدكتورة/ شهرزاد عبد القادر أحمد، أستاذ مشارك – رئيسة شعبة اللغة الإنجليزية وبرامج الترجمة – جامعة نزوى.

2- تقييم جودة الترجمة بمساعدة الذكاء الاصطناعي- دراسة تحليلية مقارنة لترجمة المستخلصات البحثية بين العربية والإنجليزية، قدَّمتها الأستاذة الدكتورة/ هند بنت مطلق العتيبي، من كلية اللغات وعلومها – جامعة الملك سعود.

3- كيف يمكن للذكاء الاصطناعي وخصوصًا شات جي بي تي، الإسهام في رقمنة المصطلحات العلمية والتقنية؟، قدَّمها المترجم الأستاذ/ صالح بن سالم العلوي، مدير التواصل المؤسسي والترجمة – شركة جلفار.

لجان دراسة مشروعات معاجم المصطلحات العلمية:

درست اللجان مشروعات معاجم المصطلحات العلمية وهي ثلاثة معاجم جديدة، وحكَّمتها في ضوء خبرة الباحثين المشاركين، واللجان هي:

- لجنة مشروع معجم مصطلحات الاقتصاد
- لجنة مشروع معجم مصطلحات المحاسبة والمراجعة المالية
- لجنة مشروع معجم قانون المال والأعمال

وقد ناقشت هذه اللجان المشروعات المعجمية مناقشةً وافيةً، وعرضت تقاريرَها الخاصة بذلك على أعضاء المؤتمر؛ وبذا صارت هذه المعاجم – بعد التصحيح المبني على تقارير اللجان.







«مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة» يسلّط الضّوء على منهجيّات التّدريس الحديثة في «المجلس اللّغويّ العاشر»



نظّم مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة «المجلس اللّغويّالعاشر» مساء (الأربعاء 5 فبراير 5202)، بعنوان «خصائص وسمات معلّمي العربيّة للنّاطقين بغيرها في ضوء المعايير الدّوليّة والإماراتيّة» أشار خلاله الدّكتور خالد أبو عمشة، الخبير والمدرّب في تعليم العربيّة للنّاطقين بغيرها في الإيسيسكو، والمدير الأكاديمي في معهد «قاصد»، إلى أنّ تدريس العربيّة للنّاطقين بغيرها يتطلّب من المعلّم أن يكون موسوعيًّا وملمًّا بمجالات معرفيّة متعدّدة.

أكّد الدّكتور خالد أبو عمشة، أستاذ اللّسانيّات التّطبيقيّة ومناهج تدريس العربيّة للنّاطقين بغيرها، أنّ الإبداع في نقل المعلومة يمثّل التّحدي الأكبر في التّعليم، وأنّ المعلّم النّاجح ينبغي ألا يتحدّث أكثر من 02 بالمئة من وقت الحصّة الدّراسيّة، ويترك الباقي للطلّاب؛ مشدّدًا على أنّ التّدريس ليس مجرّد تكرار للمعلومات، بل هو تجربة متجدّدة يجب أن يعيشها المعلّم مع طلّابه في كلّ حصّة دراسيّة، لافتًا إلى أنّه يجب على المدرس أن يستمرّ في التّعلم واكتساب المعرفة ليظلّ قادرًا على تعليم طلّابه.

سفراء الضّاد للعالم

وفي افتتاح الجلسة، قال الدّكتور امحمد صافي المستغانمي، أمين عامّ مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة: «إنّ الطّلّاب غير النّاطقين بالعربيّة هم سفراء لغة الضّاد

المُستغانميّ: إنّ الطّلّاب غير النّاطقين بالعربيّة هم سفراء لغة الضّاد إلى العالم، فهم يحملونها إلى آفاق جديدة، وينقلون جمالها ودلالاتها الثّريّة إلى ثقافات متعدّدة.

إلى العالم، فهم يحملونها إلى آفاق جديدة، وينقلون جمالها ودلالاتها الثّريّة إلى ثقافات متعدّدة، ممّا يعزّز حضورها العالميّ، ونحن نفخر في إمارة الشّارقة بأنّ صاحب السّموّ الشّيخ الدّكتور سلطان بن محمّد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشّارقة، يولي العربيّة اهتمامًا بالغًا داخل مساحتها الجغرافيّة وخارجها في مختلف أنحاء العالم، ويسعى إلى مناقشة همومها وتحدّياتها لتكون راسخة بين الأمم».

وأضاف المستغانمي: «كان مجد العربيّة في ماضيها المشرق قائمًا على سواعد علماء أفذاذ من غير العرب، استقوا من معين العربيّة وحملوا لواءها ونشؤوا في رحابها، وتركوا بصماتهم واضحة على جباه التاريخ، فأبدعوا في تصنيف العلوم الإنسانيّة والكونيّة على حدّ سواء، ومنحوا العالم كنوز المعارف الّتي أسهمت في نهضته، وإنّ استذكار هذه الحقائق التّاريخيّة يحتّم علينا اليوم أن نستلهم من ذلك الدّور، ونواصل رسالتنا في تمكين العربيّة ونشرها وفق مناهج تعليميّة معاصرة تعزّز مكانتها بين لغات العالم».

المعايير الإماراتيّة... ممارسات للتّطوير

ولفت الدّكتور خالد أبو عمشة أنّ الإمارات تمتلك مبادرات ووثائق ومعايير رائدة تعزّز مكانة اللّغة العربيّة في العمليّة التّعليميّة، من أبرزها: الإطار النّظريّ، والوثيقة الوطنيّة للّغة العربيّة، والوثيقة المطوّرة، وسلسلة «العربيّة تجمعنا»، إضافة إلى معايير إعداد المعلّم، والسّلوك المهنيّ والأخلاقيّ، والممارسات المهنيّة والتّطوّر.

وأوضح أهمّيّة «دمج المعايير في الأهداف والمناهج» لضمان استجابة التّدريس لاحتياجات الطّلّاب، مشيرًا إلى أنّ ذلك يفتح المجال ليتجاوز المعلّم الإطار النّظريّ للمنهاج الموجود في الكتب، والاستجابة للتّفاعلات الّتي يفرضها الطّلبة داخل الغرف الصّفّيّة.

التّجديد ضرورة لا خيار

وشدّد الدّكتور أبو عمشة على أنّ أخطر ما يمكن أن يحدث في الصّف هو أن يحفظ الطّلاب أسلوب المعلّم وما سيقوله مسبقًا، ممّا يفقد الدّرس عنصر التّحفيز والتّشويق. لافتًا إلى أنّ تدريس اللّغة العربيّة للنّاطقين بغيرها يتطلّب من المعلّم أن يكون موسوعيًّا وملمًّا بعدد من العلوم المختلفة.

كما دعا إلى اعتماد مبدأ التّدريس وفق المهام، الّذي يعتمد على ربط تعلّم اللّغة بالمواقف اليوميّة الّتي يمرّ بها الطّلّاب، ممّا يسهّل عليهم اكتساب المفردات والتّراكيب المستخدمة في الحياة.

واختتم أبو عمشة المجلس اللّغويّ قائلًا: «من الأهمّيّة بمكان ابتكار أسماء خارج الصندوق لكتب اللّغة العربيّة، مثل «مدن عربيّة»، بحيث تُقدَّم القواعد اللّغويّة من خلال السّرد القصصيّ الّذي يجذب المتعلّمين ويجعل تجربة التّعلّم أكثر متعة وإثارة».





"مجمع اللّغة العربيّة" يفتح باب التّرشّح

للدّورة الثّامنة من

جائزة الشّارقة للدّراسات اللّغويّة والمُعجميَّة

حتّى 30 يونيو 2025

أعلنَ مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة عن فتح باب التّرشّح للدّورة الثّامنة من جائزة الشّارقة للدّراسات اللّغويّة والمعجميّة للعام 2025، التي تهدف إلى دعم وتشجيع الباحثين في مجالَي اللّغويّات والمعجميّات، من خلال تكريم الأعمال المتميّزة التي تثري البحث اللّغويّ والمعجميّ، وتعزّز مكانة العربيّة في الدراسات الأكاديميّة. ويستمرّ تلقّي طلبات المشاركة حتى 30يونيو 2025.

تندرج الجائزة ضمن جهود المجمع الرامية إلى تحفيز الدراسات المتخصصّة في اللّغة العربيّة، وتسليط الضوء على الأبحاث التي تسهم في تطوير علومها، وفق أحدث المناهج والمقاربات اللّسانيّة والمعجميّة. ويتمّ تسجيل الدراسات والأبحاث للمشاركة في الجائزة من خلال الموقع الرسمي للجائزة وتُمنح الجائزة، التي يبلغ قدرها 00 ألف دولار، مناصفة بين محورَي الدّراسات اللّغويّة والدّراسات المعجميّة، لأربعة فائزين؛ حيث يحصل كلٌّ من الفائزَين بالمركز الأوّل في كلّ محور على 30 ألف دولار، في حين ينال كلٌّ واحد من الفائزين بالمركز الثّاني من كلّ محور 20 ألف دولار.

وتشمل الجائزة في دورتها الثّامنة موضوعين رئيسيّين، أوّلهما المرتبط بمحور اللّغويّات، وهو "الدّراسات اللّسانيّة النّصيّة"، الذي يتناول الأبحاث التي تدرس النّصوص بمستوياتها الصّوتيّة والصّرفيّة والنّحويّة والمعجميّة، وفق المعايير اللّسانيّة الحديثة مثل الاتّساق والانسجام والتناصّ والمقبوليّة، ممّا يتيح فهمًا أعمق للبنية اللّغويّة وتحليلها بأساليب متجدّدة.

أمّا الموضوع الثّاني المرتبط بمحور المعجميّات، فيتناول "المعاجم المؤلّفة في مصطلحات علوم اللّغة العربيّة"، ويشمل المعاجم التي توثّق المصطلحات اللّغويّة في مجالات النّحو والصّرف والبلاغة والعروض واللّسانيّات والصّوتيّات وفقه اللّغة، في إطار جهود توثيق المصطلحات اللّغويّة وتأصيلها.

ومن خلال هذين المحورين، تسعى الجائزة إلى تعزيز البحث اللّغويّ المعاصر، وتشجيع الدّراسات التي تربط التّراث اللّغويّ بالمقاربات العلميّة الحديثة، بما يخدم اللّغة العربيّة ويعزّز حضورها في المشهد البحثيّ العالميّ.

فضائل ومزايا لا تنقضي

وفي تعليقه على فتح باب التّرشّح للجائزة في دورتها الثّامنة، قال الدّكتور امحمَّد صافي المستغانمي، الأمين العامّ لمجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة: "تنطلق الدورة الثّامنة من جائزة الشّارقة للدّراسات اللّغويّة والمعجميّة لتكرّم الأعمال التي تغوص في دقائق العربيّة وتكشف خبايا أسرارها من بطون نصوصها، وتستجلي مزاياها التي تستتر خلف أصواتها وألفاظها، وتستنبط جماليّات بنيانها الصرفيّ والنحويّ المتمايز عن سائر

اللّغات، والذي منحها فضائل لا يحصيها العدّ، ومزايا لا تنقضي على مرّ الأزمان".

وأضـــاف: "لم تغفل الجائزة شأن المصطلحات، الذي يعدّ ركنًا ركينا وجالا خصبا في ميدان الصناعة المعجميّة المعاصرة؛ إذ هو سبيل لا غنى عنه للباحثين في الآداب والعلوم الإنسانيّة. فالمصطلح هو مفتاح فهم المعنى الذي من خلاله تُضبط العلوم، وتُبنى القواعد، وتُوثّق المفاهيم، وهو بحرٌ معرفيٌّ لم يزل يَفتح أمام الدارسين والباحثين أبوابَ المزيد من التمحيص والتدقيق. والجائزة إذ تحتفي بهذا المجال، فإنها تقيم الدليل القاطع على أنّ العربيّة لغة العلم كما هي لغة الأدب، وأنها باقية في ريادتها، عزيزةٌ بمكانتها، شامخةٌ بين لغات العالم على مرّ العصور".

شروط التّرشّح للجائزة :

ويشترط للتّرشّح للجائزة أن يكون الكتاب مطبوعًا ومنشورًا ابتداء من الأول من يناير 2017 فصاعدًا ، ويشتمل على ترقيم دوليّ، حيث لا تقبل الجائزة الأبحاث المنشورة في المجلّات المحكّمة، كما يشترط ألّا يكون العمل قد نال جوائز مماثلة، ولا يحقّ للمترشّح أن يتقدّم إلى كلا المحورَين، ولا أن يتقدّم بأكثر من عمل، كما لا يحقّ للفائز بجائزة الشّارقة للدّراسات اللّغويّة والمعجميّة أن يترشّح إليها مرّة أخرى إلّا بعد مرور خمسة أعوام، وتُرسل النُّسخ الورقيّة بالبريد المسجّل إلى مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة.



رمز الاستجابة السريعة لموقع الجائزة

مَجمَعُ اللّغة العَربيّة بالشّارقة في الصّحف

في مقرّه الجديد الّذي افتتح بمكرمة صاحب السّمو حاكم الشّارقة

مجلس اللّسان العربيّ بموريتانيا يناقش سبل تنسيق العمل وبناء الشراكات في خدمة اللّغة العربيّة

•• الشّارقة-الفجر:

في إطار جهوده لتعزيز اللّغة العربيّة والحفاظ على هويّتها وثقافتها، استضاف مجلس اللّسان العربيّ بموريتانيا، الّذي افتتح بمكرمة من صاحب السّمو الشّيخ الدّكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشّارقة، ندوة بعنوان: "تنسيق العمل وبناء الشّراكات في خدمة اللّسان العربيّ"، بمشاركة 20 جهة من الهيئات والمؤسسات والجمعيّات الّتي تعمل على دعم وتطوير اللّغة العربيّة في موريتانيا والعالم العربيّ.وتناولت النّدوة موضوعات متعدّدة تتعلق بالتّحديات والفرص الّتي تواجه اللّغة العربيّة، والمشاريع والبرامج والأنشطة الّتي تقوم بها الهيئات المشاركة في النّدوة لتعزيز مكانة اللّغة العربيّة وتنمية قدرات متحدّثيها ومتعلّميها، ... الخبرات والمعارف والمقترحات بين المشاركين، ومناقشة أفضل الممارسات المتّبعة لإثراء أساليب تعليم اللّغة العربيّة، وابتكار البرامج والأدوات الّتي تساهم في تيسير تعلّمها وتعليمها، بما يتلاءم مع التّطوّرات التّقنيّة والمعرفيّة المتقدّمة.

وناقشت النّدوة الطّرق والوسائل المناسبة لتحسين التّواصل والتّفاعل والتّعاون بين الهيئات العاملة في مجال اللّغة العربيّة، والّتي تضمّ أعضاء منسقيّة "سدنة اللّغة العربيّة"، الّتي تضمّ العديد من الهيئات من أجل تمكين اللّغة العربيّة، وتهدف إلى تنسيق الجهود والمشاريع المشتركة بين الهيئات المختلفة في خدمة اللّسان العربي، إذ جاءت النّدوة بهدف استعراض وتحليل الإنجازات والمبادرات الّتي تمّ تنفيذها خلال "شهر اللّغة العربيّة"، الّذي يوافق شهر ديسمبر من كل عام. يشار إلى أنّ المقرّ الجديد لمجلس اللّسان العربيّ تمّ افتتاحه في العاصمة الموريتانيّة نواكشوط بمكرمة من صاحب السّمو الشّيخ الدّكتور سلطان بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى حاكم الشّارقة، الرّئيس الأعلى لمجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة، وبرعاية فخامة الرّئيس محمد ولد الشّيخ الغزواني، رئيس الجمهوريّة الإسلاميّة الموريتانيّة؛ ويضمّ المجلس نخبة من العلماء ويتولّى مهمّة النّهوض بلغة الضّاد في موريتانيا وخارجها.





«مجلّة مجمع اللّغة العربيّة» تضيء على الاستدامة اللّغويّة

الشارقة (الاتحاد)

رصدت «مجلّة مجمع اللّغة العربيّة» بالشّارقة في عددها الثّامن موضوعات متنوعة تتعلّق باللّغة العربيّة وآفاقها وتحدّياتها، مؤكّدة مكانة الشّعر في الثّقافة العربيّة والإسلاميّة، وأهمّيّة البلاغة والإيجاز في النّظم الشّعريّ، كما أضاءت المجلّة على أهمّيّة الاستدامة اللّغويّة كمفهوم يهدف إلى حماية اللّغة العربيّة، والحفاظ على هُويّتها وسلامتها وتنوّعها.

وفي افتتاحيّة العدد الثّامن، أكّد الدّكتور امحمد صافي المستغانمي، الأمين العامّ لمجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة، تحت عنوان «الشّعر في أعين العرب» أنّ الشّعر ديوان العرب وسجل مآثرهم، وأنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلم كان متذوّقًا للشّعر، عالماً بما يحويه من حكم صائبة وتوجيهات سديدة، حيث يقول عليه الصّلاة والسّلام: «إنّ من البيان لسحراً، وإنّ من الشّعر لحكمة».

وتناول العدد الثّامن من المجلّة إطلاق صاحب السمو الشيخ الدّكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، 31 مجلّداً جديداً من المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة، والّتي تغطّي 6 أحرف، هي «الرّاء والزّاي والسّين والشّين والصّاد والضّاد»، ليصبح العدد الكلي للحروف التي تم تحريرها حتى الآن 15 حرفاً، من الهمزة إلى الضّاد، وليرتفع عدد المجلدات المنجزة من المشروع إلى 67 مجلداً.

وتحت عنوان «الشّارقة تحتضن أوّل مؤتمر للمستشرقين»، تناولت المجلّة فعاليات «مؤتمر الشّارقة الأوّل لدراسات اللّغة العربيّة في أوروبا: واقع وآفاق»، الذي نظّمه المجمع برعاية كريمة من صاحب السمو الشيخ الدّكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، الرّئيس الأعلى لمجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة، في دارة الدّكتور سلطان القاسمي.

وحول «الاستدامة اللّغويّة»، كتب الدّكتور علي عبدالقادر الحمادي، موضّحاً أنّ الاستدامة اللّغويّة يراد بها أن تبقى اللّغة خالية من التّلوث اللّغويّ ومهدّدات الانقراض، أو ضمور عناصرها الحيويّة، آمنة من المكوّن الدّخيل على المكوّن الأصيل، مشيراً إلى أنّ إتقان المؤلّفين للتّدقيق اللّغوي يعدّ واحداً من عناصر الاستدامة اللّغويّة التي ينبغي التركيز عليها.

وفتحت المجلّة في عددها الثّامن الباب أمام أقلام عدد من الباحثين والأكاديميّين للكتابة في موضوعات بحثيّة ومقالات معرفيّة متخصّصة في الدّراسات النّحويّة، والمعجميّة والأدبيّة، والقرآنيّة.



أبرزت إطلاق 31 مجلّدا جديدا من «المعجم التّاريخيّ» تغطي 6 أحرف

www.alkhaleej.ae

الملف

المعجم التاريخي للعربية..



موسوعة شاملة تجول في تاريخ وحاضر ثقافتنا

مناقشة تطوير مهارات المعلمين

■ الشارقة: «الخليج»

أكدت الدكتورة سوسن المكني، مؤسسة «معهد المستقبل في باريس»، أن المعلم ينجح بامتياز عندما ينظر إلى كل طالب على أنه «مشروع عبقري»، ويعطيه القيمة الإنسانية الحقيقية، ويتحمل مسؤولية رعايته، وصقل مواهبه، ودعم مهاراته، ومساعدته على الاستفادة منها مدى الحياة.

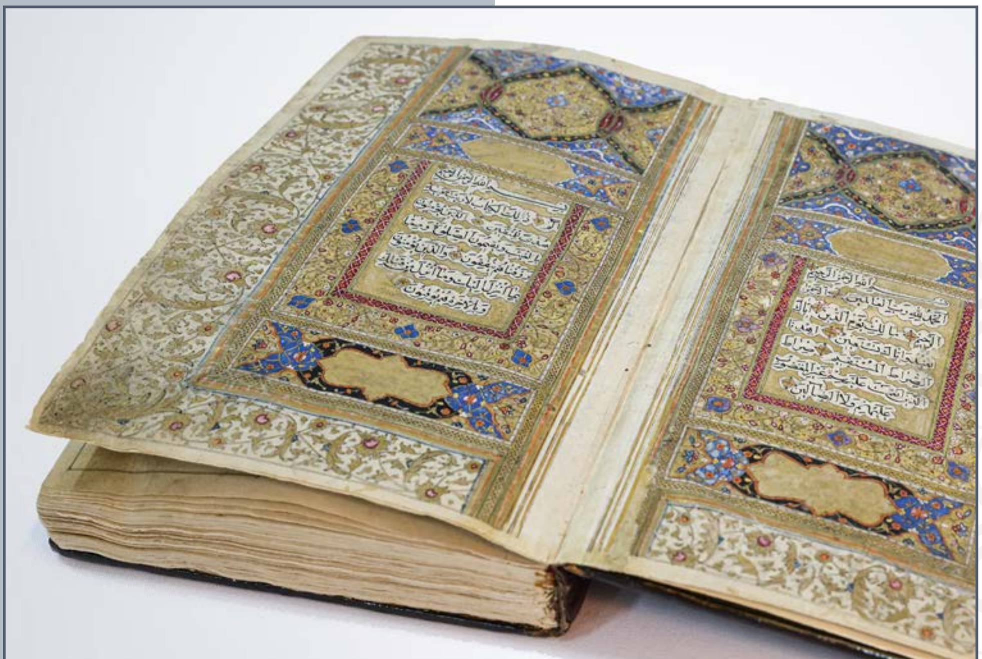


■ امحمد المستغانمي يكرم سوسن المكني ■

جاء ذلك خلال محاضرة علميّة نظمها مجمع اللغة العربية، ضمن فعاليات «المجلس اللغوي الثامن» تحت عنوان «معلم اللغة العربية الناجح.. الإعداد والأساليب»، بحضور الدكتور امحمد صافي المستغانمي، الأمين العام لـ«مجمع اللغة العربية بالشارقة»، ونخبة من الأكاديميين ... والجمهور، وممثلي وسائل الإعلام ...

الجلسة إلى أن «مجمع اللغة العربية بالشارقة» نظم «المجلس اللغوي الثامن» بهدف تحفيز المعلمين والمعلمات، والتّمكين للسان العربي في نفوس أبناء الجيل، واستقطاب الكفاءات اللغوية التي يتمتع بها العالم العربي والإسلامي.

واستعرضت الدكتورة سوسن المكني، مختلف المفاهيم النظرية والأنشطة والتطبيقات العمليّة التفاعلية التي تساعد المعلمين والمعـ... العملية التعلـ...



نظراتٌ في البيانِ القرآنيّ



إطْلَـاقُ «الـــوَرَاءِ» علــى وَلَـدِ الوَلَـدِ

يقالُ: لكلِّ قاعدةٍ استثناءٌ أو شُذُوذٌ.

وممّا لفتَ انتباهي كلمةٌ منَ القرآنِ الكريم فسّرَها ابنُ عبّاسٍ بما لم يُعثرْ علَى شاهدٍ له من كلامِ العربِ، إلّا تفسيرُه لها، ثمّ عثرتُ على نظيرةٍ واحدةٍ لها بعد ذلك.

وسيّدُنا الحَبرُ ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنه - على جلالتِه وعلُوِّ كَعْبِه- هو من سنَّ تلك السُّنّةَ الحميدةَ بأجوبتِه المشهورةِ لنافعِ بنِ الأزرقِ الحنفيِّ.

وقد حدّثَ مولاه وتلميذه عكرمةُ، قال: «ما سمعتُ ابنَ عبّاس فسّرَ آيةً من كتابِ الله عَزَّ وَجَلَّ إلّا نزَعَ فيها بيتًا منَ الشّعر»، وكان يقول: «إذا أعياكم تفسيرُ آيةٍ من كتابِ الله فاطلبوه في الشّعر، فإنّه ديوانُ العربِ» (1).



د/ محمد محمد الشيخ
باحث

وسألقي نظرةَ تأمُّلٍ في هذه المسألة في الكلمتَين .

الكلمة الأولى: إطلاقُ «الوراء» على ولدِ الولدِ في قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود: 17].

ففي تفسيرِ الطّبريّ قال بسندِه - بعد أن ذكر الوجهَ المعروفَ وهو كونُ الوراءِ على ظاهرِه أي بمعنى «بَعْد» :-

حَدَّثَنِي الْحَارِثُ، قَالَ: ثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ، قَالَ: ثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، وَمَعَهُ ابْنُ ابْنِهِ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا مَعَكَ؟ قَالَ: هَذَا ابْنُ ابْنِي، قَالَ: هَذَا وَلَدُكَ مِنَ الْوَرَاءِ. قَالَ: فَكَأَنَّهُ شَقَّ عَلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ:«﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ فَوَلَدُ الْوَلَدِ: هُمُ الْوَرَاءُ»(2).

وقال الزّمخشريُّ في الكشّاف: وقيلَ: الوراءُ: ولدُ الولدِ، وعنِ الشّعبيِّ أنّه قيل له: أهذا ابنُك؟ فقال: نعم، مِن الوراء، وكان ولد ولده (3).

ومن تفسيرِ الكرمانيِّ: قال: «الغريبُ: الوراءُ في الآية: ولدُ الولدِ، وهو مُشكلٌ، ووجْهُه: أن يُجعلَ ذلك بالإضافةِ إليها؛ لأن يعقوب وراءُها، والوراءُ جمعٌ كالولد: و»من» للتّبعيضِ»(4).

وأورد أبو حيّانَ جوابًا لما استشْكلَه الكرمانيُّ فقال:

« فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَكُونُ يَعْقُوبُ وَرَاءً لِإِسْحَاقَ وَهُوَ وَلَدُهُ لِصُلْبِهِ، وَإِنَّمَا الْوَرَاءُ وَلَدُ الْوَلَدِ؟ فَقَدْ أَجَابَ عَنْهُ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ فَقَالَ: الْمَعْنَى وَمِنَ الْوَرَاءِ الْمَنْسُوبِ إِلَى إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ، لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ الْوَرَاءُ لِإِبْرَاهِيمَ مِنْ

> **اختلفَ المفسّرون في معنى التَّفثِ اختلافًا كثيرًا وأسقطُوه إسقاطاتٍ متعدّدةً.**

جِهَةِ إِسْحَاقَ، فَلَوْ قَالَ: وَمِنَ الْوَرَاءِ يَعْقُوبُ، لَمْ يُعْلَمْ أَهَذَا الْوَرَاءُ مَنْسُوبٌ إِلَى إِسْحَاقَ أَمْ إِلَى إِسْمَاعِيلَ، فَأُضِيفَ إِلَى إِسْحَاقَ لِيَنْكَشِفَ الْمَعْنَى وَيَزُولَ اللَّبْسُ» (5).

ولم يذكرْ مَن رأيتُ من أهلِ التّفسيرِ شاهدًا واحدًا من كلامِ العربِ على كونِ لفظِ الوراءِ بمعنى ولدِ الولدِ – على غرابتِه – ونقلَه عنهم بعضُ أهلِ اللّغةِ كابنِ دُريدٍ حيث يقولُ في ختامِ كلامِـه عن لفظِ (الوراء): «وفسّرَ المُفسّرون في الوراءِ أنّه ولدُ الولدِ في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾(6). وتبعَه ابنُ فارسٍ بقولِه: (ويقال الوراءُ: ولدُ الولدِ، أرادوا بذلك تفسيرَ قولِه تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾(7) .

وتبعَهم صاحبُ اللّسان: «والوراءُ: ولدُ الولدِ. وفي التّنزيل العزيز:﴿وَمِـن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾. قال الشّعبيُّ: الوراءُ: ولدُ الولدِ» (8).

والذي يظهرُ لي من كلامِ ابنِ عبّاس – إن صحّ السّند – أنّه استنْبطَه من سياقِ الآية وتبعَه في ذلك الشّعبيُّ ومَن بعدَهم هلمّ جرًّا، وعَدُّوها لُغةً معروفةً.

الكلمة الثانية : (التفث)

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ [الحج: 92]

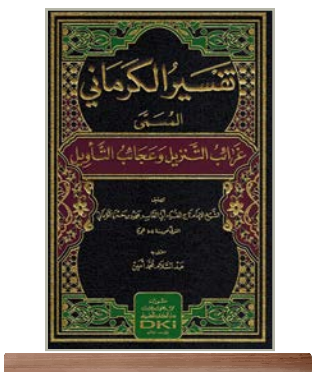
وهي من مُنفرداتِ القرآنِ لم يردْ من جذرِها اللُّغويِّ سواها.

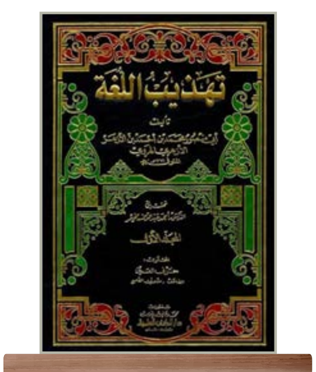
وقدِ اختلفَ المفسّرون في معنى التّفثِ اختلافًا كثيرًا وأسقطُوه إسقاطاتٍ متعدّدةً، والذي نُسلّطُ عليه الضّوءَ هنا أنّهم لم يُوردُوا عليه شاهدًا من شعرِ العربِ. يقول الإمامُ الزّجّاجُ: «والتّفثُ في التّفسير جاء، وأهلُ اللّغةِ لا يعرفونَه إلّا منَ التّفسير»(9).

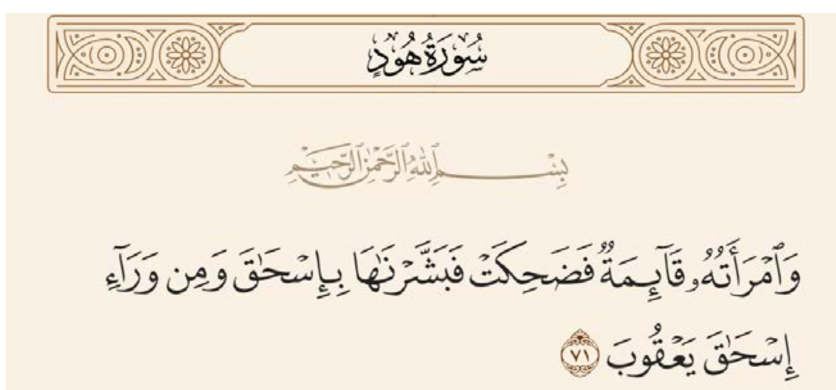
ويقولُ الأزهريُّ: «التّفثُ في كلام العربِ لا يُعرفُ إلّا من قولِ ابنِ عباس وأهلِ التّفسير رحمَهم الله» (10).

ويبقَى السُّؤالُ مطروحًا: هل لهاتين الكلمتَين من نظائرَ يُتحفُنا بها الباحثونَ المتخَصِّصون المتفنّنون في اللّسانِ العربيِّ المبينِ؟ .









1- شرح ديوان الحماسة للتبريزي ج1/ ص3.
2- تفسير الطبري ط الرسالة . ج15.ص395.
3- الكشاف ج2/ص411
4- عجائب التفسير وغرائب التأويل ج1/ص513.
5- البحر المحيط ج6/ص182
6- الجمهرة ج1/ص236
7- مقاييس اللغة ج6/ص104
8- لسان العرب ج1/ص193
9- معاني القرآن وإعرابه ج3/ص423
10- تهذيب اللغة ج14/ص190

التَّشَكُّلُ السّرْدِيُّ للقَصَصِ القُرْآنيِّ



اختارَ الله سبحانَه اللّغةَ العربيّةَ ليُبلِّغَ من خلالِها رسالتَه الخاتمةَ للنّاسِ، ومِن ثَمَّ صرّحَ القُرآنُ غيرَ مرّةٍ أنّه بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ؛ ولذلك جرتْ عليه مُقتضياتُ اللّسانِ العربيِّ في خطاباتِه وتَخاطُبِه، وبناءً عليه يكونُ «الوحْيُ قدِ اتّخذَ في شكلِ تبليغِه وتحقُّقِه وضعًا إنسانيًّا، وخرجَ عن وضْعِه الإلهيِّ الذي لا تُكيِّفُه ولا تحدُّهُ لغةٌ» ، ويترتّبُ على ذلك أيضًا فيما نحن بصددِه أنَّ القَصصَ القُرآنيَّ لُغةٌ تنطبقُ عليها لُغةُ السّردِ في طبيعتِها التّمثيليّةِ والتّشخيصيّةِ لوقائعَ ما، منها ما يستوعبُه البشرُ بحُكمِ زمنيتِه ومنها ما يكونُ لا زمنيًّا فلا يَستوعبُه، لكنّه مؤمنٌ به ومستيقنٌ به نصًّا، وقد لفتَ القرآنُ الكريمُ نفسُه إلى أمرِ تمثيليّةِ اللّغةِ السّرديّةِ المستخدَمةِ من خلالِ تَكرارِ مشاهدَ بعينِها بلُغاتٍ متنوّعةٍ وبإِيقاعاتٍ سرديّةٍ وتراكيبَ لُغويّةٍ مختلفةٍ، موجّهةٍ إلى صنوفٍ منَ المتلقّين والقُرّاء عبْرَ الزّمن.



د. محمود فرغلي
باحث

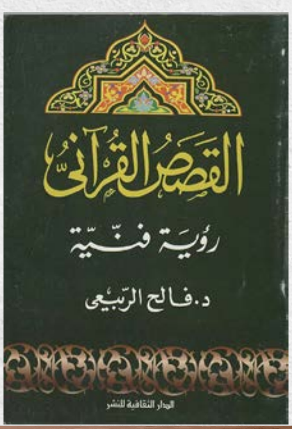
ويرى الباحثُ أنَّ القَصصَ القُرآنيَّ ذو طابَعٍ أدائيٍّ على كلِّ مُستوياتِ إنتاجِه وتداوُلِه، فهو كتابُ عقيدةٍ وهُدى ورسالةٌ خاتمةٌ، وكلُّ رسالةٍ تتضمّنُ مُرسِلاً ومُرسَلاً إليه، كلٌّ على شروطِه، والقرآنُ الكريمُ بطبيعتِه لا يخلصُ لعمليّةِ الحكْيِ المجرّدِ، بل يتساوقُ مع النّصّ ومن ثَمَّ يؤدّي وظائفَ وأدوارًا أكثرَ من مجرّدِ التّسليةِ أوِ الإمتاعِ الفنّي، وربّما أفادَ الباحثُ من حضورِ الأداءِ الواسعِ في مختلفِ الأنشطةِ البشريّةِ والطّباعِ التّداوُليّ للأداءِ اللُّغويّ، فالسّردُ القرآنيُّ فعلٌ لُغويٌّ أدائـيٌّ مثيرٌ للدّهشة في حركيَّتِه، يتحرّكُ زيادةً ونقصًا، وَإيجازًا وتفصيلاً، وفصْلاً ووصْلاً، فقد يقتصرُ الأمرُ على ذكرِ اسمِ الرّسول، أو ذكرِه في آيةٍ واحدةٍ أو أكثرَ من آية أو في خبرٍ سرديٍّ بسيطٍ قوامُه الفعلُ وردُّ الفعل، وقد تأتي القصّةُ مفصّلةً بأحداثٍ وشخصياتٍ وفضاءاتٍ متعدّدةٍ، إضافةً إلى تَكرارِ مشاهدَ وحواراتٍ والسُّكوتِ عن مَشاهدَ بعينِها لتردَ في سياقٍ آخرَ، إلى غيرِ ذلك من ظواهرَ مثيرةٍ للدّهشةِ والتّأمُّلِ ممّا لم نرَهُ ولن نراه في قصصِ البشرِ، وممّا يُعطي السّردَ فاعليّةً وعنفوانًا وتنوُّعًا يُبرزُه في صُوَرِ الأداءِ الفذِّ المُغايرِ الذي ما كان للبشرِ أن يأتُوا بمثلِه ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيرًا.

والمتأمّلُ لرحلةِ تشكُّلِ القَصصِ القرآنيِّ يجدُ أنَّ هذا القَصصَ جاءَ

مُنسجمًا مع الخطابِ القرآنيّ في كلّيّتِه، ومرَّ بالتّحوُّلاتِ ذاتِها التي مرَّ بها تشكُّلُ القرآنِ الكريمِ في رحلةٍ استمرّت ثلاثةً وعشرين عامًا، بما يتضمّنُه من أخبارِ الرُّسل وأقوامِهم، وجاءت أخبارُ المرسَلين متواترةً في سُورٍ وآياتٍ مختلفةٍ، ولذا لاحظْنا أنَّ القَصصَ القرآنيَّ في مسيرتِه أخذَ مسيرةَ اللّغةِ ذاتِها منَ الحرفِ إلى الكلمةِ إلى التّركيبِ، وأقصدُ بذلك أنَّ الحروفَ المقطّعةَ في القُرآن – والله أعلم – جاءت تعبيرًا عن مسيرةِ الإنسانِ اللّغويّةِ حتى اكتمالِ اللُّغةِ كلامًا وتراكيبَ، كذا سارتِ القصّةُ القرآنيّةُ بدءًا منَ العلمِ المفردِ ثمَّ الخبرِ المُوجزِ ثمَّ القصّةِ المفصّلةِ، وَفقًا لمسيرةِ الرّسولِ ذاتِه مع قومِه، ولا حديثَ هنا عنِ الاكتمالِ بالمعنَى البشريِّ للقَصص، بل عن مَشاهدَ وشذراتٍ وإلماحاتٍ سرديّةٍ يقتضيها سياقٌ كلّيٌّ مؤطّرٌ وتتطلّبُها مقاصدُ حاكمةٌ، فالقرآنُ ينظرُ إلى قَصصِ السّابقين في مرايَا اللّحظةِ الآنيّةِ للرّسالةِ المحمّديّةِ وتحوّلاتِها، ويتوغّلُ في نفسياتِ الشّخصيّاتِ وأفعالِهم للوقوفِ على لحظاتٍ ومواقفَ مفصليّةٍ في الصّراعِ بين الإيمانِ والشّرك، فلم يكتملْ هذا القَصصُ دفعةً واحدةً على مستوَى الحدثِ بل تتابعتِ الأحداثُ، في أُطرٍ زمنيّةٍ محدّدةٍ مُوافقةً للمسيرةِ المحمّديةِ، ودخلت في تساوُقاتٍ انسَجمت معها دون اختلافٍ أُسلوبيٍّ أو تركيبيٍّ من خلالِ توزيعٍ موزونٍ وَفقًا لكلِّ سُورةٍ ولكلِّ سياقٍ، باستثناءِ قصّةِ يوسفَ عليه السّلام التي لم تُوَزَّعْ وكذا القصّةُ المثل، فكلٌّ منهما مُكتملٌ بذاتِه، وبناءً على تشكُّلِ السّرديّةِ القرآنيّةِ نلحظُ أنَّ السّردَ امتدَّ منَ العلمِ الدّالِّ مُفردًا إلى العبارةِ السّرديّةِ المُوجزةِ والمُنسجمةِ وَفقًا لسياقاتِها، ونشيرُ هنا إلى مثالَيْن دالَّين على فكرةِ التّشكّلِ المتدرّجِ والذي صبغَ السّردَ بصبغتِه في الانسجامِ والتّساوُقِ والانسيابيّةِ، واندماجِ السّرديِّ مع غيرِه من شكولِ الخطابِ، فقد تأتي العبارةُ السّرديّةُ بما تقدّمُه من معرفةٍ في سياقِ دعاءٍ على نحوِ ما نجدُه في سورةِ إبراهيمَ، يقولُ الله تعالى:

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٣٦) رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ (٣٨) ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٩) رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ (٤٠) رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ (٤١)﴾ [إبراهيم: 35–41].

حيث يلاحظُ أنَّ الإشاراتِ السّرديّةَ مبثوثةٌ في سياقِ الدّعاء، حيث تمتزجُ الإشارةُ السّرديّةُ بالدّعاء إلى الله سبحانه، فمع كلِّ آيةٍ كريمةٍ تُضافُ لبِنةٌ معرفيّةٌ وسرديّةٌ في سيرة إبراهيمَ عليه السّلام، فثمّةَ الإشارةُ المكانيّةُ في الآيةِ الأولى، وثمَّ إشارةٌ إلى سُكنَى بعضِ ذرّيته بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ، ثمَّ إشارةٌ أُخرى إلى ولدَيه إسماعيلَ وإسحاقَ، في توازنٍ دقيقٍ بين الفعلِ المعبّرِ عنِ الذّاتِ وكَينُونتِها وتوجُّهِها من جهةٍ والفعلِ المُنتجِ للمعرفةِ والرّابطِ لسياقاتِ سرْدِها وبنائِها وتَسلْسُلِها، والمقصدُ هو أنَّ القَصصَ القرآنيَّ لم يتشكّلْ على مرحلةٍ واحدةٍ، بل تدرّجَ





وتوزّعَ ما بين كلمةٍ وعبارةٍ وخبرٍ ومثلٍ، وتساوقَ مع كلِّ أشكالِ التّعبيرِ القُرآنيِّ، ومنها الدّعاءُ دون أن يُؤثّرَ ذلك في البُعد النّفسيِّ والطّاقةِ الإيمانيّةِ التي يكتنزُها الدّعاءُ.

وفي مثلٍ ثانٍ من سورة الشُّورى، يقول الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13].

حيث لم تكن لتُؤسَّسَ مفاهيمُ مثلُ وحدةِ دينِ الله إلّا من خلالِ رباطٍ جامعٍ بين مختلفِ الرّسالاتِ، وذكْرٍ لأسماءِ المرسَلين على النّحو الذي جاء في سياقِ الآية، فإذا كان المنطلقُ تشريعيًّا وفي تسلسلٍ مُنتظمٍ وَفقًا لمراحلِ نزولِ الرّسالاتِ، فإنَّ تسميةَ الرّسلِ هي المؤشّرُ الأساسُ الحاملُ والمعبّرُ عن هذا التّسلْسُلِ، فليس المقامُ مقامَ سرْدٍ بالمعنى المعتادِ، وإنّما يتضمّنُ عُنصرًا سرديًّا أساسًا تمظْهرت من خلالِه تراتبيّةٌ عقديّةٌ تربطُ اللّاحقَ بالسّابقِ وتُؤكّدُ وحدةَ دينِ الله.

وفي السّياقِ ذاتِه يمكنُ أن نتوقّفَ أمامَ بعضِ الإشاراتِ الدّالّةِ لبعضِ مراحلِ تشكُّلِ القَصصِ القُرآنيِّ وَفقًا لترتيبِ النّزولِ:

1- وَفقًا لترتيبِ نزولِ السُّورِ لم يردْ ذكرٌ للأنبياءِ إلّا في ختامِ سورةِ الأعلى:﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى:19]. ويلاحظُ هنا أنَّ الحديثَ عن مجموعةِ صُحفٍ لا كتابٍ مُكتملٍ، و الأمرُ الثّاني ذكرُ إبراهيم وموسى – عليهما السلام– وكلاهما يمثّلُ مرحلةً رئيسةً من مراحلِ الإنسانيّةِ، وتجربةً لها امتداداتُها في تحوّلاتِ الوعيِ البشريِّ، وعلاقتِه بالمكان في تجربة إبراهيمَ عليه السّلام وعلاقتِه بالزّمان في تجربة موسى كليمِ الله.

2- أوّلُ قصّةٍ لنبيٍّ جاءت في سورة القلم، حيث تضمَّنت طرفًا من قصّةِ يونسَ عليه السّلام، في حين كانت سورةُ الشّمس أوّلَ سورةٍ تتضمّنُ خبرًا من أخبارِ الأممِ السّابقةِ، وهم قومُ عاد، ثمّ تلتْها سورةُ البروج وقصّةُ أصحابِ الأُخدودِ، ثمّ تتابعَ ذكرُ الأقوامِ التي كذَّبتِ الرّسلَ وعقابِهم مع إضافاتٍ جديدةٍ سواء، فدخلت أقوامٌ وأُممٌ بائدةٌ جديدةٌ وإضافةُ تفاصيلَ لما جرى لهم، قال تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر: 1-14].

ثمّ في سورة ق: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: 12-14].

وفي سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩﴾ [القمر: 9]

السّردُ القرآنيُّ فعلٌ لُغويٌّ أدائيٌّ مثيرٌ للدّهشة في حركيَّتِه، يتحرّكُ زيادةً ونقصًا، وإيجازًا وتفصيلًا، وفصْلًا ووصْلًا.

إنَّ المتأمّلَ لرحلةِ تشكُّلِ القَصصِ القرآنيِّ يجدُ أنَّ هذا القَصصَ جاءَ مُنسجمًا مع الخطابِ القرآنيِّ في كلّيَّتِه.

هذا التّنوّعُ المستمرُّ سارَ في خطّين:

1- إضافةُ أخبارٍ ومعارفَ جديدةٍ لأقوامٍ سبقَ ذكرُهم.

2- إضافةُ خبرٍ جديدٍ عن أقوامٍ جُددٍ بشكلٍ مستمرٍّ يدحضُ فكرةَ التّكرار أو يطوِّرُها.

وهذه الإضافاتُ المستمرّةُ المركّزةُ التي تأخذُ شكْلَ الوصْفِ تارةً أوِ الحدثِ المضافِ أو جملةٍ حواريّةٍ؛

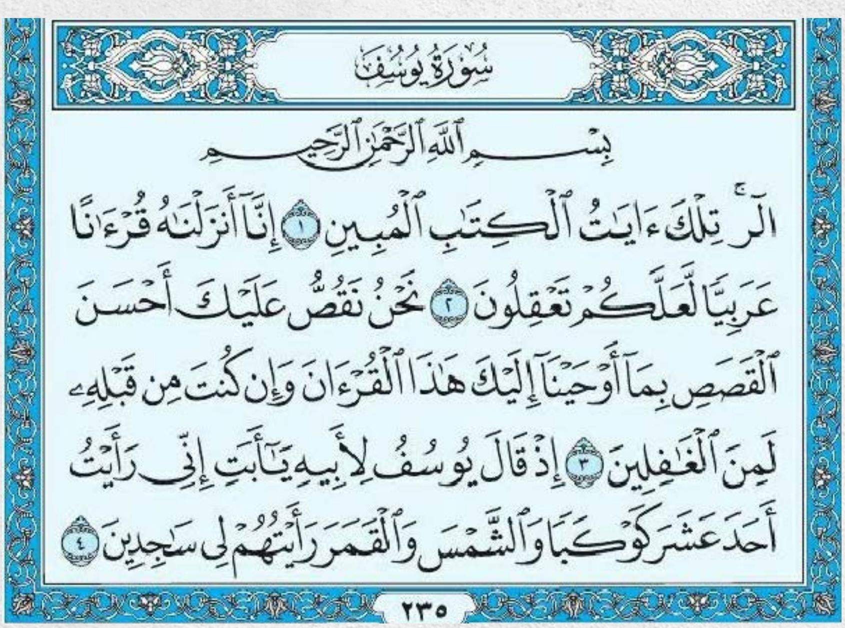
لها دورُها في تثبيتِ الرّسول، وفي إنذار المشركين وتحذيرهم من سوءِ المصير، وهذا معروفٌ، لكنْ ما نراه من بعيدٍ هو أنَّ هذه الإضافاتِ المستمرّةَ تعبّرُ عن مصدرِه المنفصلِ عن محمد ﷺ، فالمعرفةُ القرآنيّةُ تُنزّلُ بقدْرٍ وبميزانٍ منضبطٍ انضباطَ الظّواهرِ الطّبيعيّةِ وتتّخذُ منَ السّرد إطارًا أو أحدَ إطاراتِها الأساسيّةِ، ممّا لا علاقةَ للرّسولِ الكريمِ بها سِوى الإبلاغِ، بل إنَّ تلوينَ الخطابِ يُعاضدُ ذلك، لا لتعجيزِ الكفّارِ أن يأتُوا بمثلِه فقط، لكنّها تُؤشّرُ إلى استحالةِ أن يَصدرَ هذا الكلامُ عن بشرٍ، لا منَ النّاحيةِ المعرفيّةِ فقط، ولكن من ناحيةِ تشكيلِه وتضامِّه وانسجامِه، حتى نرى طريقةَ أداءِ كلِّ قصّةٍ كأنّها عرضٌ جديدٌ، بصوْغٍ جديدٍ وتشكيلاتٍ جماليّةٍ ومعرفيّةٍ وإيقاعيّةٍ وتركيبيّةٍ مُستحدَثةٍ.

3- تتساوقُ كلُّ قصّةٍ مع السُّورة التي تضمّنتْها في تساوُقٍ داخليٍّ تظهرُ ملامحُه في الخيطِ الموضوعيّ الرّئيس، وفي النّسقِ الإيقاعيِّ السّائدِ وفي التّراكيبِ والأساليبِ، إضافةً إلى التّساوُقِ الخارجيِّ مع الصّوتِ الجمعيِّ المضادِّ للرّسولِ والمعاندِ له، حيث يماثلُ صوتٌ جمعيٌّ آخرُ لتلك الأقــوامِ، وهو صوتٌ جمعيٌّ توافقَ على العنادِ والتّكذيبِ، يماثلُ تمامًا موقفَ المشركين منَ الرّسول، ولذا تحيلُ إليهم الآياتِ مباشرةً عن طريق الضّميرِ أو بصورةٍ غيرِ مُباشرةٍ.

4- لم تتشكّلْ شخصيّةٌ فرديّةٌ من جميعِ جوانبِها في هذا النّمطِ المُوجزِ منَ القصِّ، فهو لا يخاطبُ فردًا بعينِه، وحين كان الأمرُ يتعلّقُ بالرّسولِ الكريمِ كان النّموذجُ المقدّمُ فرديًّا وهو يونسُ عليه السلام: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ يرتبطُ بالحدثِ في ذاتِه أكثرَ منَ الشّخصيّةِ التي لا يقدّمُ القرآن أيًّا من ملامحِها الجسديّةِ – إلّا إذا استدعى السّياقُ ذلك- سوى حواملَ للفعلِ السّرديِّ من جهةٍ ،وتأكيدٍ لأعبائِها الأخلاقيّةِ من جِهَةٍ أُخْرى ، فارتبطَ كلُّ رسولٍ بصفةٍ أو أكثرَ من صفاتِ السّموِّ الأخلاقيِّ المناظرِ لدعوتِه والضّابطِ لانحرافِ قومِه.

5- يكادُ يخلُو هذا النّمطُ السّرديُّ الموجَزُ منَ الحواراتِ، فهو سردٌ مكثّفٌ ومركّزٌ يصلُ إلى النّتيجةِ مباشرةً كما يتّسمُ بإيقاعاتٍ صوتيّةٍ عاليةٍ تتناسبُ مع صِيَغِ التّحذيرِ المستمرّةِ، ومع توالي نزولِ الآيـاتِ والسُّورِ أخذتِ السّرديّةُ القرآنيّةُ شكلًا جديدًا، حيث برزتْ شخصيّاتُ الأنبياءِ في مواقفَ متنوّعةٍ، ومواجهاتٍ مباشرةٍ وحواراتٍ مليئةٍ بالجدلِ والحِجاجِ ومحاولاتِ الإقناعِ، مع استمرارِ الإضافاتِ النّوعيّةِ والمعرفيّةِ الدّقيقةِ سَواء على مستوى البيئةِ الاقتصاديّةِ أوِ الاجتماعيّةِ أوِ الزّمانيّةِ والمكانيّةِ، ومع دخولِ اليهودِ على خطِّ المواجهَةِ مع الرّسولِ وتَساؤلاتِهم المتكرّرةِ أخذتِ السّرديّةُ القرآنيّةُ منحًى جديدًا بكلِّ معنَى الجدّةِ.

نكتفِي بهذا القدْرِ من تتبُّعِ تشكُّلِ السّرديِّ للقَصصِ القُرآنيّ، حيث تتابعتِ السُّورُ والآياتُ التي تتضمّنُ أخبارَ السّابقين ومآلاتِهم، وما نقصدُه هو أنَّ تشكُّلَ هذا القَصص المُعجزِ سارَ على منوالِ تشكُّلِ القُرآن كلِّه، ووَفْقَ مراحلِ نزولٍ على قلبِ الرّسول ﷺ مُنجّمًا وهو ما يتطلّبُ دراسةً موسّعةً قائمةً بذاتِها.


سُورَةُ يُوسُفَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا
عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ
ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ
لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ
أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤

٢٣٥



البَـلَاغَـــةُ في أُسْلُــوبِ الاسْتِفْهَامِ وأَغْرَاضِهِ في القرآن الكـريم (1)



د. غسان محمد الشيخ
أكاديمي وأستاذ جامعي

يُعَدُّ عِلْمُ البلاغةِ حِليةَ الكلامِ، وزِمامَه إلى المرامِ، ويحتلُّ من علومِ العربيّةِ محلَّ اليتيمةِ من قلائدِ العِقيانِ، فهو السّبيلُ للوقوفِ على معرفةِ عظَمةِ نظْمِ القرآنِ العظيمِ، ومُعجزةِ كلامِ الرّحمنِ الرّحيمِ، وأسرارِه الباهرةِ، ونُكتِه اللّطيفةِ، وممّا لا شكَّ فيه أنَّ القرآنَ الكريمَ قد بلغَ في البلاغةِ القمّةَ، وأنّه لا ولن يستطيعَ أحدٌ مهما كان منَ العلْمِ، أن يحيطَ ببلاغتِه وخصائصِه العظيمةِ، لكنّنا نحاولُ بقدْرِ الإمكانِ، تسليطَ الضّوءِ على جانبٍ من جوانبِ عظَمةِ القُرآن، تحدّثَ عنه علماؤنا رحمَهم الله تعالى، ألَا وهو أغراضُ أسلوبِ الاستفهامِ في القُرآن الكريم؛ فالاستفهامُ فنٌّ عظيمٌ من فنونِ القول، يَسري في أنماطِ الكلامِ سَريانَ النّسيمِ في الرّياضِ العَطرةِ، ويزدادُ تألُّقًا وبهاءً في الأساليبِ الأدبيّةِ الرّفيعةِ، ويكشفُ عن خبِيئاتِ المعاني ودقائقِ الأسرار، ويحملُ النّفوسَ على الانتِشاءِ، والمشاعرَ على التّوقُّدِ، والعقولَ على الإقناعِ، ويُريكَ المعاني ألوانًا زاهيةً، ومذاقاتٍ متفاوتةً، تتمكّنُ منَ القلوبِ وتأسرُها؛ ولأجل هذا تبَوَّأَ الاستفهامُ وأساليبُه في القرآن الكريم منزلةَ الثّريّا عند المفسّرين والبلاغيّين والنُّقاد. لقد قام الأستاذُ الدّكتور محمد عبد الخالق عضيمة رحمه الله تعالى، بإحصاءِ صُورِ الاستفهامِ التي وردت في القرآن الكريم، فبلغت ألفًا ومئتين وستين(1260) صورةً.

الاستفهامُ وأدواتُه

بيّنَ العلماءُ أنّ الاستفهامَ بالجُملة له دلالتان: دلالةٌ وضعيّةٌ حقيقيّةٌ، وهي طلبُ الفهمِ ومعرفةِ المجهولِ، ودلالةٌ مجازيّةٌ بلاغيّةٌ، تُفهمُ من سياقِ الكلامِ ودلالتِه، ومزايَا أسلوبِ الاستفهامِ تَكمنُ في هذه الدّلالةِ المجازيّةِ؛ لكثرةِ ما فيها منَ الأغراضِ واللّطائفِ الجميلةِ. وأدواتُ الاستفهامِ هي: الهمزةُ، وهل، ومَن، وما، ومتى، وأيّان، وكيف، وأين، وأنّى، وكم، وأيّ، وتنقسمُ بحسبِ الطّلبِ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

أ. ما يُطلبُ به التّصوُّرُ، أوِ التّصديقُ، وهو: (الهمزة)، ويُقصدُ بالتّصوّر: إدراكُ أيِّ مُفردٍ من مُفرداتِ الأشياءِ أوِ المعاني، وقد يكون مُسنَدًا إليه، نحو: أأنت فعلتَ هذا أم يوسفُ؟ وقد يكون مسنَدًا، نحو: أراغبٌ أنت عنِ الأمرِ أم راغبٌ فيه؟ وقد يكون مفعولًا، نحو: إيّاي تقصدُ أو سعيدًا؟ وقد يكون حالًا، نحو: أراكبًا حضرتَ أم ماشيًا؟ وقد يكون ظرفًا، نحو: أيومَ الخميس قدمتَ أم يومَ الجمعة؟ ويُقصدُ بالتَّصديق: إدراكُ وقوعِ نسبةٍ تامّةٍ بين المسنَد والمسنَد إليه، أو عدمِ وقوعها. (جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي:88)

ب. ما يُطلبُ به التّصديقُ فقط، وهو: (هل)؛ كقولك: هل قام زيد؟

ج. ما يُطلبُ به التّصوّرُ فقط، وهو بقيةُ ألفاظِ الاستفهام: مَن، وما، ومتى، وأيّان، وكيف، وأين، وأنّى، وكم، وأيّ. (بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: 2/ 33)

ويمكنُ تقسيمُ أدواتِ الاستفهامِ باعتبارٍ آخرَ إلى قسْمَين: هما حرفَا الاستفهامِ، وأسماءُ الاستفهام

أ. حرفَا الاستفهامِ ومعانيهما الحقيقيّةُ

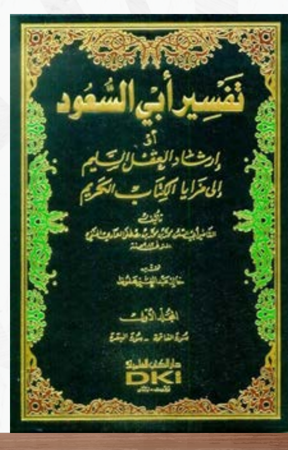
• الهمزةُ: يُطلبُ بها التّصوّرُ عندما يُستفهمُ بها عنِ المفردِ، نحو: أخالدٌ شجاعٌ أم سعيدٌ؟ ويجبُ ذكرُ المسؤولِ عنه بعدَها، ويكونُ له معادلٌ يُذكرُ بعد (أم) غالبًا وتُسمَّى متّصلةً، وقد يُستغنَى عن ذكرِ المعادلِ نحو: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: 62]

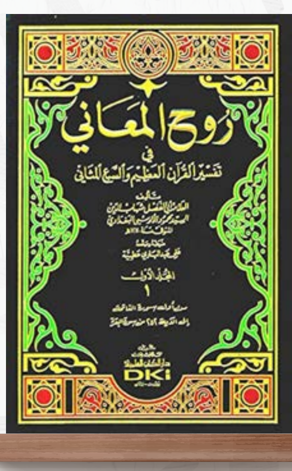
ويُطلبُ بالهمزةِ التّصديقُ إذا أُريد بها النّسبةُ، ويكثرُ ذلك في الجُملِ الفعليّةِ، نحو: أجتهدَ خليلٌ؟ تستفهمُ عن نسبةِ الاجتهادِ إليه، ويُستفهمُ بها في الإثبات -كما ذُكِر- وفي النّفي، نحو: ألم يُسافرْ أخـوك؟ ويمتنعُ أن يُذكرَ مع همزةِ التّصديقِ معادلٌ، فإن جاءت (أم) بعدها قُدّرت منقطعةً، وتكونُ بمعنى (بل) نحو:

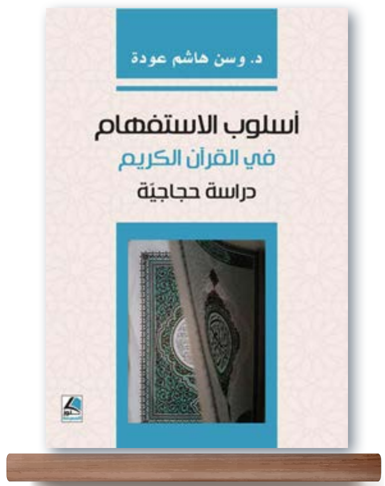
وَلَسْتُ أُبَالي بَعْدَ فَقْدِيَ مَالِكًا
أَمَوْتِيَ نَاءٍ أَمْ هُوَ الآنَ وَاقِعُ؟

• وهل: يُطلبُ بها التّصديقُ فقط، ولا يُستفهمُ بها إلّا عنِ الجملة في الإثبات، نحو: هل قرأتَ النّحو؟ وأكثرُ ما يَليها الفعلُ، وقلَّ أن يليَها الاسمُ نحو: هل عليٌّ مجتهدٌ؟ وهل لا تدخلُ على المضارعِ؛ لذلك لا يقالُ: هل تُسافرُ الآن؟ ولا على جُملةِ الشَّرط، فلا يقالُ: هل إذا زُرْتك تُكرمْني؟ ولا على جملةِ الجواب، نحو: إن يَقُمْ سعيدٌ فهل تقوم؟ ولا على «إنَّ»

> يُعَدُّ عِلْمُ البلاغةِ حِليةَ الكلامِ، وزِمامَه إلى المرامِ، ويحتلُّ من علومِ العربيّةِ محلَّ اليتيمةِ من قلائدِ العِقيانِ.







> **بيّنَ العلماءُ أنّ الاستفهامَ بالجُملة له دلالتان: دلالةٌ وضعيّةٌ حقيقيّةٌ، وهي طلبُ الفهم ومعرفة المجهولِ، ودلالةٌ مجازيّةٌ بلاغيّةٌ، تُفهمُ من سياقِ الكلامِ ودلالتِه.**

ونحوِها؛ لأنّها للتّوكيدِ وتقريرِ الواقعِ والاستفهامُ يُنافي ذلك.

ب. أسماءُ الاستفهامِ ومعانِيها الحقيقيّةُ

أسماءُ الاستفهامِ: أَسماءٌ مبهمةٌ يُستفهمُ بها عن شيء، نحو: من جاء؟، وهذه الأسماءُ كلُّها موضوعةٌ للتّصوّرِ فقط، وهي على النّحو الآتي:

• «مَنْ، ومَنْ ذا»: يُستفهمُ بها عنِ العاقل، نحو: من فتح الأندلسَ؟ ونحو: من ذا مُسافرٌ؟ وقد وردت (مَنْ) في القرآن الكريم أكثرَ من ثمانين مرّة أغلبُها للنّوع، وأكثرُها لإثبات ظلْمِ الكافرين عن طريق الاستفهام المُشْرَب بالنّفيِ، مثل: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: 111]

• «ما و ماذا»: يُستفهم بهما عن غيرِ العاقلِ، وعن حقيقة الشّيء أو صفتِه سواء أكان عاقلاً أمْ غيرَ عاقلٍ تقولُ: «ما الدّرس؟» و»ماذا قرأتُ؟» و»ما الأسدُ؟» و»ما الإنسانُ؟» و «ما زهيرٌ؟» للاستفهام عن صفاتِه ومميّزاتِه.

• «متى»: ويُستفهمُ بها عنِ الزمان عمومًا، نحو: متى جئتَ ؟ ونحو: متى تولى الخلافةَ عليٌّ رضي الله عنه؟ وقد وردت تسعَ مرّات في القرآن على معانٍ مجازيّةٍ متعدّدةٍ.

• «وأيّـــان»: يُستفهمُ بها عنِ الزّمان المستقبلِ في حال التّعظيمِ والتّفخيمِ والتّهويلِ، كقوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ [الذاريات: 12] وحملَه بعضُ العلماء على الاستبعادِ؛ لأنَّ السّؤال فيها عمّن لا يؤمنُ بيومِ الدّين؛ فالظّاهر في سؤاله الاستبعادُ لا التّفخيمُ، (بغية الإيضاح: 2/ 37) وقد وردتْ ستَّ مرّات في القرآنِ الكريم.

• «أَيْنَ»: يُستفهمُ بها عنِ المكان، إذا قيل: أين زيد؟ فجوابُه في الدّار أوِ السّوقِ أو نحوِ ذلك، وقد وردتْ عشرَ مرّات في القرآن الكريم في معانٍ مجازيّةٍ.

• «كَيْفَ»: يُستفهمُ بها عن حالة الشّيء، نحوَ قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ [مريم: 29]، وقد وردتْ أكثرَ من ثمانينَ مرّة في القرآن الكريم.

• «أنّى»: تكونُ للاستفهامِ بمعنى «كيف» كقولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ [مريم: 8] . وبمعنى «مِنْ أينَ» كقولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37]

• «كمْ»: يُستفهمُ بها عن عددٍ يرادُ تعيينُه، كقوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾ [الكهف: 19] أيْ كم يومًا أو كم ساعةً؟

• «أيُّ»: للسّؤالِ عمّا يميّزُ أحدَ المتشاركين في أمرٍ يعمُّهما، كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل: 38] ويُسألُ بها عنِ الزّمانِ والمكانِ والحالِ والعددِ والعاقلِ وغيرِه، على حسبِ ما تُضاف إليه، فإن أُضيفت مثلاً إلى ما تُفيدُه (ما) أخذتْ حُكمَها، وإن أُضيفت إلى ما تُفيدُه (متى أو كيف) أو غيرُهما منَ الأدواتِ السّابقةِ أخذتْ معناها.

أغراضُ الاستفهامِ في القُرآن الكريم

الأصلُ في أسلوبِ الاستفهامِ أنّه يأتي لطلبِ الفهمِ، ومعرفةِ المجهول، لكنّه في الخطابِ القُرآنيّ في الغالبِ يخرجُ عن حقيقتِه الوضعيّةِ إلى معانٍ أخرى، يُرجعُ في إدراكِها إلى الذّوقِ الأدبيِّ والسّياقِ ومقاماتِ الكلامِ، ولا يكونُ استعمالُها في غيرِ ما وُضعتْ له إلّا لطريقةٍ أدبيّةٍ، تجعلُ لهذا الاستعمالِ مزيّةً، يَترقّى بها

الكلامُ في درجاتِ البلاغةِ، وبهذا الاعتبارِ ينقسمُ الاستفهامُ إلى قسمَين:

الاستفهامُ التّقريريُّ: ويكونُ إذا كان المُستفهمُ عنه مُثبتًا في المعنى؛ نحوَ قوله تعالى:﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:1] وضابطُه حلولُ (قد) محلَّ أداةِ الاستفهام، أي: قد شرحْنا لك صدْرَك.

الاستفهامُ الإنكاريُّ: ويكونُ في صورتَين:

أ. أن يكونَ ما بعد أداةِ الاستفهامِ مَنفيًّا لا وجودَ له في الخارج، نحوَ قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: 45] أي: لم نجعلْ ذلك.

ب. أن يكونَ ما بعد أداةِ الاستفهامِ مُثبتًا له وجودٌ في الواقع، لكنّه كان لا يَنبغي لَهُ أن يكونَ أصلاً؛ نحوَ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 2] ، فالقولُ الواقعُ بعدَ الاستفهامِ، واقعٌ وله وجودٌ في الخارج، ولا ينبغي لهُ أن يكونَ أصلاً.

ومن هذين القسمَيْن: الاستفهامُ التّقريريُّ، والاستفهامُ الإنكاريُّ، انبَثقت معانٍ أُخرى تُناسبُ السّياقَ والمقامَ، تردّدت على ألسنةِ علماءِ التّفسيرِ والبلاغةِ، مثلَ التّقريع، وَالزّجر، وَالتّوبيخ، وَالتّبهيج، وَالامتنان، وَالتّكذيب، وَالتّحضيض، وَالنّفي، وَالاستبعادِ، وَالتّنديم، وَالتّحسيرِ، وَالتّشويقِ، وَالحثِّ، وَالتّسليةِ، وَالنّهي، وَالتّعزيةِ، وَالتّسريَةِ، وَالأمرِ، وَالتّعجيز ....إلخ، وهذه المعاني صالحةٌ لكلٍّ منَ الاستفهامِ التّقريريِّ، والاستفهامِ الإنكاريِّ، وفي بعضِ المواضعِ يتبعُ التّقريرُ الإنكارَ، والإنكارُ يتبعُ التّقريرَ، ولهذا شيوعٌ في صُوَرِ الاستفهامِ في القرآنِ الحكيم، وفيما يأتي تَتَبُّعٌ لصُورِ الاستفهامِ وأغراضِه البلاغيّةِ في القُرآنِ الكريم.

أوّلًا: أغـراضُ الاستـفـهـامِ في «سُورة البقرة»

1. التّسويةُ:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 6]

تصدّرت كلمةُ (سواء) الجملةَ ثمّ جاءتِ الهمزةُ داخلةً على الفعل الماضي (أأنذرتهم)، وجاءت (أم) داخلةً على الفعل المضارع (تنذرهم) والتي عطفتْ ما بعدها على ما بعدَ الهمزةِ. خرجتْ كلٌّ منَ (الهمزة) و(أم) عن أصلِهما الذي هو الاستفهامُ، إلى معنى التّسويةِ، يقولُ القُرطبيّ: سواءٌ عليهم معناه: معتدلٌ – أي متعادلٌ– عندهم الإنذارُ وتركُه، وجيءَ بالاستفهام من أجل التّسويةِ. (الجامع لأحكام القرآن:1/184) ونحوُ هذا جاء عنِ الإمام الآلوسيّ والإمامِ النّسفيّ وغيرِهما منَ العلماء رحمَهُم الله تعالى.

من أغراض الاستفهام :

التحقير	فدَعِ الوعيدَ فما وعيدُكَ ضائري / أَطنينُ أجنحةِ الذُّبابِ يَضيرُ
التمني	﴿ فهل لنا من شفعاءَ فيشفعوا لنا ﴾
التعجب	﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾
الاستبطاء	﴿ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾
التشويق	﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾
التقرير	﴿ ألستُ بربكم ﴾
النفي	﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾
الإنكار	﴿ أهم يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾

2. الإنكارُ والاستخفافُ:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 13]

هذا الآيةُ الكريمةُ تتحدّثُ عنِ المنافقين، والاستفهامُ فيها إنكاريٌّ، يقولُ أبو السعود: «أرادوا لا يكونُ ذلك أصلاً، فالهمزةُ للإنكارِ الإبطاليّ» (روح المعاني:1/ 155) أي أبطلُوا به دعوتَهم للإيمان في قولِ داعيهم إليه»وإذا قيل لهم آمنو كما آمن الناس»، ونحوُ هذا ذكر ابنُ عاشور حيث قال:»استفهامٌ للإنكار، قصدُوا منه التّبرّؤَ منَ الإيمان على أبلغِ وجْهٍ، وجعلوا الإيمانَ المتبرّأَ منه شبيهًا بإيمانِ السُّفهاء تشنيعًا له، وتعريضًا بالمسلمين» (التّحرير: 1/287)

والتّأمُّلُ يُشعرُ بأنّ المرادَ في الاستفهام هنا هو: الإنكارُ والاستخفافُ، وليس الإنكارَ وحده كما قال جمهورُ المفسّرين، فقولُهم (أنؤمن) إنكارٌ للإيمان، وقولُهم (كما آمن السفهاء) استخفافٌ واحتقارٌ للقُدوةِ التي لفتَهم إليها الدّاعي وهي إيمانُ النّاس، فردّ الله عليهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ ، ويُلاحظُ في هذا الرّدّ بلاغةٌ عاليةٌ؛ فقد أثبت الله تعالى لهم السّفهَ بعدّةِ أدواتٍ:

أ. حرفُ الاستفتاحِ (ألا) وهو للتّنبيه وتهيئةِ العُقول لاستقبالِ الخطابِ.

ب. حرفُ التّوكيدِ (إنّ) في (إنّهم).

ج. ضميرُ الفصلِ (هم) بعد (إنهم).

د. تعريفُ الطّرفين: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ المسنَد إليه ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ ثمّ المسنَد ﴿ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ .

والجملةُ الفاصلةُ ﴿وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ فيها دلالةٌ على جهْلِ المنافقين، و حَذْفُ مفعولِ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيه ميزتانِ بلاغيَّتانِ:

أ. ميزةُ لفظٍ، تتمثّلُ في انسجامِها مع رؤوسِ الآياتِ التي قبْلَها وبعْدَها؛ لأنّها مُنتهيةٌ إمّا بالواو والنّون، أوِ الياء والنّون؛ ليتمّ التّناسقُ الصّوتيّ.

ب. ميزةُ معنى، وهي التّعميمُ، فهم لا يعلمون أيَّ نوعٍ من أنواعِ العلم.

3. الإنكارُ والتّوبيخُ والتّعجيبُ:

قال الله تعالى:﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 28]

صُدّرتِ الآيةُ بأسلوبِ الاستفهامِ الّذي أداتُـه (كيف) وقد دخلَ على الفعلِ المضارعِ (تكفرون) بدلاً منَ الماضي (كفرتم)؛ لأنَّ المضارعَ إشارةٌ إلى كُفرهم به ساعةَ الخطابِ، كما يدلُّ على أنّ كُفْرهم هذا لم ينقطعْ يتجدّدُ مع كلِّ مطلعِ شمسٍ. والاستفهامُ هنا هو استفهامٌ مجازيٌّ، المرادُ منه: الإنكارُ والتّوبيخُ والتّعجيبُ، إنكارٌ على كُفْرهم، وتوبيخٌ لهم على فعْلِهم؛ لعدمِ العُذر، وتعجُّبٌ من شناعةِ كُفْرهم؛ فالبراهينُ ناطقةٌ بوجوبِ الإيمان. قال الزّمخشريُّ: «معنَى الهمزةِ التي في كيف مثلُه في قولك: أتكفرون بالله ومعكم ما يَصرفُ عنِ الكُفر ويدعُو إلى الإيمانِ وهو الإنكارُ والتّعجبُ ونظيرُه أتطيرُ بغيرِ جناحٍ وكيف تطيرُ بغيرِ جناح».(الكشاف:1/ 269).

قال الإمـامُ أبو السعود:»﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ التفاتٌ إلى خطابِ المذكورين مبنيٌّ على إيرادِ ما عدّدَ من قبائحِهم السّابقةِ، لتزايُدِ السَخَط الموجبِ للمشافهةِ بالتّوبيخِ والتّقريعِ، والاستفهامُ إنكاريٌّ لا بمعنى إنكارِ الوقوعِ كما في قوله تعالى:﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ بل بمعنى إنكارِ الواقعِ واستبعادِه والتّعجيبِ منه، وفيه منَ المبالغة ما ليس في توجيه الإنكارِ إلى نفس الكُفرِ بأن يقال: أتكفرون؛ لأنَّ كلَّ موجودٍ يجبُ أن يكون وجودُه على حالٍ منَ الأحوال قطعًا،



فإذا انتفى جميعُ أحوال وجودِه، فقدِ انتفَى وجودُه على الطّريق البُرهانيّ، وقولُه عزّ وجلّ: ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا﴾ إلى آخر الآية حالٌ من ضمير الخطابِ في تكفرون مؤكّدةٌ للإنكار والاستبعادِ بما عُدِّد فيها منَ الشّؤون العظيمةِ الدّاعيةِ إلى الإيمان الرّادعةِ عنِ الكُفر من حيث كونُها نعمةً عامّةً، ومن حيث دلالتُها على قُدرةٍ تامّةٍ كقوله تعالى:﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾.»(تفسير أبي السعود:1/ 76 وما بعدها)

وقد فرّقَ الإمامُ الآلوسيّ بين التّعجُّبِ والتّعجيبِ، بناءً على أنّ التّعجّبَ يكون ممّا يُجهلُ أسبابُه، وهو في حقِّ الله تعالى محالٌ، وأمّا التّعجيبُ فهو دعوةُ الله عبادَه أن يتعجّبوا من حال هؤلاء الكفرة، حيث كفروا مع قوّةِ الصّوارفِ عنِ الكُفر، وقوّةِ الدّلائلِ الدّاعيةِ إلى الإيمان، وأيًّا كان فإنَّ هذا الاستفهامَ عنده مجازيٌّ لا حقيقيٌّ مُرادٌ منه: الإنكارُ والتّوبيخُ والتّعجيبُ. (روح المعاني:1/ 212 وما بعدها)

4. التّعجُّبُ وقيل هو استفهامٌ محْضٌ :

قال الله تعالى : ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 30]

وقع خلافٌ بين علماءِ التّفسير في معنَى الاستفهام الواردِ في الآيةِ الكريمة، فمنهم من قال: إنّه للتّعجُّبِ، فقد جاء في تفسير أبي السُّعود بعد أن قرّر أنّه للتّعجّبِ: «وإنّما أظهرُوا تعجُّبَهم استكشافًا عمّا

إنّ مزايَا أسلوبِ الاستفهام تَكمنُ في الدّلالةِ المجازيّةِ؛ لكثرةِ ما فيها منَ الأغراضِ واللّطائفِ الجميلةِ.

خفِيَ عليهم منَ الحِكَم التي بدتْ على تلك المفاسدِ وألغَتْها، واستخبارًا عمّا يُزيحُ شُبهتَهم ويُرشدُهم إلى معرفةِ ما فيه عليه السّلامُ منَ الفضائلِ التي جعلتْه أهلاً لذلك كسؤالِ المتعلّمِ عمّا ينقدِحُ في ذهنِه لا اعتراضًا على فعْلِ الله سبحانه ولا شَكًّا في اشتمالِه على الحِكمةِ والمصلحةِ إجمالاً ولا طعنًا فيه عليه السّلامُ ولا في ذرّيته». (تفسير أبي السعود:1/ 82)، وهذا رأيُ الزّمخشريِّ والرّازي رحمَهُما الله تعالى. (الكشاف:1/ 271)(التفسير الكبير: 2/ 168)

ومنهم من قال: الاستفهامُ في الآية يحتملُ أن يكون أيضًا استفهامًا حقيقيًّا، يقول الآلوسيّ: «﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ استكشافٌ عنِ الحكمةِ الخفيّةِ، وعمّا يزيلُ الشّبهةَ، وليس استفهامًا عن نفْيِ الجعْلِ والاستخلاف؛ لأنّهم قد علِمُوه قبْلُ، فالمسؤولُ عنه هو الجعلُ، ولكنْ لا باعتبارِ ذاتِه، بل باعتبارِ حكمتِه، ومزيلِ شُبهتِه، أو تعجُّبٌ من أن يَستخلفَ لعِمارةِ الأرض وإصلاحِها من يفسدُ فيها، أو يَستخلفُ مكانَ أهلِ الفسادِ، مثلَهم، أو مكانَ أهلِ الطّاعةِ أهلَ المعصيةِ، وقيل: استفهامٌ محْضٌ (أي حقيقيٌّ) حُذفَ فيه المعادلُ، أي﴿ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا ﴾ أم تجعلُ من لا يُفسدُ. (روح المعاني:1/ 223)، ونحا القرطبيُّ منحَى الآلوسيِّ في جواز أن يكون الاستفهامُ حقيقيًّا على تقدير حذْفِ المعادلِ. (الجامع لأحكام القرآن:1/ 274)، والذي تَطمئنُّ إليه النّفسُ أنَّ الجوازَ قولٌ ضعيفٌ؛ لأنَّ ما لا يحتاجُ إلى تقديرِ محذوفٍ أولى ممّا يحتاجُ إلى تقديرٍ.

ومنهم من جعلَ الاستفهامَ في الآية حقيقيًّا، وجوبًا لا احتمالاً، وهذا رأيُ الشّيخِ الطّاهر بنِ عاشور، حيث يقول: «والاستفهامُ المحكيُّ عن كلام الملائكة محمولٌ على حقيقتِه مضمَّنٌ معنى التّعجّبِ والاستبعادِ من أن تتعلّقَ الحكمةُ بذلك، فدلالةُ الاستفهام على ذلك هنا بطريقِ الكنايةِ مع تطلُّبِ ما يُزيلُ إنكارَهم واستبعادَهم، فلذلك تعيّنَ بقاءُ الاستفهام على حقيقتِه خلافًا لمن توهّمَ الاستفهامَ هنا لمجرّدِ التّعجُّبِ» (التحرير:1/ 402)

والرّاجحُ حملُ الاستفهامِ في الآيةِ على التّعجّبِ؛ لأنَّ سياقَ الكلامِ يشعُّ بالتّعجُّبِ الذي غمَرَ مشاعرَ الملائكة، فقدِ اندهشُوا من أمرِ الخلافةِ مع الصّفاتِ التي يعرفونَها عنِ المرشّحِ لها، ويصعبُ أن يكونَ على الحقيقةِ، والله تعالى أعلم.

نُكملُ أغراضَ الاستفهامِ في القرآن الكريم في الإصدار القادم إن شاء الله تعالى



كَـنْـزُ المَخْطُوطَاتِ القُرآنيّةِ المُبَكِّرَةِ



أ. د. بسّام الجمل
أستاذُ الدّراساتِ القُرآنيّةِ
بجامعةِ محمّد بنِ زايد
للعلومِ الإنسانيّةِ

تُعدُّ المخطوطاتُ القُرآنيّةُ المبكِّرةُ (أي تلك التي يعود تاريخُها إلى ما قبْلَ مُنتصفِ القرنِ الثّاني الهجري/منتصفِ القرنِ التّاسع للميلاد) كنزًا لا يُقدّرُ بثمنٍ، وذلك لأسبابٍ عديدةٍ أهمُّها أنّ عددَ المخطوطاتِ من هذا الصّنفِ قليلٌ جدًّا، وهي في الغالبِ أجزاءٌ منَ القرآنِ الكريم، بل إنّ البعضَ منها لا يتجاوزُ بضْعَ ورقاتٍ، وهو ما يُضاعفُ من قيمتِها التّاريخيّةِ. ثمّ إنّ هذه المخطوطاتِ المبكّرةَ تُوفّرُ للباحثين اليومَ شاهدًا ماديًّا منَ الطّرازِ الأوّلِ يُساعدُهم على مزيدِ تدقيقِ الكتاباتِ المعروفةِ قديمًا وحديثًا عن تاريخِ القرآن، بل قد يُحوجُ الدّرسُ إلى إعادةِ كتابةِ ذاكَ التّاريخِ. وفضلًا عن ذلك، تيسّرُ المخطوطاتُ القرآنيّةُ المبكّرةُ التي اكْتُشِفَتْ إلى حدِّ الآنَ عقْدَ مقارناتٍ بينها وبين الرّواياتِ والأخبارِ الواصلةِ إلينا عن تاريخِ القرآن، مثلِ مُصنّفاتِ علومِ القرآنِ أوِ الكُتبِ المُفردةِ في تاريخِ المصاحفِ من جهةٍ ، وبينها وبينَ النّقوشِ القُرآنيّةِ على الحَجر، وخاصّةً منها النّقوشُ المؤرَّخةُ من جهةٍ أُخرى.

إنّ هذه الأسبابَ الثّلاثةَ كافيةٌ في تقديرنا كي نُولِيَ المخطوطاتِ القُرآنيّةَ المبكّرةَ ما تَستحقُّ منَ الدّراسةِ والبحثِ المعمّقَيْن من أهلِ الاختصاص. ووجودُ أغلبِها اليومَ محفوظةً في مكتباتِ العالَمِ أو متاحفِه دليلٌ على قيمتِها التّاريخيّةِ. ونحن باعتبارِنا عربًا مُسلمين نَعُدُّ تلك المخطوطاتِ جُزءًا من تُراثِنا المادّيّ العزيزِ علينا، بل هو جُزءٌ لا يَتَجَزَّأُ من وِجدانِنا وضميرِنا الدّينيّ نظرًا إلى قيمتِه الاعتباريّةِ أوِ الرّمزيّةِ.

ولو شئْنا التّعريفَ بهذه المخطوطاتِ القُرآنيّةِ المبكّرةِ وبأهمِّ الدّراساتِ المُنجزةِ عنها لَتأكّدتْ لدينا حقيقتان، إحداهُما قلّةُ تلك الدّراساتِ؛ لأنّها مُنحصرةٌ في دائرةِ أهلِ العلْمِ والاختصاصِ الدّقيقِ (ضرورةُ الإلمامِ الجيّدِ بخصائصِ الرّقوقِ وبأنواعِ الخطوطِ وبكلِّ المعطياتِ التّاريخيّةِ المتّصلةِ بها). أمّا الحقيقةُ الأُخرى، فتتمثّلُ في استئثارِ المستشرقِين الجُددِ بتلك الدّراساتِ حتّى أضْحَت حِكرًا عليهم أو ما يقربُ من ذلك.

نملكُ اليومَ صنْفَين منَ المخطوطاتِ القُرآنيّةِ المبكّرةِ: صنْفٌ مؤرّخٌ (بعدَ التّحقّقِ من أنّ التّاريخَ المدوّنَ على المخطوطِ غيرُ مُزوّرٍ)، وآخرُ غيرُ مؤرّخٍ، ولكنْ يمكنُ التّعرّفُ إلى تواريخِها على وجه التّقريبِ استنادًا إلى تقنيةِ الكَربون المُشعِّ (C 14). فبخصوصِ الصّنفِ الأوّلِ نذكرُ «مُصحفُ أماجور»، نسبةً إلى والي

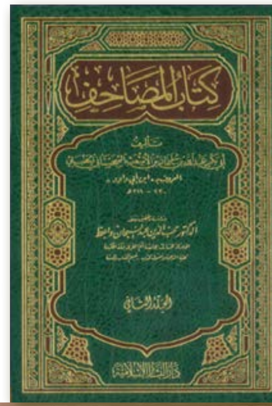
نحن باعتبارِنا عربًا مُسلمين نَعُدُّ تلك المخطوطاتِ جُزءًا من تُراثِنا المادّيّ العزيزِ علينا، بل هو جُزءٌ لا يَتَجزَّأُ من وِجدانِنا وضميرِنا الدّينيّ.

دمشق أماجور (ت 265 هـ / 878 م). وقد أُلحِقَ بالمصحفِ المذكورِ وقفٌ مؤرّخٌ في سنة 262 هـ، وهو وقْفٌ من أوقافِ الجامعِ الأمويِّ الكبيرِ في دمشقَ. غيرَ أنّ أغلبَ ورقاتِ «مُصحف أماجور» (أكثر من 240 ورقة) موجودةٌ اليومَ في متحفِ الفنونِ التّركيّةِ والإسلاميّةِ في إسطنبول. وتوجدُ اليومَ ورقاتٌ منَ المصحف نفسِه محفوظةً في مكتبةِ جامعةِ كامبردج في أنجلترا. والملاحَظُ أنّ كلَّ الورقاتِ (الوجهُ والقفَا) مقيّدٌ عليها عبارةُ «وقفُ أماجور» (انظرِ الصّورةَ المرفقةَ). ثمّ إنّ الخطَّ الكوفيَّ كبيرُ الحجمِ جعلَ كلَّ ورقةٍ لا تتضمّنُ إلّا عددًا قليلاً منَ الملفوظاتِ القُرآنيّةِ، وهو ما يُعطينا فكرةً مؤكَّدةً عن حجمِ هذا المُصحفِ والعددِ الكبيرِ من ورقاتِه وقد قُدَّتْ منَ الرّقوقِ (جلودُ الحيوان). وفضلاً عن ذلك، فإنّ دراسةَ طريقةِ رسْمِ الحروفِ يُفيدُنا في معرفةِ تاريخِ الرّسمِ الإملائيِّ المعتمَدِ في كتابةِ المصاحفِ، وهو حوالي مُنتصفِ القرنِ الثّالثِ الهجريّ (إعجامُ النّصِّ والتّحريكُ، أي وضعُ النّقاطِ على الحروفِ ورسمُ الحركاتِ الإعرابيّةِ). فنحن بإمكانِنا اليومَ أن ندرسَ تاريخَ اللّغةِ العربيّةِ زمنَ الإسلامِ المبكّرِ وما بعدَه استنادًا إلى مثلِ هذا المُصحفِ.

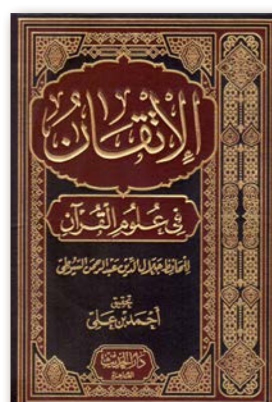
أمّا المخطوطاتُ القُرآنيّةُ المبكّرةُ، فهي عديدةٌ. وقد تمكّنَ الباحثون المتخصِّصون من تعيين تواريخِها التّقريبيّةِ تعويلاً على التّقنيّةِ سالفةِ الذِّكْر. ولعلّ أقدمَ تلك المخطوطاتِ ذاك المعروفُ باسم «مخطوطُ برمنغام» الموجودُ حاليًّا في مكتبةِ جامعةِ برمنغام في أنجلترا، وهو يتضمّنُ ورقتَين فقط (انظرِ الصّورةَ في المرفق). وقد عُثِرَ عليه سنة 2015، إذ كان موجودًا ضمْنَ مجموعةِ ألفونس منغانا (Alfons Mingana). ويمثّلُ المخطوطُ المذكورُ نسبةَ 3 % من حجم المصحفِ القُرآنيِّ اليومَ. والغريبُ حقًّا أنّ فحْصَ الورقتَين بالكربون المُشعِّ حدّد تاريخَها بين سنتيْ 568 و645 للميلاد، وذلك بنسبةٍ في الصحّة وصلت إلى 95 %. وهو ما يعني أنّ تاريخَ المخطوطِ يقعُ بينَ سنةِ مولدِ الرسول صلى الله عليه وسلّم وسنة 25 هـ (أي تقريبًا في السّنة التي بدأ فيها الخليفةُ الرّاشديُّ عثمانُ بنُ عفّانَ الجمعَ الثّاني للقُرآن على قراءةٍ واحدةٍ).



المكتبة الوطنية بسانت بيترسبورغ في روسيا







إنّ دراسةَ طريقةِ رسْمِ الحروفِ يُفيدُنا في معرفةِ تاريخِ الرّسمِ الإملائيِّ المعتمَدِ في كتابةِ المصاحفِ.

والسّؤالُ الذي يفرضُ نفسَه في هذا السّياق: هل نُسلّمُ حقًّا بما قرّره الفحصُ بالكربون المشعِّ؟ أم يستدعِي الأمرُ تنسيبَ التّاريخَيْن الوارديْن أعلاه بما أنّ نسبةَ الخطإ في الفحصِ قد تصلُ إلى 90 سنةً كاملةً؟ ولا ننسَى أيضًا أنّ الفحصَ مقتصرٌ على الرّقّ فقط دون الخطِّ الذي كُتِبَ به القُرآن، وهو ما يفتحُ بابَ احتمالِ استعمالِ رقٍّ قديمٍ ينطبقُ عليه تاريخَا الفحصِ بدءًا ومُنتهًى، ثمّ الكتابةُ عليه في وقت متأخِّرٍ غيرِ معلوم. ومهما يكنْ من أمرٍ، فإنّ ما يَعنينا من ذلك كلِّه أنّنا أمامَ أقدمِ جُزءٍ من مخطوطٍ قرآنيٍّ يمثّلُ غُنْمًا ثمينًا يفتحُ للدّارسين بابًا واسعًا في البحثِ المتّصلِ بتاريخِ الكتابةِ ونوعِ الخطِّ ورسمِه.

لقد أثبتَ ألان جورج (Alain Georges) بالدّليلِ القاطعِ وجودَ علاقةٍ متينةٍ بين «مخطوط برمنغام» ومخطوطٍ آخرَ خصَّه بدراسةٍ مُستفيضةٍ، وهو يُعرفُ بطِرْس ليفيس- منغانا (Lewis-Mingana Palimpsest) الموجودِ في مكتبةِ جامعةِ كامبردج. ذلك أنّ نصفَ الورقةِ الستّين (60) مثلًا من طرسِ كامبردج يوجدُ تتمّةٌ لها في «مخطوط برمنغام» .

وتحتفظُ المكتبةُ الوطنيّةُ بسانت بيترسبورغ في روسيا بمخطوطٍ قُرآنيٍّ مُبكّرٍ يعودُ تاريخُه حسبَ التّحاليلِ المُجراةِ عليه إلى ما بين سنتيْ 61 و133 هـ، أي من قُبيْلِ بدايةِ حُكم عبدِ الملك بنِ مروان الأمويِّ ونهايةِ الدّولةِ الأمويّةِ. ويُعرفُ هذا المخطوطُ باسمِ «مخطوط مارسال 18» (Marcel 18)، ويمثّلُ حجمُه نسبةَ 15 % من مجموعِ المصحفِ القُرآنيّ. وقد لاحظَ بعضُ الدّارسين المعاصرين أنّ الكتابةَ القاصرةَ التي غلبتْ على هذا المخطوط كانت سببًا في احتمالِه أكثرَ من قراءةٍ قُرآنيّةٍ .

والحاصلُ ممّا سبقَ أنّ عددًا مهمًّا منَ المخطوطاتِ القُرآنيّةِ المبكّرةِ ظهرَ على عهْدِ الدّولةِ الأمويّةِ، وتحديدًا على عهد عبْدِ الملك بنِ مروان (حَكمَ من سنة 65 إلى سنة 86 هـ). ولعلّ هذه الملاحظةَ قد تكونُ منَ الأسبابِ التي حملتِ الباحثَ الفرنسيَّ المعاصرَ المتخَصِّصَ في دراسةِ المخطوطاتِ القُرآنيّةِ فرانسوا ديروش (FrançoisDéroche) على تأليفِ كتابٍ حملَ عنوانًا مُعبِّرًا وهو «قرآنُ الأُمويّين: نظرةٌ أُولى» (2014) . وقد خصّصَ القسمَ الأوّلَ من كتابِه لدراسةِ «مصحف باريزينو بيترو بوليتانوس» (Parisino-petropolitanus Codex). ومردُّ هذه التّسميةِ إلى أنّ جُزءًا من هذا المُصحفِ موجودٌ في المكتبةِ الوطنيّةِ

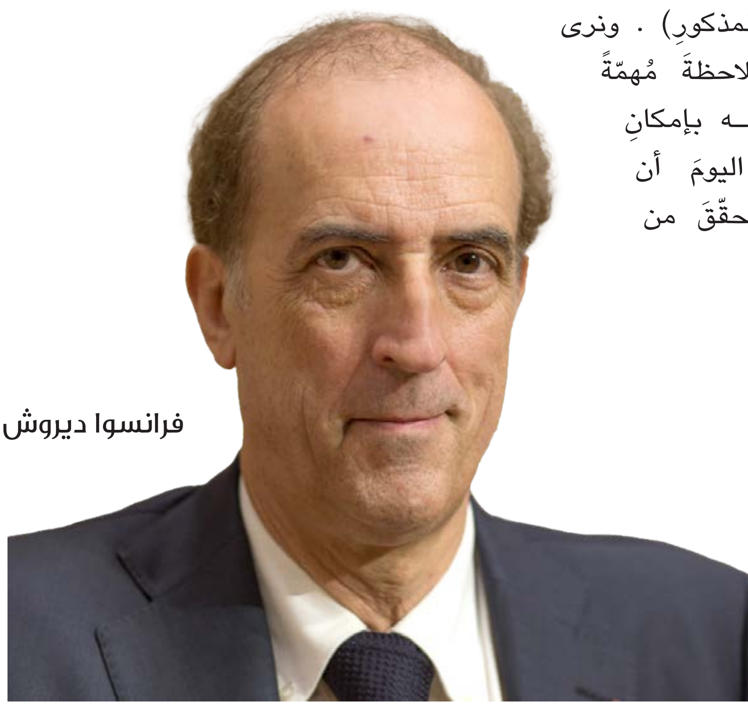
في باريس، وأنّ جُـزءًا آخرَ منه محفوظٌ في مكتبةِ سانت بيترسبورغ في روسيا. ويعودُ تاريخُه إلى النّصفِ الثّاني منَ القرنِ الأوّلِ الهجريِّ (دائمًا حسبَ تحليلِ الكَربون المشعِّ).

وهـل يمكنُ أن نتحدّثَ عنِ المخطوطاتِ القُرآنيّةِ المبكّرةِ دونَ أن نُشيرَ إلى مخطوطاتِ صنعاءَ الشّهيرةِ؟ ولعلَّ أشْهرَ مخطوطٍ منها حظيَ باهتمامِ الدّارسين هو ذاك المخطوطُ المعروفُ بطِرس صنعاءَ المسجّلُ تحت عدد (DAM 1–27.1) (انظرِ الصّورةَ المرفقةَ). ففي دراسةٍ مطوّلةٍ صدرتْ سنةَ 2012 امتدّتْ على قرابة 129 صفحة أنجزها الباحثان بهنام صادغي (Behnam Sadeghi) ومحسن كـودارزي (Mohsen Goudarzi)، عُيِّنَ تاريخُ الطّرس المُشارِ إليه بسنة 61 هـ بنسبةٍ في الصّحّة وصلتْ إلى حدِّ 99 %. وهذا التّاريخُ يُعودُ بالطّرس إلى قُبَيلِ حُكمِ عبدِ الملك بنِ مروانَ.

والظّاهرُ أنّ هـذه الـدّراسـةَ المستفيضةَ أغْرَتِ الباحثةَ التّونسيّةَ أسماءَ الهلالي بتخصيصِ كتابٍ برُمّتِه للطّرس المذكورِ صدر سنة 2017م عن جامعة أكسفورد. وقدِ اعتمدت في عملِها على ثلاثةِ مبادئَ منهجيّةٍ هي الآتيةُ: التّخلّي عن كلِّ استنتاجٍ يقومُ على التّخمين من أجلِ فكِّ شِفرةِ الطّرس أوّلاً، وعَدمُ القيامِ بأيّ ربطٍ آليٍّ بين المعطياتِ التي يُوفّرُها الطّرسُ والمصادرُ الإسلاميّةُ الدّائرةُ على تاريخ القُرآنِ وتاريخ المصحفِ تحديدًا ثانيًا، وإنجازُ دراسةٍ فيلولوجيّةٍ للطّرس من أجل معرفةِ ضُـروبِ الكتابةِ وأعمالِ التّصويبِ والمحوِ وإعادةِ الكتابةِ ثالثًا وأخيرًا.

أمّا الباحثةُ الفرنسيّةُ إليونور سـيلّار(Éléonore Cellard) فقد نظرت في مخطوطٍ آخرَ من مخطوطاتِ صنعاءَ مُسجّلٍ تحت عدد (DAM 01–29.1)، وهو يتضمّنُ 35 ورقةً أو جُزءًا من ورقةٍ، ويعود تاريخُه إلى آخرِ القرنِ السّابعِ وبدايةِ القرنِ الثّامن للميلاد، ويمثّلُ زُهاء 26 % من حجم قُرآنِ اليوم. وقد تبيّنَ للباحثةِ أنّ مُحتوَى هذا المخطوطِ يوافقُ، في قسْمٍ منه، جانبًا ممّا وصلَنا من أخبار عن مُصحفِ عبدِ الله بنِ مسعود (ت 32 هـ / 652 م)، وتحديدًا ما يهمُّ ترتيبَ السُّور (من قَبيلِ أنّ سورتيْ عبس 80 ،والتكوير 81 غيرُ متتابعتَيْن سواءٌ في مُصحفِ ابنِ مسعودٍ أو في مُصحفِ صنعاءَ المذكورِ) . ونرى هذه الملاحظةَ مُهمّةً جـدًّا لأنّـه بإمكانِ الباحثِ اليومَ أن يتحقّقَ من مدَى مُطابقةِ الرّواياتِ التي وصلَتْنا عن تاريخِ القُرآن الكريم أو عن مصاحفِ الصّحابةِ، وذلك بمقارنتِها بما عُثِرَ عليه من مخطوطاتٍ قُرآنيّةٍ مُبكّرةٍ. ويعني ذلك كلُّه إمكانَ إجراءِ مُقابلةٍ، بَلْ مكافحةٍ، بين الخبرِ المرويِّ والشّاهدِ المادّيِّ الذي لا يُضاهَى. وهذا توجُّهٌ جديدٌ نقترحُه، الآن وهنا، في دراسةِ العلاقةِ بين خبرٍ يحتملُ الصّدقَ والكذبَ مثلَما هو

إنّه بإمكانِ الباحثِ اليومَ أن يتحقّقَ من مدَى مُطابقةِ الرّواياتِ التي وصلَتْنا عن تاريخِ القُرآن الكريم أو عن مصاحفِ الصّحابةِ .



فرانسوا ديروش



مكتبة جامعة كامبريدج

> إنّ هذه العيّناتِ منَ المخطوطاتِ القُرآنيّةِ المبكّرةِ تمثّلُ حقًّا وصدقًا كنزًا ثمينًا موجودٌ أغلبُه خارجَ الدّيارِ العربيّةِ والإسلاميّةِ.

معروفٌ في البلاغةِ العربيّةِ من جهةٍ، والمخطوطِ القُرآنيِّ من جهةٍ أُخرى.

وفضلاً عن ذلك، بالإمكانِ التّفكيرُ أيضًا في عقدِ مقارناتٍ نراها مهمّةً بين المخطوطاتِ القُرآنيّةِ المبكّرةِ والنّقوشِ القُرآنيّةِ على الحَجرِ (خاصّةً المؤرّخةَ مِنْها). فقد عُثِرَ في السّنواتِ الأخيرةِ على عديدِ النّقوشِ القُرآنيّةِ السّابقةِ أوِ المزامنةِ لعددٍ منَ المخطوطاتِ القُرآنيّةِ المبكّرةِ. وتسمحُ هذه المَنهجيّةُ المقارنيّةُ برصدِ ما يمكنُ أن يُوجدَ بين المخطوطِ والنّقشِ من مظاهرِ الائتلافِ والاختلافِ، ومن ثمّ العملُ على تفسيرِ نتيجةِ المقارنةِ وتعليلِها بالوسائلِ البحثيّةِ المُتاحةِ. فقد عُثِرَ إلى قُرابَةِ سنة 2019م على 32 نقشًا قرآنيًّا مؤرّخًا حَوى مقاطعَ قُرآنيّةً (مجموعها 200 آية) يعودُ نصْفُها إلى القرنِ الأوّلِ منَ الهجرة. وثلثَا تلكُمُ النّقوشِ مَوْجُودانِ بالجزيرةِ العربيّةِ، وبالخصوصِ في المملكةِ العربيّةِ السّعوديّةِ .

إنّ هذه العيّناتِ منَ المخطوطاتِ القُرآنيّةِ المبكّرةِ تمثّلُ حقًّا وصدقًا كنزًا ثمينًا موجودٌ أغلبُه خارجَ الدّيارِ العربيّةِ والإسلاميّةِ. ولئن كانت هذه المخطوطاتُ محفوظةً اليومَ بعنايةٍ، فإنّنا بحاجةٍ ماسّةٍ إلى إنجازِ دراساتٍ معمّقةٍ بشأنِها يضطلعُ بها باحثون عربٌ ومسلمون. فَهُمْ أَولى

من غيرِهم للقيامِ بهذا العملِ الجليلِ بحُكمِ انتسابِهم إلى الثّقافةِ العربيّةِ الإسلاميّةِ وتشبُّعِهم بها. ونحن لا نشكُّ في أنّ الرّجوعَ إلى أكثرَ من مصدرٍ في كتابةِ تاريخِ القُرآن الكريم يمنحُه مصداقيّةً وموثوقيّةً أكبرَ. فقد نكونُ على عتبةِ كتابةِ تاريخٍ آخرٍ للقُرآن يستمدُّ مادّتَه منَ الثّالوث: الخبرُ والمخطوطُ والنّقشُ. إنّها المجاورةُ التي تسمحُ بالمحاورةِ.

لقد آنَ الأوانُ لجلْبِ صُــوَرٍ من تلكمُ المخطوطاتِ والاشتغالِ بها وَفْقَ معاييرِ التّحقيقِ العلميِّ وقواعدِ البحثِ الرّصينِ في آنٍ معًا. فهل مِن مُستجيبٍ؟



نماذج من المخطوطات

حَوَاشٍ ومَرَاجِعُ:

(1)راجع مثلا السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، الطبعة الأولى، بيروت 2008، ص129-142 (النوع 18: في جمعه وترتيبه).

(2) انظر على سبيل المثال ابن أبي داود السجستاني، كتاب المصاحف، تحقيق آرثر جيفري، الطبعة الأولى، القاهرة 1936.

(3) نشر ألفونس مينغانا وأنياس سميث ليفيس (Agnes Smith Lewis) سنة 1914كتيّبا تضمّن ورقات من مخطوط حوَتْ مقاطع قرآنيّة. وتمثّل تلك المقاطع الكتابة السفليّة لطرس. وقد فُقِد المخطوط بين سنتيْ 1914 و1936 ليعود إلى الظهور ويدخل في مجموعة جامعةكامبردج. راجع: Alain Georges, Le palimpseste Lewis-Mingana de Cambridge, Témoinancien de l'histoire du Coran ; in: Les origines du Coran, le Coran des origines, éditépar: François Déroche, Christian Robin et Michel Zink; Académie des inscriptions et belles-lettres, Paris,p: 219 - 270

(4) للتوسّع راجع دراسة حسّان شهدي: - Entre quirāʾāt et variantes du rasm: l'exemple du fragment Marcel 18 ; in: Les origines du Coran, le Coran des origines; éditépar: François Déroche, Christian Robin et Michel Zink; Académie des inscriptions et belles-lettres, Paris; 2015; p : 177 – 189

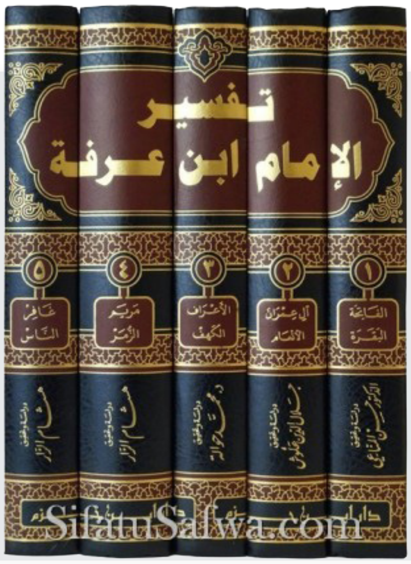
(5) Qur'ans of Umayyads: a First Overview, Brill, Leiden, 2014

(6) راجع: Le Coran des pierres ; in: Le Coran des historiens; tome 1: études sur le contexte et la genèse du Coran; éd. du Cerf, Paris 2019, p: 707 – 732

(7) The Sanaa Palimpsest, The Transmission of the Qur'an in the first centuries AH, Oxford University Press, 2017

(8) راجع دراستها: Un nouveau témoignage sur la fixation du canon coranique dans les débuts de l'islam: Le manuscrit de Sānʿāʾ DAM 01-29.1 ; in: Comptesrendus de l'Académie des inscriptions et belles-lettres (CRAI) ; Avril - Juin 2018, pp : 1107 - 1119

(9) يُعدّ الباحث الفرنسي فريديريك إمبار (Frédéric Imbert) من أشهر المتخصّصين اليوم في دراسة النقوش القرآنيّة على الحجر. وقد قام بعديد من الزيارات الميدانيّة إلى المملكة العربيّة السعوديّة من أجل الاطّلاع على تلك النقوش في بيئتها الأصليّة. راجع على سبيل المثال دراسته القيّمة: Le Coran des pierres ; in: Le Coran des historiens; tome 1: études sur le contexte et la genèse du Coran; éd. du Cerf, Paris 2019, pp: 707 – 732



الْمُنْصِفُ مِنَ الْكَلَامِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

قِرَاءَةٌ بَلَاغِيَّةٌ فِي تَفْسِيرِ ابْنِ عَرَفَةَ



د. زَكَرِيَّاءُ تُونَانِي
عُضْوُ هَيْئَةِ التَّدْرِيسِ بِقِسْمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ - جَامِعَةِ الْجَوْفِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، الَّذِي بَلَّغَ الرِّسَالَةَ وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَيْسَ كِتَابَ هِدَايَةٍ وَقَانُونَ حَيَاةٍ فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ أَيْضًا مَعْدِنُ الْبَلَاغَةِ وَأُنْمُوذَجٌ فَذٌّ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْإِعْجَازِ اللُّغَوِيِّ، حَيْثُ تَتَجَلَّى فِيهِ جَمِيعُ أَسَالِيبِ الْكَلَامِ الْمُحْكَمِ وَالْحِكْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ. وَمِنْ ذَلِكَ: اسْتِعْمَالُهُ أُسْلُوبَ «الْمُنْصِفِ مِنَ الْكَلَامِ» الَّذِي هُوَ مِنْ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْخِطَابِ، فَيَتَمَثَّلُ فِيهِ الْعَدْلُ وَالْإِنْصَافُ بِلَا تَعْيِينٍ لِلْمُحِقِّ مِنَ الْمُبْطِلِ، فَيَكُونُ الْكَلَامُ كَالْمَاءِ السَّارِي يَرْوِي قُلُوبَ الْمُخَاطَبِينَ وَيَسْتَوْلِي عَلَى عُقُولِهِمْ بِلَطَافَتِهِ وَحِكْمَتِهِ.

وَفِي هَذَا الْمَقَامِ؛ سَأَتَنَبَّهُ إِلَى مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْعَلَّامَةُ ابْنُ عَرَفَةَ (ت803 هـ) فِي تَفْسِيرِهِ؛ حَيْثُ نَقَلَ إِلَيْنَا دَقَائِقَ هَذَا الْأُسْلُوبِ وَلَطَائِفَهُ، وَأَفْصَحَ عَنْ خَفَاءِ مَعَانِيهِ وَجَمَالِ إِعْجَازِهِ، فَأَقِفُ عِنْدَ تِلْكَ الْمَوَاضِعِ وَأَسْتَخْلِصُ مَا فِيهَا مِنْ بُرْهَانٍ عَلَى عَظَمَةِ هَذَا الدِّينِ وَرُقِيِّ تَنْزِيلِهِ.

وَيَحْسُنُ أَنْ نُقَدِّمَ بَيْنَ يَدَيْ ذَلِكَ: مَفْهُومَ الْإِنْصَافِ فِي الْكَلَامِ وَأَهَمِّيَّتَهُ فِي الْخِطَابِ الْقُرْآنِيِّ.

• تَعْرِيفُ الْإِنْصَافِ فِي الْكَلَامِ.

النُّونُ وَالصَّادُ وَالْفَاءُ تَدُورُ تَصْرِيفَاتُهَا عَلَى أَصْلَيْنِ كُلِّيَّيْنِ؛ الْأَوَّلُ: شَطْرُ الشَّيْءِ، وَالْآخَرُ: ضَرْبٌ مِنَ الْخِدْمَةِ وَالِاسْتِعْمَالِ. وَمِنَ الْأَوَّلِ: نِصْفُ الشَّيْءِ وَنَصِيفُهُ؛ وَهُوَ شَطْرُهُ، وَمِنْهُ الْإِنْصَافُ فِي الْمُعَامَلَةِ؛ كَأَنَّهُ رِضًا بِالنِّصْفِ(1).

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْإِنْصَافِ وَالْعَدْلِ: أَنَّ الْإِنْصَافَ هُوَ إِعْطَاءُ النِّصْفِ وَحْدَهُ، لَا يَتَجَاوَزُهُ إِلَى غَيْرِهِ، كَمَا تَقُولُ: أَعْطِهِ نِصْفَ الْحَقِّ؛ فَلَا زِيَادَةَ فِيهِ وَلَا نُقْصَانَ. بِخِلَافِ الْعَدْلِ؛ فَإِنَّهُ أَعَمُّ وَأَوْسَعُ؛ إِذْ يَتَنَاوَلُ الْإِنْصَافَ وَمَا سِوَاهُ مِنَ الْعَدْلِ فِي الْحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ، سَوَاءٌ أَكَانَتْ بِالنِّصْفِ أَمْ بِغَيْرِ ذَلِكَ. وَلِذَا يُقَالُ عَنِ السَّارِقِ إِذَا قُطِعَتْ يَدُهُ: هَذَا عَدْلٌ عَلَيْهِ، وَلَمْ يُقَلْ: أُنْصِفَ(2).

وَمِنَ الْأَصْلِ الثَّانِي لِمَادَّةِ (ن ص ف) قَوْلُهُمْ: نَاصِفٌ وَمِنْصَفٌ -بِكَسْرِ الْمِيمِ وَقَدْ تُفْتَحُ-؛ وَهُوَ الْخَادِمُ(3).

وَأَمَّا الْمَعْنَى الِاصْطِلَاحِيُّ لِأُسْلُوبِ

«الْمُنْصِفِ مِنَ الْكَلَامِ»؛ فَلَمْ يَذْكُرْهُ البَلَاغِيُّونَ فِي مُصَنَّفَاتِهِمْ وَدَوَاوِينِهِمْ، إِلَّا السَّكَاكِيَّ، فَقَدْ ذَكَرَهُ فِي مِفْتَاحِ العُلُومِ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُعَرِّفْهُ، فقال: «وَمِنْ هَذَا الْأُسْلُوبِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [سَبَأ:25]، وَإِلَّا فَحَقُّ النَّسَقِ مِنْ حَيْثُ الظَّاهِرُ: (قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا عَمِلْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تُجْرِمُونَ)، وَكَذَا مَا قَبْلَهُ: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [سَبَأ:24]، وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الكَلَامِ يُسَمَّى المُنْصِفَ»(4). وَقَدْ عَرَّفَهُ العَلَّامَةُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ البَرَّاكُ بِقَوْلِهِ: «هُوَ مَا يَتَضَمَّنُ التَّنَزُّلَ مَعَ الخَصْمِ بِعَدَمِ تَعْيِينِ المُحِقِّ مِنَ المُبْطِلِ لِظُهُورِ الأَمْرِ، حَمْلاً لَهُ عَلَى الإِقْرَارِ»(5).

وَهَذَا الأُسْلُوبُ مِنْ أَلْطَفِ وُجُوهِ البَيَانِ وَأَدَقِّهَا صَوْغًا؛ إِذْ يُلْقِي الْمُتَكَلِّمُ عَنْ نَفْسِهِ جِلْبَابَ الانْتِصَارِ، وَيَتَنَزَّهُ عَنْ مُجَاذَبَةِ الْخَصْمِ، فَلَا يُبْدِي تَحَيُّزًا يَشِينُهُ، وَلَا تَعَصُّبًا يُعْمِيهِ، وَلَكِنَّهُ يُورِدُ الْقَوْلَ مُورِدَ الْإِنْصَافِ، فَيَحْمِلُ الْخَصْمَ عَلَى الْإِقْرَارِ بِسُلْطَانِ الْحُجَّةِ دُونَ قَهْرٍ وَلَا إِكْرَاهٍ. وَهُوَ أُسْلُوبٌ يَجْرِي مَجْرَى التَّلْوِيحِ دُونَ التَّصْرِيحِ، وَالتَّلْمِيحِ مِنْ غَيْرِ إِفْصَاحٍ، فَلَا يُكَاشِفُ الْمُخَاطَبَ بِالْمُنَازَعَةِ، بَلْ يُورِدُهُ مَوَارِدَ التَّسْلِيمِ طَوْعًا لَا كَرْهًا. وَهُوَ فِي مَذَاهِبِ الْعَرَبِ ضَرْبٌ مِنْ مَحَاسِنِ الْقَوْلِ، يَجْمَعُ بَيْنَ جَزَالَةِ اللَّفْظِ، وَإِصَابَةِ الْمَعْنَى، وَقُوَّةِ الْحُجَّةِ، وَحُسْنِ التَّأَتِّي، وَهُوَ لِأَهْلِ النَّظَرِ وَالتَّحْقِيقِ أَدَاةٌ تُفْضِي بِهِمْ إِلَى الْحَقِّ، دُونَ أَنْ تَقُودَهُمْ إِلَى الْخِصَامِ وَالْعِنَادِ.

• أَهَمِّيَّةُ الْإِنْصَافِ فِي الْخِطَابِ الْقُرْآنِيِّ.

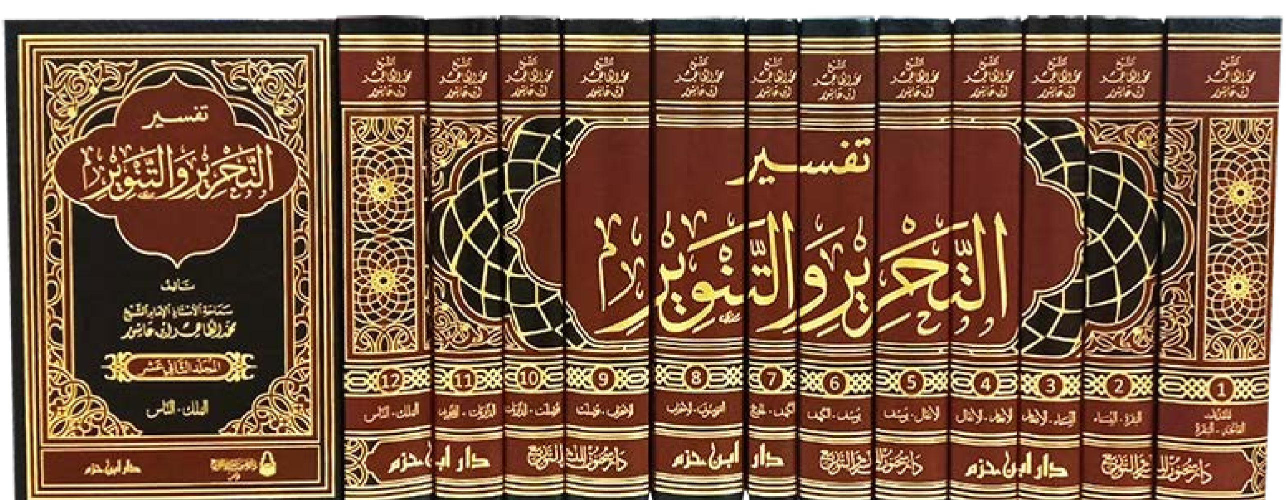
الْإِنْصَافُ فِي الْخِطَابِ الْقُرْآنِيِّ يُظْهِرُ عَدْلَ اللهِ تَعَالَى وَحِكْمَتَهُ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ يَعْرِضُ حَقَائِقَهُ فِي صِيَاغَةٍ مُحْكَمَةٍ، فِيهَا تَبْجِيلٌ لِعُقُولِ النَّاسِ فِي تَفَكُّرِهِمْ وَتَدَبُّرِهِمْ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى التَّفْكِيرِ فِي عُمْقِ الْمَوَادِّ وَمَعَانِيهَا دُونَ إِلْزَامٍ لِلنُّفُوسِ وَلَا تَحْجِيرٍ عَلَى الْعُقُولِ.

وَلَكِنَّ هَذَا لَا يَنْفِي أَنَّ الْقُرْآنَ نَفْسَهُ كَشَفَ عَنْ حَالِ بَعْضِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ أَغْلَقُوا عُقُولَهُمْ عَنِ الْهِدَايَةِ، وَأَصَرُّوا عَلَى الضَّلَالَةِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الْأَنْعَامِ:179]، فَهَؤُلَاءِ لَمْ يَكُنْ عَدَمُ فَهْمِهِمْ مُسَبَّبًا عَنْ قُصُورٍ فِي بُلُوغِ الْحَقِّ إِلَيْهِمْ، بَلْ لِعِنَادِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى مُخَالَفَةِ الْحَقِّ وَاتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ.

وَإِنَّ الْإِنْصَافَ فِي الْكَلَامِ لَهُوَ أَدَاةٌ شَدِيدَةٌ فِي الْإِقْنَاعِ، وَمِنْ أَقْوَى مَفَاتِحِ النَّجَاحِ فِي خِطَابِ الْخُصُومِ وَمُخْتَلِفِي الْآرَاءِ. فَإِنَّ الْعَرْضَ الْمُتَرَفِّقَ لِلْحَقَائِقِ، وَالتَّجَاوُزَ عَنْ غَلَطَاتِ الْآخَرِينَ؛ يُظْهِرُ الْحَقَّ فِي أَجْلَى صُوَرِهِ وَيَجْعَلُ الْخِطَابَ أَكْثَرَ قُوَّةً وَتَأْثِيرًا.

• تَحْلِيلُ مَوَاضِعِ الْإِنْصَافِ فِي الْكَلَامِ مِنْ تَفْسِيرِ ابْنِ عَرَفَةَ

الْمَوْضِعُ الْأَوَّلُ: قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: {قُلْ



أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ}.

قَالَ ابْنُ عَرَفَةَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: {أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة:140]: «وَقَوْلُهُ: {أَمِ اللهُ} إِمَّا عَلَى ظَاهِرِهِ، أَوِ الْمُرَادُ بِهِ: أَمْ رَسُولُ اللهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ} [الْفَتْحُ:10]، وَهُوَ عَلَى سَبِيلِ التَّنَزُّلِ مَعَهُمْ وَالْإِنْصَافِ أَوْ مِنْ بَابِ تَجَاهُلِ الْعَارِفِ»(6).

وَفِي هَذَا الْكَلَامِ يُشِيرُ ابْنُ عَرَفَةَ إِلَى أَنَّ الآيَةَ تَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى عَلَى ظَاهِرِهِ، أَيْ: أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ؟

الْآخَرُ: أَنَّ الْمُرَادَ هُنَا: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَكُونُ فِي الْكَلَامِ حَذْفُ مُضَافٍ، عَلَى طَرِيقَةِ الْإِيجَازِ بِالْحَذْفِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ}، يُرِيدُ ابْنُ عَرَفَةَ أَنَّ الْمَعْنَى: إِنَّمَا يُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ، عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ أَيْضًا. وَهَذَا فِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى عَلَى مَا ذَكَرَهُ يَصِيرُ: إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ، وَهَذَا غَيْرُ ظَاهِرٍ؛ لِأَنَّ أَصْلَ الْخِطَابِ فِي (يُبَايِعُونَكَ) لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَلَا يَكُونُ فِي الْكَلَامِ فَائِدَةٌ، وَالْقُرْآنُ مُنَزَّهٌ عَنْ مِثْلِ هَذَا.

وَقَدْ كَرَّرَ ابْنُ عَرَفَةَ التَّمْثِيلَ بِآيَةِ سُورَةِ الْفَتْحِ عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ(7)، وَفِي ذَلِكَ نَظَرٌ، وَلَعَلَّهُ أَرَادَ قَوْلَهُ تَعَالَى بَعْدُ: {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ}؛ فَإِنَّ بَعْضَ أَهْلِ التَّفْسِيرِ يَقُولُ: مَعْنَاهُ يَدُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ(8). وَفِي هَذَا التَّأْوِيلِ نَظَرٌ؛ بَلْ إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: {يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} تَرْشِيحٌ لِقَوْلِهِ: {إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ} أَيْ: تَأْكِيدٌ لَهُ، فَإِنَّهُ لَمَّا قَالَ: {إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ}؛ قَوَّى ذَلِكَ وَأَكَّدَهُ بِقَوْلِهِ: {يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ}، فَكَانَ مَنْ بَايَعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَأَنَّمَا بَايَعَ اللهَ تَعَالَى(9).

وَإِذَا تَأَمَّلْنَا قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: {أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ}؛ وَجَدْنَا فِيهِ دِقَّةً بَلَاغِيَّةً بَاهِرَةً، وَحِكْمَةً لَا تُضَاهَى، فَهَذَا الْأُسْلُوبُ لَيْسَ سُؤَالًا عَنْ جَهْلٍ، بَلْ هُوَ سُؤَالُ تَحَدٍّ وَإِفْحَامٍ، يَضَعُ الْخَصْمَ بَيْنَ خِيَارَيْنِ؛ إِمَّا أَنْ يُقِرَّ بِضَعْفِهِ وَعَجْزِهِ، أَوْ أَنْ يَظْهَرَ فِي صُورَةِ الْجَاحِدِ الْمُكَابِرِ.

وَالِاسْتِفْهَامُ خَرَجَ عَنْ أَصْلِ دِلَالَتِهِ إِلَى مَعْنَى التَّقْرِيرِ وَالتَّوْبِيخِ، فَقَدْ قَرَّرَ الِاسْتِفْهَامُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ، فَكَانَ ذَلِكَ تَقْرِيرًا عَلَى فَسَادِ ادِّعَائِهِمْ؛ إِذْ لَا جَوَابَ لِصَاحِبِ الْفِطْرَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ إِلَّا أَنْ يَقُولَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمُ(10).

وَمَا أَحْكَمَ هَذَا الْأُسْلُوبَ! فَإِنَّهُ يَجْعَلُ الْمُخَاطَبَ يُدْرِكُ بِنَفْسِهِ شَنَاعَةَ مَوْقِفِهِ، وَيَعْتَرِفُ بِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ أَعْلَمَ مِنْ خَالِقِهِ، وَلَا أَنْ يُجَارِيَ عِلْمَهُ الَّذِي لَا غَايَةَ لِمُنْتَهَاهُ.

وَفِي هَذَا الْأُسْلُوبِ إِنْصَافٌ لِلْمُخَاطَبِينَ؛ حَيْثُ لَمْ يَلْجَأِ الْقُرْآنُ إِلَى التَّحْقِيرِ أَوِ التَّوْبِيخِ، بَلْ خَاطَبَهُمْ بِأَدَبٍ جَمٍّ وَعَدْلٍ بَالِغٍ، وَأَعْطَاهُمْ سَعَةً لِلتَّفْكِيرِ وَالْإِجَابَةِ، ثُمَّ أَظْهَرَ لَهُمْ أَنَّ عِلْمَهُمْ مَحْدُودٌ وَقَلِيلٌ، وَأَنَّ عِلْمَ اللهِ تَعَالَى مُطْلَقٌ وَكَامِلٌ.

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَا يَتَّصِفُ بِهِ الْخِطَابُ الْقُرْآنِيُّ، حَيْثُ يَجْمَعُ بَيْنَ الْإِنْصَافِ وَالْحِكْمَةِ، وَيَدْفَعُ الْمُخَاطَبَ إِلَى الْإِقْرَارِ بِالْحَقِّ بِنَفْسِهِ.

وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى كَلِمَةِ: {أَعْلَمُ}؛ وَجَدْنَا أَنَّهَا أَدَقُّ وَأَبْلَغُ مِنْ غَيْرِهَا فِي



هَذَا السِّيَاقِ؛ إِذْ رَكَّزَ النَّظْمُ الْقُرْآنِيُّ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَهُمُّ الْمُخَاطَبِينَ، وَأَظْهَرَ زَيْفَ ادِّعَائِهِمْ.

الْمَوْضِعُ الثَّانِي: قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ}.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ} [الْأَعْرَافُ:37].

قَالَ ابْنُ عَرَفَةَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ}: «يَحْتَمِلُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ بِمَعْنَى: أَنَّهُمْ تَارَةً يَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَمْ يَقُلْهُ، فَيَقُولُونَ: حَرَّمَ عَلَيْنَا السَّائِبَةَ وَالْوَصِيلَةَ وَالْحَامَ، وَتَارَةً يَنْسِبُونَ إِلَيْهِ مَا هُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ؛ كَجَعْلِهِمْ لَهُ شَرِيكًا، وَنِسْبَتِهِمْ إِلَيْهِ الْوَلَدَ؛ فَهَذَا افْتِرَاءُ الْكَذِبِ، ذَكَرَهُ الْفَخْرُ. وَتَارَةً يُكَذِّبُونَ بِالْآيَاتِ وَالْمُعْجِزَاتِ الظَّاهِرَةِ عَلَى يَدِ رَسُولِهِ، وَهَذَا تَكْذِيبٌ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ خَرَجَتْ مَخْرَجَ الْإِنْصَافِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [سَبَأٌ:24]، فَالْمَعْنَى: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: إِنْ كُنْتُ أَنَا مُفْتَرِيًا عَلَى اللهِ فَلَا أَظْلَمُ مِنِّي، وَإِنْ كُنْتُ صَادِقًا وَأَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ بِي فَلَا أَظْلَمُ [مِنْكُمْ]»(11).

الِاسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ} خَرَجَ عَنْ دِلَالَتِهِ الْأَصْلِيَّةِ إِلَى مَعْنَى الْإِنْكَارِ؛ أَيْ: لَا أَحَدَ أَظْلَمُ(12).

وَيَنْتُجُ مِنْ هَذَا الْإِنْكَارِ مَعْنَى التَّعَجُّبِ وَالتَّوْبِيخِ عَلَى مَا وَقَعَ فِيهِ أُولَئِكَ الكُفَّارُ، وَالْمَقْصُودُ بِهِ: النَّفْيُ، أَيْ: لَا أَحَدَ أَبْشَعُ ظُلْمًا، وَلَا أَخْطَأُ قَوْلًا، وَلَا أَجْهَلُ رَأْيًا، وَلَا أَبْعَدُ ذَهَابًا عَنِ الحَقِّ وَالصَّوَابِ، مِمَّنِ اخْتَلَقَ عَلَى اللهِ زُورًا مِنَ الْقَوْلِ، فَنَسَبَ إِلَيْهِ مَا هُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ، كَإِضَافَةِ الْوَلَدِ وَالصَّاحِبَةِ إِلَيْهِ، وَتَحْرِيمِ مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللهُ تَعَالَى. فَلَمْ يَقْتَصِرْ هَؤُلَاءِ عَلَى افْتِرَاءِ الْكَذِبِ فِي حَقِّ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَالِهِمْ، حَتَّى جَعَلُوا غَايَتَهُمْ إِضْلَالَ غَيْرِهِمْ وَإِغْوَاءَهُمْ، وَكَذَّبُوا بِحُجَجِ اللهِ وَآيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ، وَنُبُوَّةِ رُسُلِهِ، فَجَحَدُوا حَقِيقَتَهَا، وَدَافَعُوا صِحَّتَهَا، وَأَبَوْا إِلَّا التَّمَادِيَ فِي الضَّلَالِ وَالتَّكْذِيبِ. وَإِنَّمَا جَاءَ هَذَا الْأُسْلُوبُ لِيُظْهِرَ شِدَّةَ الْجُرْمِ وَعَظِيمَ الْخَطَإِ، وَلِيَكُونَ تَوْبِيخًا لِمَنْ خَالَفَ الْحَقَّ وَتَعَدَّى حُدُودَهُ، وَلِيَكُونَ دَعْوَةً إِلَى الرُّجُوعِ إِلَى جَادَّةِ الصَّوَابِ(13).

وَوَجْهُ الْإِنْصَافِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ يَكْمُنُ فِي أَنَّ الْآيَةَ جَعَلَتْ مَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ -وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ وَالْوَاقِعِ لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِنْهُ- سُؤَالًا، كَأَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ مَعْلُومًا وَلَا مَقْطُوعًا بِهِ. فَكَانَ فِي ذَلِكَ خِطَابٌ لِلْخَصْمِ بِأَدَبٍ جَمٍّ وَعَدْلٍ بَالِغٍ، وَإِعْطَاؤُهُ فُرْصَةً لِلتَّفْكِيرِ وَالتَّدَبُّرِ. فَلَمْ يَرِدِ النَّظْمُ الْقُرْآنِ بِالْحُكْمِ عَلَيْهِمْ صَرَاحَةً بِالظُّلْمِ «أَنْتُمْ أَظْلَمُ النَّاسِ» أَوْ «إِنَّهُمْ أَظْلَمُ النَّاسِ»، بَلْ أَخْرَجَ الْمَعْنَى عَلَى نَحْوٍ يُوحِي بِأَنَّ الْمُخَاطَبَ هُوَ

إِنَّ الْقُرآنَ الكريم هو مَعْدِنُ الْبَلَاغَةِ وَأُنْمُوذَجٌ فَذٌّ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْإِعْجَازِ اللُّغَوِيِّ.

الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُدْرِكَ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ، وَيُقِرُّ بِأَنَّهُ لَا أَظْلَمَ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَسَبُوا إِلَى اللهِ تَعَالَى مَا لَمْ يَقُلْهُ، أَوْ كَذَّبُوا بِآيَاتِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا بِالْحَقِّ.

الْمَوْضِعُ الثَّالِثُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ}.

قَالَ ابْنُ عَرَفَةَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ {وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ} [الْأَعْرَافُ:113]: «هَذَا قَالَهُ إِنْسَانٌ مِنْهُمْ لِمُوسَى وَلِفِرْعَوْنَ؛ فَلِمُوسَى مِنْ حَيْثُ إِتْيَانُهُمْ بِـ (إِنْ) دُونَ (إِذَا)، إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى وُثُوقٍ مِنْ غَلَبِهِمْ لِمُوسَى. وَإِنْصَافُهُمْ لِفِرْعَوْنَ مِنْ حَيْثُ التَّأْكِيدُ بِالضَّمِيرِ وَتَعْرِيفُ الْخَبَرِ مِنْهُ، فَمَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ الْأَجْرَ إِلَّا إِذَا غَلَبُوا غَلَبَةً بَيِّنَةً»(14).

فِي هَذَا الكَلَامِ؛ يَتَجَلَّى الْإِنْصَافُ فِي طَرِيقَةِ تَعَامُلِ السَّحَرَةِ مَعَ كُلِّ طَرَفٍ؛ حَيْثُ أَخْرَجُوا الْكَلَامَ بِالنَّظَرِ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى وَجْهٍ يُعَبِّرُ عَنْ شَكِّهِمْ فِي قُدْرَتِهِمْ عَلَى الْغَلَبَةِ، وَخَاطَبُوا فِرْعَوْنَ بِلُغَةٍ تُظْهِرُ حَقَّهُمْ فِي الْأَجْرِ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ.

وَاسْتِخْدَامُ السَّحَرَةِ لِحَرْفِ (إِنْ)

دُونَ (إِذَا) فِي قَوْلِهِمْ: {إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ} يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا جَازِمِينَ بِمَآلِ اللِّقَاءِ وَالْمُعَارَضَةِ، وَهَذَا يُعَبِّرُ عَنْ شَكِّهِم وَإِدْرَاكِهِمْ أَنَّ الْأَمْرَ غَيْرُ مَحْسُومٍ؛ إِذْ مِنَ الْمُتَقَرِّرِ فِي عِلْمِ الْمَعَانِي أَنَّ (إِنْ) تُسْتَعْمَلُ فِي الشَّكِّ بِوُقُوعِ مَدْخُولِهَا، بِخِلَافِ (إِذَا) فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى الْقَطْعِ بِوُقُوعِ الشَّرْطِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ(15).

وَفِي الْمُقَابِلِ؛ جَاءَ تَأْكِيدُهُمْ بِالضَّمِيرِ وَتَعْرِيفُ الْخَبَرِ فِي قَوْلِهِمْ: {إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا}؛ لِيُظْهِرُوا أَنَّهُمْ لَا يَطْلُبُونَ الْأَجْرَ إِلَّا بِحَقٍّ وَاقِعٍ وَغَلَبَةٍ وَاضِحَةٍ، وَهَذَا الْأُسْلُوبُ يُعَبِّرُ عَنْ إِنْصَافِهِمْ لِفِرْعَوْنَ فِي مُخَاطَبَتِهِمْ؛ حَيْثُ لَمْ يَدَّعُوا حَقًّا لَا يَسْتَحِقُّونَهُ، وَلَمْ يَتَعَدَّوْا عَلَى مَا لَيْسَ لَهُمْ.

الْمَوْضِعُ الرَّابِعُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}.

قَالَ ابْنُ عَرَفَةَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ {وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [يُوسُفُ:30]: «{إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} وَأَسْنَدْنَ رُؤْيَةَ ذَلِكَ إِلَى تَفْسِيرَيْنِ(16)، وَهَلَّا قُلْنَ: إِنَّهَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، فَهُوَ أَبْلَغُ، وَجَوَابُهُ: أَنَّهُ إِنْصَافٌ مِنْهُنَّ، وَإِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُنَّ فِي اعْتِمَادِهِنَّ لَمْ يَعْلَمْنَ(17) لِذَلِكَ وَجْهًا، وَلَعَلَّ لَهُ وَجْهًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ»(18).

وَقَوْلُ النِّسْوَةِ: {إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} يَحْمِلُ دِقَّةً بَلِيغَةً فِي الْإِنْصَافِ؛ حَيْثُ أَسْنَدْنَ الْحُكْمَ إِلَى الرُّؤْيَةِ، وَلَمْ يَجْزِمْنَ بِالْحُكْمِ بِأَنْ يَقُلْنَ: «إِنَّهَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ»، فَإِنَّ إِسْنَادَ الْحُكْمِ إِلَى الرُّؤْيَةِ يُعَبِّرُ عَنْ أَنَّهُنَّ لَمْ يَكُنَّ مُتَيَقِّنَاتٍ مِنْ صِحَّةِ الْحُكْمِ، بَلْ كَانَتْ رُؤْيَتُهُنَّ مُجَرَّدَ ظَنٍّ قَائِمٍ عَلَى ظَاهِرِ الْأَمْرِ. وَهَذَا الْأُسْلُوبُ يُظْهِرُ إِنْصَافَهُنَّ؛ لِأَنَّهُنَّ لَمْ يَدَّعِينَ الْعِلْمَ الْيَقِينِيَّ بِضَلَالِ زُلِيخَا.

وَقَوْلُهُنَّ: {إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} يَحْمِلُ إِشَارَةً خَفِيَّةً إِلَى أَنَّهُنَّ لَمْ يَكُنَّ عَالِمَاتٍ بِكُلِّ جَوَانِبِ الْأَمْرِ، وَأَنَّ لَهُنَّ رُؤْيَةً مَا، لَكِنَّهَا لَيْسَتْ أَمْرًا مَقْطُوعًا بِهِ.

الْمَوْضِعُ الْخَامِسُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}

قَالَ ابْنُ عَرَفَةَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ}: «وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْآيَـةُ خَرَجَتْ مَخْرَجَ الْإِنْصَافِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [سَبَأٌ:24]»(19).

وَآيَةُ سَبَأٍ ذَكَرَ ابْنُ عَرَفَةَ أَنَّهَا خَارِجَةٌ مَخْرَجَ الْإِنْصَافِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَعَرَّضْ لِبَيَانِ وَجْهِهِ؛ لِأَنَّهَا ذَكَرَهَا عَرَضًا فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ.

وَقَدْ جَاءَتِ الْآيَةُ بِصِيغَةٍ تُوحِي بِأَنَّهُ لَا فَضْلَ لِطَرَفٍ عَلَى الْآخَرِ فِي الْوَاقِعِ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ الْحَقُّ، فَقَوْلُهُ: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ} يَجْعَلُ النَّفْسَ الْمُؤْمِنَةَ وَالْخَصْمَ الْكَافِرَ سَوَاءً فِي ظَاهِرِ الْخِطَابِ، ثُمَّ أَتْبَعَ ذَلِكَ بِمَا يُقَوِّي هَذَا الْإِنْصَافَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: {قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [سَبَأٌ:25]، وَهُنَا تَنْكَشِفُ عَجَائِبُ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ وَأَسْرَارُ أَدَبِهِ الْجَلِيلِ فِي مُخَاطَبَةِ الْخُصُومِ، فَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وَهُوَ الْمَبْعُوثُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ- يُوَاجِهُ أَهْلَ الْعِنَادِ وَالْخِلَافِ بِأُسْلُوبٍ يَجْمَعُ بَيْنَ الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَبَيْنَ اللِّينِ الَّذِي لَا يَشُوبُهُ ضَعْفٌ، وَالْقُوَّةِ الَّتِي لَا تَمِيلُ إِلَى الْغِلْظَةِ، فَنَسَبَ -بِأَمْرٍ مِنْ رَبِّهِ- الْإِجْرَامَ -وَهُوَ الْبَرِيءُ مِنْهُ- إِلَى نَفْسِهِ وَمَنْ مَعَهُ، وَلَمْ يَأْلُ جُهْدًا فِي أَنْ يَرْفَعَ عَنْ خُصُومِهِ وَصْفَ الْإِجْرَامِ، إِذْ قَالَ: {وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ}، وَلَمْ يَقُلْ: «وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تُجْرِمُونَ»، فَاخْتَارَ الْعِبَارَةَ الَّتِي لَا تَخْدِشُ السَّمْعَ، وَلَا تُثِيرُ الْغَضَبَ، وَلَا تَزْرَعُ الْعَدَاوَةَ فِي النُّفُوسِ. وَهَذَا مُنْتَهَى الْأَدَبِ فِي الْجَدَلِ، وَمُنْتَهَى الرِّفْقِ فِي الدَّعْوَةِ.

وَمِنْ دَقَائِقِ هَذَا الْأُسْلُوبِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ جَارِفًا أَوْ مُتَسَلِّطًا، بَلْ خَاطَبَ الْخَصْمَ بِأَدَبٍ جَمٍّ وَعَدْلٍ بَالِغٍ؛ إِذْ أَعْطَى الْمُخَاطَبِينَ سَعَةً لِلتَّفْكِيرِ وَالتَّدَبُّرِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْكَلَامِ تَحْقِيرٌ أَوْ إِجْبَارٌ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَا يَتَّصِفُ بِهِ الْخِطَابُ الْقُرْآنِيُّ؛ حَيْثُ يُعْطِي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَيَدْعُو إِلَى الْحَقِّ بِحِكْمَةٍ وَمَوْعِظَةٍ حَسَنَةٍ.

• أَثَرُ الْإِنْصَافِ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْخِطَابِ الْقُرْآنِيِّ:

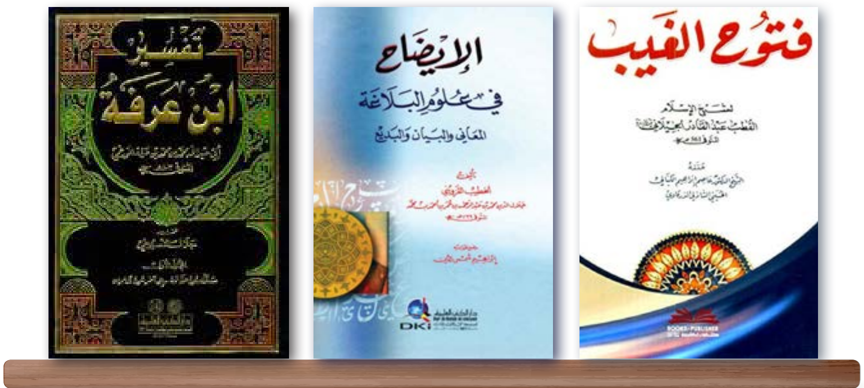
الْإِنْصَافُ فِي الْـكَلَامِ يُعَدُّ مِنْ أَقْوَى الْأَسَالِيبِ الَّتِي تَجْذِبُ الْقُلُوبَ وَتَفْتَحُ الْعُقُولَ لِلْحَقِّ، فَحِينَ يَعْرِضُ الْمُتَحَدِّثُ الْحَقِيقَةَ بِإِنْصَافٍ وَعَدْلٍ، دُونَ تَحَيُّزٍ أَوْ تَشْوِيهٍ؛ يَشْعُرُ الْمُخَاطَبُ

بِالِاحْتِرَامِ وَالتَّقْدِيرِ، مِمَّا يَجْعَلُهُ أَكْثَرَ اسْتِعْدَادًا لِقَبُولِ الْحَقِّ، فَالْإِنْصَافُ يُزِيلُ الْحَوَاجِزَ النَّفْسِيَّةَ بَيْنَ الْمُتَحَدِّثِ وَالْمُخَاطَبِ، وَيُشْعِرُهُ بِأَنَّ الْحَقِيقَةَ لَيْسَتْ حِكْرًا عَلَى طَرَفٍ دُونَ آخَرَ، بَلْ هِيَ غَايَةٌ يَسْعَى إِلَيْهَا الْجَمِيعُ.

وَمِنَ الْأَمْثِلَةِ الْبَارِزَةِ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [الْأَنْعَامُ:135]، قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: «وَهَذَا طَرِيقٌ مِنَ الْإِنْذَارِ لَطِيفُ الْمَسْلَكِ، فِيهِ إِنْصَافٌ فِي الْمَقَالِ وَأَدَبٌ حَسَنٌ، مَعَ تَضَمُّنِ شِدَّةِ الْوَعِيدِ، وَالْوُثُوقِ بِأَنَّ الْمُنْذَرَ مُحِقٌّ وَالْمُنْذَرَ مُبْطِلٌ»(20).

وَيُمْكِنُ الِاسْتِفَادَةُ مِنْ أُسْلُوبِ الْإِنْصَافِ فِي الْكَلَامِ؛ لِجَذْبِ النَّاسِ إِلَى الْحَقِّ. فَحِينَ يَعْرِضُ صَاحِبُ الْحَقِّ الْحَقِيقَةَ بِأَدَبٍ جَمٍّ وَإِنْصَافٍ فِي الْقَوْلِ، دُونَ تَحَيُّزٍ أَوْ تَشْوِيهٍ؛ يَتَبَيَّنُ الْمُخَاطَبُ فِي هَذَا الْأُسْلُوبِ الِاحْتِرَامَ وَتَجَلِّيَاتِ التَّقْدِيرِ، فَيَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ اسْتِعْدَادٌ أَكْبَرُ لِتَقَبُّلِ الْحَقِّ وَالِانْفِتَاحِ عَلَى مَا يُقَدَّمُ إِلَيْهِ.

وَبِالْجُمْلَةِ؛ فَإِنَّ الْإِنْصَافَ فِي الْكَلَامِ لَيْسَ فَضِيلَةً خُلُقِيَّةً فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ أَدَاةٌ قَوِيَّةٌ تَفْتَحُ قُلُوبَ الْمُخَاطَبِينَ وَتَسْتَلِينُ عُقُولَهُمْ لِقَبُولِ الْحَقِّ. وَمِنْ خِلَالِهِ يَتَمَيَّزُ الْخِطَابُ الْقُرْآنِيُّ بِأَنَّهُ لَا يَعْتَمِدُ عَلَى التَّحَيُّزِ أَوِ التَّجَنِّي، بَلْ يَرْتَقِي إِلَى مَقَامِ الْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ، فَيَكُونُ دَعْوَةً صَادِقَةً إِلَى الْحَقِّ بِلَا إِغْلَاقٍ لِأَبْوَابِ الْحِوَارِ. وَهَذَا مَا يَجْعَلُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ نُورًا لِلْعَالَمِينَ، وَأُسْلُوبَهُ الْمُنْصِفَ مِثَالًا يُحْتَذَى فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ.



حَوَاشٍ وَمَرَاجِعُ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، (مادة: نصف) (5/431-432). ويُنبَّهُ إلى أنَّه ليس في المطبوع من مقاييس اللّغة بيانُ الأصل الثّاني، فلعلّه سَقَطَ مِن أصل المخطوطاتِ. ولكنْ ورد في مُجْمَلِ اللُّغة لابن فارس (ص869) قوله: «والنّصف: الخُدّام، الواحدُ: ناصِف».

(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، (ص234).

(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (مادة: نصف) (12/142). وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (مادة: نصف) (5/66).

(4) السكاكي، مفتاح العلوم، ص:245-246.

(5) عبد المحسن العسكر، تفسير جزء تبارك وفوائده وأحكامه، ص: 62.

(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة، 1/177.

(7) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة، 1/179، 384، 2/196، 3/293، 4/30.

(8) الزمخشري، الكشاف، 4/325.

(9) عبد الرحمن البراك، التعليق على القواعد المثلى، ص:179.

(10) ابن عطية، المحرر الوجيز، 1/217. ومجموعة من الباحثين، موسوعة التفسير البلاغي، 2/378.

(11) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة، 2/224.

(12) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 8ب/112.

(13) مجموعة من الباحثين، موسوعة التفسير البلاغي، 13/240-241.

(14) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة، 2/241.

(15) يُنظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، 2/117. وأحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص:151. والميداني، البلاغة العربية، 1/472.

(16) هكذا في المطبوع، ولعلَّه تصحيفٌ، وكأن الصواب: «وَأَسْنَدْنَ رُؤْيَةَ ذَلِكَ إِلَى أَنْفُسِهِنَّ».

(17) في المطبوع: «لم يعلمهن»، ولعله غلطٌ.

(18) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة، 2/386.

(19) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة، 2/224.

(20) الزمخشري، الكشاف، 2/68. ويُنظر: الطيبي، فتوح الغيب، 6/254-255.

أَعْطِ القَوْسَ باريها

مَثَلٌ تَناقَلَتْهُ العَرَبُ مِنْ جيلٍ إلى جيلٍ، وهُوَ مَثَلٌ تَضْرِبُهُ العَرَبُ عِنْدَ الاسْتِعانَةِ على الأَمْرِ بأَهْلِ الـمَعْرِفَةِ والحِذْقِ بِهِ.

قالَ الحُطَيْئَةُ للوالي سَعيدِ بْنِ العاصِ الأُمَويِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عِنْدَما شَعَرَ بأَنَّ الواليَ يَسْتَنْشِدُ غَيْرَهُ مِنَ الشُّعَراءِ: "أَصَبْتُمْ جَيِّدَ الشِّعْرِ، ولَوْ أَعْطَيْتُمُ القَوْسَ باريها لَوَقَعْتُمْ عَلى ما تُريدونَ".

ومِنْ شِعْرِ الحُطَيْئَةِ قَوْلُهُ:

يا بارِيَ القَوْسِ بَرْيًا لَسْتَ تُحْسِنُهُ ❊❊❊ لا تَظْلِمِ القَوْسَ أَعْطِ القَوْسَ باريها





لغويّات

- المَلَكَةُ اللِّسَانِيَّةُ بيـنَ النّظريّةِ الخَلـــدونيَّـةِ والنَّظَرِيَّةِ الحَدِيثَةِ
- صَـنْعَةُ اللُّغَةِ في المَقَالِ العِلْمِـيِّ قِـرَاءَةٌ فـــي أدبيّـةِ المقالِ عندَ الدّكتور أحمد زكـي
- جُهُــودُ سِــيبَوَيْه البَلاغيَّـــةُ فـــي (الكتاب) من خلالِ أُسـلُوبِ الحَـذْفِ



المَلَكةُ اللِّسَانِيَّةُ بيـنَ النّظريّةِ الخَلـــدونيَّـةِ والنَّظَرِيَّةِ الحَدِيثَةِ

لقدِ اشتهرَ العلاّمةُ ابنُ خَلدون عند عامّةِ النّاس بأنّه أرسَى قواعدَ فلسفةِ التّاريخِ. وكثيرًا ما يُذكرُ في الكُتبِ الحديثةِ بأنّه مُنشئُ علْم الاجتماع العُمرانيّ، لكنْ هذا اعترافٌ بجُزءٍ ممّا أبدعَه الرّجلُ، فابنُ خَلدون يجهلُ قدْرَه كثيرٌ منَ النّاس، بل إنّهم يَعرفونَه على أنّه عالمُ اجتماعٍ ليس إلاّ. ولكنْ هناك منَ اللّسانيّين من يجدُ في المقدّمةِ مخزونًا منَ الاستطراداتِ الثّريّةِ التي تدلُّ على جملةٍ منَ الأفكارِ اللّسانيّةِ التي لا تقلُّ أهمّيةً عمّا توصّلَ إليه البحثُ اللّسانيُّ، إضافةً إلى آراءٍ لُغويّةٍ متعمّقةٍ ومتطوّرةٍ يجدرُ بنا التّوقّفُ عندها مَليًا، لكونِ الجانبِ اللّغويِّ في فكرِ ابنِ خَلدون يَكتسي أهمّيةً بالغةً مثلُه مثلُ الجانبِ الاجتماعيِّ والسّياسيِّ.



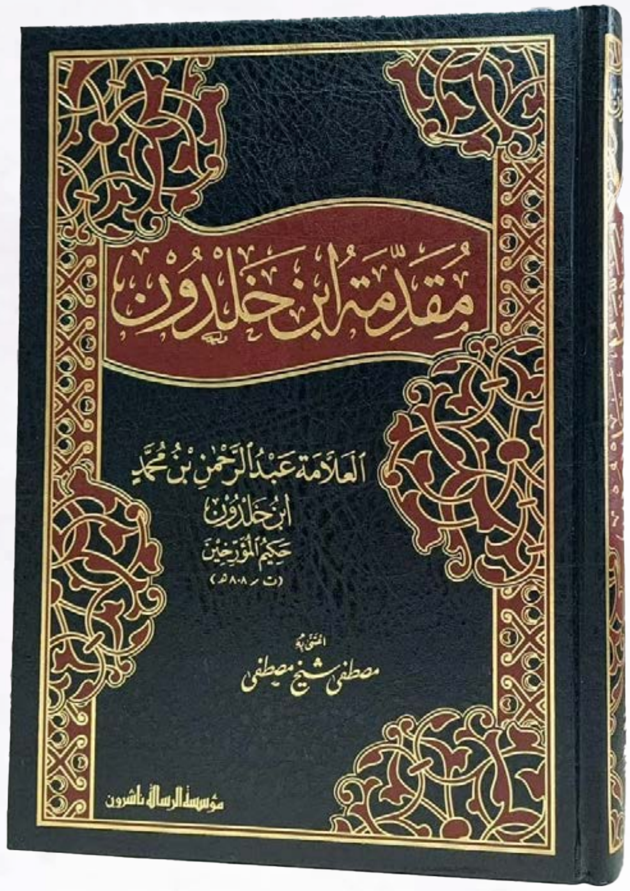
عبدُ المالك حسنيوي

أستاذ في اللّغة العربية

إنَّ من يدقّقُ النّظرَ في مقدّمةِ ابن خَلدون ولا سيمَا الفصلِ الخاصِّ بعلوم اللّسانِ العربيِّ، يكتشفُ عددًا هامًّا منَ المُصطلحاتِ التي يَنبغِي لَنا في هذا البابِ أن نُوضِّحَها بحسبِ كلِّ مجالٍ على حِدة، وفي إطار الحديثِ عنِ المصطلحات الكثيرةِ التي اشتملت عليها المقدّمةُ، يقولُ الدّكتور عبدُ السّلام المسدي:"وبديهيٌّ أن يكونَ لابنِ خَلدون مُعجمُه الاصطلاحيُّ الذي يحدّدُ للألفاظِ أبعادَها الفنّيةَ لتُصبحَ أدواتٍ مفهوميّةً على الصّعيدِ النّظريِّ وضوابطَ ملموسةً على الصّعيدِ التّطبيقيِّ غيرَ أنّ هذا الثّبتَ الاصطلاحيَّ يرتبطُ تاريخيًّا بجملةِ السّننِ الدّلاليّةِ التي ولّدَها الفكرُ العربيُّ واطّردتْ في الاستخدام القاموسيِّ، فكان ابنُ خَلدون فيها وريثًا ومجدّدًا في نفسِ الوقت».

مُصطلحُ المَلَكةِ اللّسانيّةِ عندَ ابن خَلدون:

إنَّ المَلَكةَ اللّسانيّةَ في نظرِ ابن خَلدون تختلفُ عن صناعةِ العربيّةِ وعن قواعدِ اللُّغة، فمفهومُ هذه الملَكةِ مفهومٌ خاصٌّ لا ينبغِي لنا الخلطُ بينَه وبينَ المفهومَيْن السّابقَيْن. وذلك يتّضحُ جليًّا من خلال قولِه :«من هنا تعلمُ أنَّ تلك الملَكةَ هي غيرُ صناعةِ العربيّةِ وأنّها مُستغنيةٌ عنها بالجملةِ»، وقولِه أيضًا: «وهكذا العلمُ بقوانينِ الإعرابِ مع هذه الملَكةِ في نفسِها، فإنَّ العلمَ بقوانينِ الإعرابِ إنّما هو علمٌ بكيفيةِ العملِ وليس هو نفسَ العملِ» ، وهذا ما حاولَ



إنَّ من يدقّقُ النّظرَ في مقدّمةِ ابنِ خَلدون ولا سيمَا الفصلِ الخاصّ بعلوم اللّسانِ العربيِّ، يكتشفُ عددًا هامًا من المُصطلحاتِ التي يَنبغِي لَنا في هذا البابِ أن نُوضِّحَها.

إنَّ الملَكَةَ اللّسانيّةَ في نظرِ ابنِ خَلدون تختلفُ عن صناعةِ العربيّةِ وعن قواعدِ اللُّغة، فمفهومُ هذه الملَكةِ مفهومٌ خاصٌّ لا ينبغِي لنا الخلطُ بينَه وبينَ المفهومَيْن السّابقَيْن.

أن يُوضّحَه ويُبرزَه الدّكتور ميشال زكريا إثْرَ حديثِه عنِ الملَكةِ اللّسانيّةِ عند ابنِ خَلدون بقوله: "فالملَكةُ اللّسانيّةُ حقيقةٌ لُغويّةٌ قائمةٌ تختلفُ عن صناعةِ العربيّةِ بل أكثرُ من ذلك، ليست صناعةُ العربيّةِ واجبةً لتوفُّرِ الملَكةِ اللّسانيّةِ. إنَّ الملَكةَ اللّسانيّةَ تستقيمُ بصورةٍ مستقلّةٍ عن صناعةِ العربيّةِ». ويستطردُ الدّكتور ميشال زكريا في الحديثِ عن هذا الموضوع فيقولُ:«الملَكةُ اللّسانيّةُ هي علْمٌ بالقوانينِ الإعرابيّةِ. بكلام آخر، الملَكةُ اللّسانيّةُ هي المعرفةُ بقوانينِ الإعرابِ وليست قوانينَ الإعراب ذاتَها».

من هنا إذًا يتبيّنُ دقّةُ تحديدِ المفاهيمِ من طرف العلّامةِ ابنِ خَلدون، وهذا التّميّزُ جعلَ من كتابِه (المقدّمةُ) محطَّ اهتمامِ العديدِ منَ الباحثين والدّارسين في مختلفِ المجالات. وفي إطارِ التّمييز الذي نلاحظُه بين الملَكةِ اللّسانيّةِ وبين قواعدِ اللُّغةِ، يجعلُنا نُقرُّ بكونِه شبيهًا بما يوجدُ في النّظريّةِ التّوليديّةِ، التي تُعرّفُ الكفايةَ اللّغويّةَ بأنّها هي المعرفةُ الضّمنيةُ بقواعدِ اللّغةِ. ممّا سبقَ يتّضحُ أنّ مفهومَ الملَكة يختلفُ عن مفهومَيْ قواعدِ اللُّغةِ وصناعةِ الكتابةِ، وهذا يذهبُ بنا إلى تعريفِ ابنِ خَلدون للملَكات حيث يَعدُّها صفاتٍ للنّفس وألوانًا فلا تزدحمُ دفعةً ...

فالملَكةُ صفةٌ راسخةٌ في النّفسِ

تُمكّنُ الإنسانَ منَ القيامِ بالأعمالِ العائدةِ إليها، والإنسانُ مهيّأٌ لاكتسابِ الملَكات، فكلُّ إنسانٍ نشأَ وترعرعَ في بيئةٍ تتكلّمُ لُغةً معيّنةً اكتسبَ ملَكةً لسانيّةً في هذه اللُّغة. فلا ضيرَ حينئذٍ إذا أدرجْنا بعضَ التّعاريفِ التي احتوَت لفظةَ مَلَكة، فهذا المُعجمُ الوسيطُ يحدّدُها بكونِها :"صفةٌ راسخةٌ في النّفس أوِ استعدادٌ عقليٌّ لتناولِ أعمالٍ معيّنةٍ بحذقٍ ومهارةٍ، مثلَ الملَكَةِ العدديّةِ والملَكةِ اللُّغويّةِ».

وذاك الرّازي في مختار الصّحاح يتحدّثُ عن لفظةِ الملَكة فيقول: "فلانٌ حسنُ الملَكَة أي حسنُ الصّنيعِ إلى مماليكِه».

إنّ هذين التّعريفَين ليسا سوَى نموذجَين من مجموعةِ نماذجَ لم تخرجْ عن طرحِ ابنِ خَلدون في تحديدِه لمفهومِ الملَكَة.

أمّا إذا رجعْنا إلى مصادرِ التّراثِ نجدُ أنَّ لفظَ مَلَكة، عندَ العرب في القديم له صلةٌ "بالقوّةِ في الخلْقِ والطّبعِ والسّجيّة».

ويدلُّ في اللّسانِ اليونانيّ على: «حملُ الأشياءِ التي هي أطولُ زمانًا في الثُّبوت وأعسرُ حركةً، فإنّهم لا يقولون فيمن كان غيرَ متَمسّك بالعلم تمسّكًا يُعتدُّ به أنَّ له ملَكَة».

و«هذا أبو حيّانَ التّوحيديُّ يدخلُ في حصْرِ فكرةِ الملَكَة اللُّغويّةِ في عُنصرِ الغريزةِ مُعتبرًا أنَّ ممارسةَ الإنسانِ للحدثِ الكلاميِّ لابدَّ أن يَستندَ إلى بناءٍ وترتيبٍ قائمَين في غرائزِ أهلِ اللّغةِ المقصودةِ بالذّات».

و«ينطلقُ ابنُ وهبٍ في تعبيرِه عنِ الملَكَة اللّسانيّةِ بالعادةِ والسّجيّة، فهما ما يخلقُ قُدرةً على ممارسةِ الكلامِ تلقائيًّا؛ لأنّ الوعيَ بأبنيةِ اللّغةِ وقوانينِها قدِ اختفَى بترسيخِ ملَكة اللّسانِ».

في حينِ نجدُ المدرسةَ الغربيّةَ وبالخصوصِ النّظريّةَ البنيويّةَ، التي يـُمَثِّلُها في أمريكا «بلومفيلد» وفي فرنسا «مارتيني»، تعتبرُ أنَّ الملَكةَ اللّسانيّةَ يمكنُ اكتسابُها بالمحاكاةِ أوِ التّقليدِ أو بالقياسِ بدرجةٍ أقلَّ.

مجملُ القولِ، إنَّ الملَكةَ هي المعرفةُ اللّاواعيَةُ والضّمنيّةُ، بقواعدِ اللغةِ، التي يكتسبُها المتكلّمُ منذ طفولتِه، وتبقَى راسخةً في ذهنه، فتُمكّنُه فيما بعدُ من إنتاجِ العددِ غيرِ المحدودِ منَ الجُمل الجديدةِ التي لم يسمعْها من قبلُ إنتاجًا ابْتِكاريًّا ،لا مجرّدَ تقليدٍ ساكنٍ، ثمّ التّمييزِ بين ما هو سليمٌ نحويًّا وبين غيرِه.

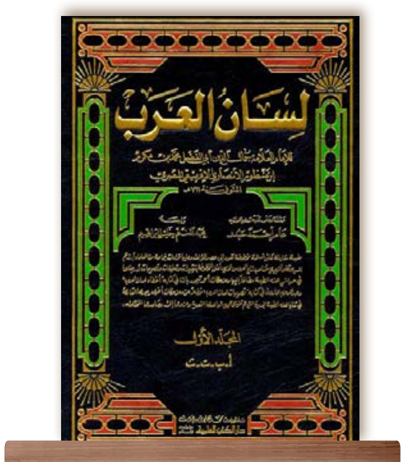
وبعدَ اطّلاعِنا على بعضِ كتاباتِ الدّكتور ميشال زكريا فيما يخصُّ الحديثَ عنِ الملَكة اللّسانيّةِ عند ابنِ خَلدون، يتّضحُ في معظمِ مقارباتِهِ لهذه القضيّةِ، أنّه يحاولُ أن يُلمحَ إلى التّقاربِ الكبيرِ بين مفهومِ الملَكة اللّسانيّةِ لدى ابنِ خَلدون والكفايةِ اللّغويّةِ compétence linguistique التي يقولُ بها نعوم

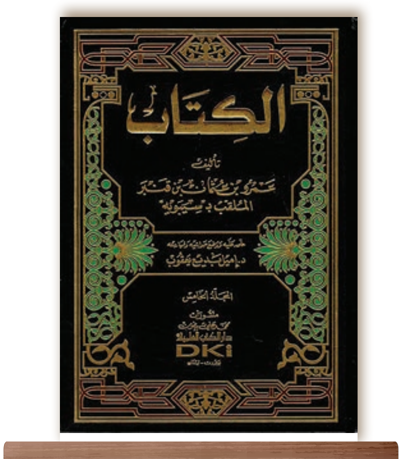


تشومسكي



د. عبد السلام المسدي





تشومسكي، حتى يصلَ ذلك التّقارُبُ إلى حدّ التّطابُقِ، وذلك حين يقول: «فنحن لا نبتعدُ عَنِ الصّوابِ إذا ترجمْنا compétence بالملَكَة اللّسانيّةِ، وذلك لأنَّ الهدفَ في بحثنا هو تقريبُ فكرِ ابنِ خَلدون اللُّغويِّ إلى الآراء الألسُنيّةِ الحديثةِ»؛ وفي نفس الصّددِ يقول: «وإلى نظيرِ ذلك يذهبُ تشومسكي عندما يميّزُ بين الملَكَة اللّسانيّةِ أوِ الكفايةِ اللّغويّةِ وبين الأداءِ الكلاميِّ».

ويذهبُ أبْعدَ من ذلك أحدُ الباحثين إلى كونِ :«ابنِ خَلدون وليس تشومسكي المؤسّسَ الحقيقيَّ لنظريّةِ الملَكَةِ اللّسانيّةِ».

بعدَ التّطرُّقِ لمفهوم الملَكَةِ اللّسانيّةِ عند ابنِ خَلدون وعند بعضِ المعاجمِ العربيّةِ، بالإضافةِ إلى النّظرِ في اللّسانيّاتِ الحديثةِ وخاصّةً مع نعوم تشومسكي الذي شابهتْ إلى حدٍّ كبيرٍ نظرتُه إلى قضيّةِ الملَكَة من ناحية الكفايةِ اللّغويّةِ نظريَّةَ ابنِ خَلدون،إذْ يُمكنُنا أن نخلُصَ إلى نقاطٍ رئيسةٍ:

1- إنَّ الملكةَ اللّسانيّةَ يمكنُ النّظرُ إليها مُستقلّةً استقلالاً تامًّا عنِ العمليّاتِ العقليّةِ الأخرى كالسّمعِ والبصرِ وغيرِ ذلك.

2- إنَّ الملَكةَ اللّسانيّةَ يمكنُ النّظرُ إليها كمعرفة في الذّهنِ بالمقارنةِ إلى الاستعمالِ اللُّغويِّ كسلوكٍ اجتماعيٍّ.

3- إنَّ هذه الملَكةَ تُكتسبُ دونَ وعيٍ منَ المتعلّم مُقارنةً بِالقواعدِ النّحويّةِ التي يتعلّمُها الشَّخصُ بوعيٍ منه.

إنَّ الملكةَ اللّسانيّةَ يمكنُ النّظرُ إليها مُستقلّةً استقلالاً تامًّا عنِ العمليّاتِ العقليّةِ الأخرى كالسّمعِ والبصرِ وغيرِ ذلك.

4- إنَّ اكتسابَ الملَكةِ يتأتّى على مراحلَ وليس دفعةً واحدةً.

فالحديثُ عنِ الملكةِ اللّسانيّةِ عند ابنِ خَلدون يجرُّنا إلى النّظرِ في أحوالِ هذه الملَكة. وَهذه الأخيرةُ بما أنّها إلمامٌ بمبادئَ وقواعدَ، وبما أنّها كذلك صفةٌ في النّفسِ تتنوّعُ من شخصٍ لآخرَ، فتارةً تكونُ ملَكةً مُستحكمةً، وتارةً جيّدةً، وتارةً راسخةً، وتارةً تامّةً، وتارةً أخرى مُستقرّةً، وباجتماعِ كلِّ هذه الملَكاتِ عندَ الإنسان تتيحُ له القيامَ بالأفعالِ العائدةِ إليها وإتقانَها.

فاللافتُ للنّظرِ من خلال كلِّ ما سبقَ، أنَّ هذه الملَكةَ قد تكون عُرضةً لأحداثٍ قد تُؤثّرُ فيها.

ومن ثمَّ فمصيرُ هذه الملَكةِ إمّا الفسادُ أوِ الامتزاجُ أوِ التّغيّرُ، وبذلك يوضّحُ ابنُ خَلدون هذا الأمرَ بقوله: «ثمَّ إنّه لـمّا فسدت هذه الملَكةُ لمُضَر بمخالطتِهم الأعاجمَ. وسببُ فسادِها أنَّ النّاشئَ منَ الجيل، صار يسمعُ في العبارةِ عنِ المقاصدِ كيفياتٍ أُخرى غيرَ الكيفيّاتِ التي كانت للعرب، فيعبّرُ بها عن مقصودِهِ لكثرةِ المُخالِطين للعربِ من غيرهم، ويسمعُ كيفيّاتِ العربِ أيضًا، فاختلطَ عليه الأمرُ، وأخذَ من هذه وهذه، فاستحدثَ ملَكةً وكانت ناقصةً منَ الأُولى. وهذا معنى فسادِ اللّسانِ العربيّ ».

فمن خلالِ هذا الكلام، يريدُ العلّامةُ ابنُ خَلدون أن يبيّنَ أَنَّ سببَ فسادِ الملَكة يرجعُ إلى تعرّضِ المتكلّمِ للُغاتٍ أخرى ودخولِ ا لمستعرَ بين



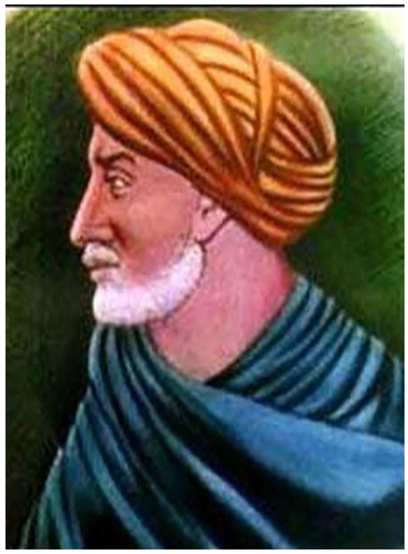
أبو حيان التوحيدي

المجتمعَ العربيَّ الإسلاميَّ، وفي نفس الصّددِ يقولُ: "تغيّرت تلك الملَكةُ بما ألقَى إليها السّمعُ منَ المخالفاتِ التي للمستعرَبين. والسّمعُ أبو الملَكاتِ اللّسانيّةِ ففسدتْ بما ألقَى إليها ممّا يغايرُها، لجنوحِها إليه باعتيادِ السّمع» ، لكنّه وبغضِّ النّظرِ إلى فسادِ الملَكةِ اللّسانيّةِ، قد تتعرّضُ للامتزاجِ إثْـرَ تفاعُلِها – الملَكةُ الأساسيّةُ – مع لُغاتٍ أخرى، لتُنتجَ بذلك ملَكةً جديدةً، فمخالطةُ العجمِ اللّسانَ الأصليَّ تُبعدُه عن لسانِه، في نفس المنوالِ يقولُ ابنُ خَلدون : «(...) وهذه ملَكةٌ مُمتزجةٌ منَ الملَكةِ الأُولى التي كانت للعربِ ومنَ الملَكةِ الثّانيَةِ التي للعجم. فعلى مِقدارِ ما يسمعونَه منَ العُجمةِ، ويُرَبَّوْنَ عليه يَبعدون عنِ الملَكةِ الأولى».

بيْدَ أنَّ فسادَ تلك الملَكة وامتزاجَها بملَكاتٍ أخرى قد يجعلُها عُرضةً للتّغيُّر والتّبدُّلِ في صورةٍ أُخرى جديدةٍ، ويتجلَّى هذا التّغيّرُ على مستوَى الملَكة من خلالِ تصريحِ ابنِ خَلدون بذلك في قولِه: «وإنّما وقعتِ العنايةُ بلسانِ مُضر، كما فسدتْ بمخالطتِهم الأعاجمَ حين استولَوْا على ممالكِ العراقِ والشّامِ ومصرَ والمغرب. وصارت ملَكتُه على غيرِ الصّورةِ التي كانت أوّلاً، فانقلب لُغةً أُخرى».

وللمحافظةِ على هذه الملَكة منَ الفسادِ أوِ الامتزاجِ يدعو العلّامةُ ابنُ خَلدون إلى العنايةِ بها والمحافظةِ عليها، وتغذيتِها وإغنائِها، وذلك من خلال قولِه:«على مقْدارِ جودةِ المحفوظِ أوِ المسموع، تكونُ جودةُ الاستعمالِ من بعده، ثمّ إجادةُ الملَكة من بعدِهما. فبارتقاءِ المحفوظِ في طبقتِه منَ الكلام، ترتقي الملَكةُ الحاصلةُ؛ لأنّ الطّبعَ إنّما يَنسجُ على منوالِها وتنمُو قوَى الملَكة بتغذيتِها».

نلاحظُ أنَّ ابنَ خَلدون يستفيضُ في حديثِه عنِ الملَكةِ اللّسانيّةِ، وذلك من خلال التّعريفِ بها والتّعرّضِ لأحوالها ومنها:الفسادُ، والامتزاجُ، وَالتَّغيُّرُ –، بشكلٍ علميٍّ دقيقٍ يستدعِي منّا إلقاءَ الضّوءِ على نظريّةِ الملَكة بصورةٍ أو بأخرَى ، وذلك في إطارِ جهودِه الجادّةِ في خدمة التّحصيلِ اللُّغويِّ المُتقَنِ على وجْه الخُصوص، وخدمةِ اللُّغةِ العربيّةِ على وجْهِ العُموم .



ابن خلدون



بلومفيلد

> **إنَّ مُعظمَ المصطلحاتِ اللّغويّةِ أوِ الحقائقِ اللّسانيّةِ التي وردتْ في المقدّمةِ، لا تقلُّ قيمةً عن تلك المقاييس التي يستعملُها اللّسانيّون التّطبيقيّون أو تلك التي تتبنّاها الألسنيّةُ التّوليديّة.**

فتعليمُ الملَكةِ اللُّغويّةِ حسبَ ابنِ خَلدون ينحصرُ في أربعةِ أفكارٍ أساسيّةٍ، وهي:

أوّلُها: السّمعُ أبو الملَكاتِ اللّسانيّةِ.

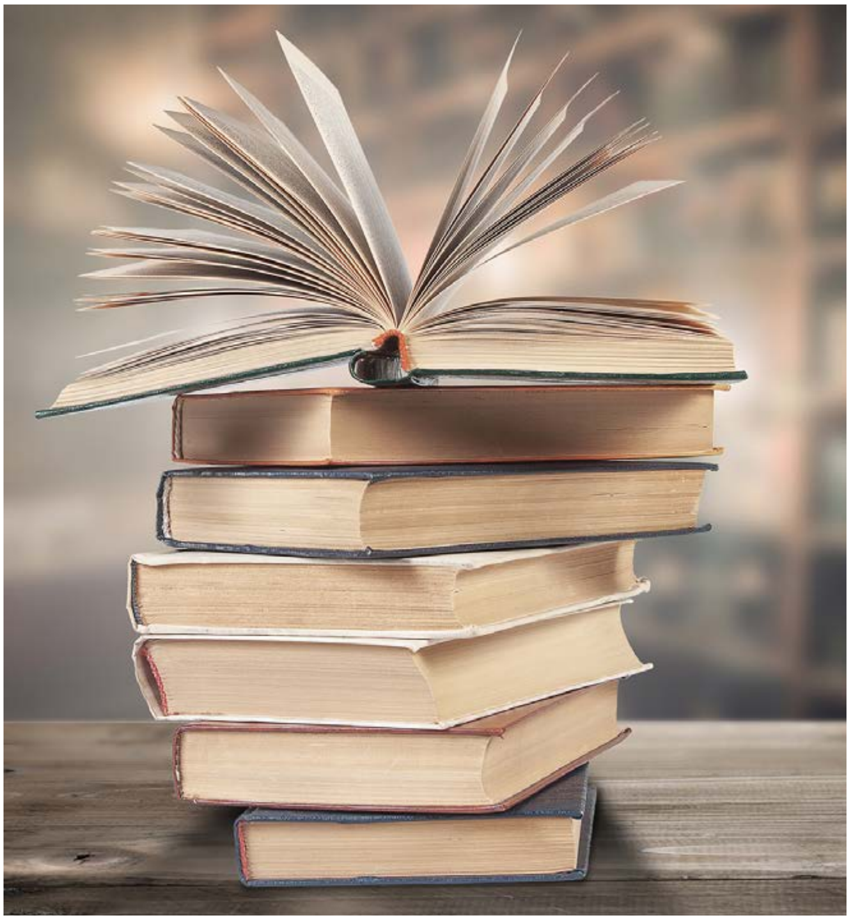
ثانِيها: دراسةُ القواعدِ لذاتِها سببٌ خطيرٌ في ضَعفِ التّحصيلِ.

ثالثُها: تمييزُ ملَكةِ اللّغة من صناعتِها باعتبارِ هذه الأخيرةِ هي اللّغةَ بوصْفِها نظامًا وعلمًا مجرّدًا وقوانينَ، ويمثّلُ هذا النّوعُ جانبَ البحثِ اللّغويِّ الذي هو من وظيفةِ العالِم بأسرارِ اللّسانِ.

رابُعها: ملَكةُ اللّغةِ فهمُ اللّغةِ بصفتِها

إنجازًا أو تحقُّقًا فعليًّا في صورةِ كلامٍ أو كتابةٍ، ويمثّلُ هذا النّوعُ جانبَ الاستعمالِ واستعمالُ اللّغةِ هو وظيفةُ المتكلّم، ومعرفةُ العالِم بأسرارِها معرفةٌ نظريّةٌ، في حينِ أنَّ معرفةَ المتكلِّم لها معرفةٌ علميّةٌ.

مُجملُ القول، إنَّ مُعظمَ المصطلحاتِ اللّغويّةِ أوِ الحقائقِ اللّسانيّةِ التي وردتْ في المقدّمةِ، لا تقلُّ قيمةً عن تلك المقاييس التي يستعملُها اللّسانيّون التّطبيقيّون أو تلك التي تتبنّاها الألسنيّةُ التّوليديّةُ. فالهدفُ من هذه الدّراسةِ ليس استعراضَ المصطلحاتِ الخَلدونيّةِ فحسبُ كمصطلحِ الملَكة اللّسانيّةِ، وإنّما تبيانٌ لتلك الجهودِ النّيّرةِ والعملِ الطيّبِ الذي قام به العلّامةُ ابنُ خَلدون في خدمةِ اللّغةِ العربيّةِ من خلالِ تتبُّعِ النّصوصِ واستقصائِها، وإعمالِ الفكرِ واستخراجِ القاعدةِ النّحويّةِ، زيادةً على وضْعِه مبادئَ التّعليمِ الجيّدِ في إطارِ نظريّةِ التّحصيلِ اللُّغويّةِ.



الهوامش:

(1) المسدي، عبد السلام،علوم اللسان عند ابن خَلدون، مجلة المورد ،المجلد الخامس عشر ,العدد الأول ,1406هـ / 1986م,ص:20.

(2)ابن خَلدون، عبد الرحمن، مقدمة ابن خَلدون، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس الأستاذ خليل شحاذة، مراجعة الدكتور سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر، 1431هـ / 2001م،ص: 773

(3)نفسه ، ص : نفسها

(4)ميشال، زكريا ، الملكة اللسانية في مقدمة ابن خَلدون، 1986المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر والتوزيع، ط 1ص:23

(5)نفسه ، ص: 24

(6)مجمع اللغة العربية بالقاهرة،المعجم الوسيط ،الطبعة الرابعة،2004م/1425هـ،مكتبة الشروق الدولية،مادة (م ل ك) ص:886

(7)الرازي، زين الدين، مختار الصحاح ، 1986م، بيروت، مكتبة لبنان مادة (م ل ك) ص: 502

(8) السيد،الشرقاوي، الملكة اللغوية في الفكر اللغوي العربي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، 2002م ، القاهرة ، ص : 27

(9) نفسه ، ص: 32

(10) المسدي ، عبد السلام، ،اللسانيات وأسسها المعرفية، 1986م،المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ص: 215

(11) بن زروق ،حسين،نظريات حول ملكة اللغة عند العلماء العرب ، مجلة اللغة والأدب ،الجزائر العدد :5 ،1994م،ص :154.

(12).ميشال، زكريا، قضايا ألسنية تطبيقية ـ دراسات لغوية اجتماعية نفسية مع مقارنة تراثية ، يناير 1993م ، دار العلم للملايين ، الطبعة الأولى ص :112 .

(13)بن زروق ،حسين،نظريات حول ملكة اللغة عند العلماء العرب ، مجلة اللغة والأدب ،الجزائر العدد :5 ،1994م،ص :154.

(14) ابن خَلدون ،المقدمة، ص: 765

(15) نفسه، ص: 754

(16) نفسه ، ص :770

(17) نفسه، ص:771

(18)نفسه ، ص:796



صَنْعَةُ اللُّغَةِ في المَقَالِ العِلْمِيِّ

قِـرَاءَةٌ فــي أدبيّـةِ المقالِ

عندَ الدّكتور أحمد زكي



جــواد عــامر
باحــث

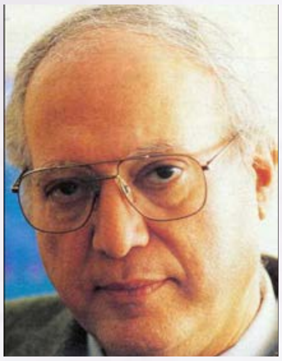
قاربتِ المناهجُ النّقديّةُ النّصَّ من زوايَا مختلفةٍ سواءٌ من خارجِه كالمنهجِ التّاريخيِّ والنّفسيِّ والاجتماعيِّ أو منَ الدّاخلِ كالبِنيويّةِ والأُسلوبيّةِ واللّسانيّاتِ النّصّيةِ، غيرَ أنَّ فكرةَ المركزِ والبِنيةِ والشّكلِ بدأت تتحطّمُ مع التّفكيكيّةِ والسّيميولوجيا والبِنيويّةِ التّكوينيّة، فخضعَ النّصُّ لسُلطةِ المنهجِ بما يحتويه من أدواتٍ وآلياتٍ إجرائيّةٍ فاختلفتِ التّناوُلاتُ بين النّقّادِ تبعًا لصنْفِ المنهجِ الذي يتشكّلُ وَفقَ الرّؤيةِ التي ينطلقُ منها النّاقدُ وهي رؤيةٌ، ولابُدَّ أنَّ النّصَّ بطبيعتِه يظلُّ موجّهًا لها، والملاحظُ أنَّ النّقدَ اعتنَى بنصوصٍ من شتّى الأجناسِ تراوحتْ بين الرّوايةِ والمسرحِ والقصّةِ والشّعرِ والخَطابةِ والمقالةِ وصنوفِ المَحكيّاتِ، لكنَّ الأمرَ الذي لفتَ انتباهِي وأنا أطالعُ العديدَ من مُقارباتِ النّصوصِ هو عدمُ اعتناءِ الدّرسِ النّقديِّ بجنسٍ ظَلَّ على الهامشِ وهو جنسُ المقالِ العلميِّ الذي صرفَ عنه الدّارسون أنظارَهم بسببِ اعتنائِه بالمادّةِ العلميّةِ التي يظهرُ أنّها تنأَى عنِ الأدبِ وما يحتوِيه من جمالٍ وأناقةٍ وحُسنِ صَنعةٍ.

ما يجعلُه في نظرهم جنسًا موسومًا بالتّخصّص يخاطِبُ فيه أهلُ العلم من ذوِي الاختصاصاتِ قُرّاءَهم بلُغةٍ ومُعجم وأسلوبٍ شديدِ التّبسيط يُفقدُه الأدبيّةَ وجمالياتِ الصّنعةِ التي تحتفِي بها نصوصٌ روائيّةٌ ومسرحيّةٌ وقَصصيّةٌ ومقالاتٌ تأمّليةٌ وفلسفيّةٌ واجتماعيّةٌ ونصوصٌ حِكائيّةٌ كالخُرافة والأُسطورةِ أو قصائدُ الشّعر على اختلاف أبنيتِها وأبوابِها.





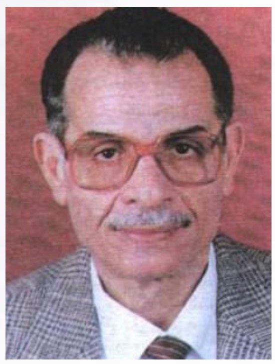
إمبرتو إيكو



نبيل علي



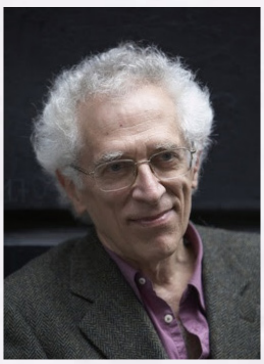
دريدا



نجيب الكيلاني



أيان ويلموت



تودروف

إنَّ رؤيـةَ الدّارسين إلى المقالِ العلميِّ تتّسمُ بمحدوديتِها وضِيقِ الأفق النّقديِّ الذي انحصرَ في دوائرِ نصوصٍ شكّلت مرتعًا خصبًا للنّظريّةِ الأدبيّةِ بدءًا بشكلانيّةِ الرّوس وتأسُّسِها بمورفولوجيّةِ الخُرافة لفلاديمير بروب سنة 1928 حين أفسحَ المجالَ لدراسةِ النّصِّ الخُرافيِّ الحِكائيِّ دراسةً أدبيّةً تقتحمُ البناءَ الدّاخليَّ ومرورًا بشِعريّةِ دوستويفسكي مع ميخائيل باختين، وصولاً إلى بِنيويّةِ بارث وتودروف وجنيت وتفكيكيّةِ دريدا وسيميائيّةِ بيريس، ما كَوَّنَ نوعًا منَ التّسْييج النّظريِّ للنّصّ جعلَ التّفكيرَ النّقديَّ ينحصرُ داخلَ دائـرةِ الأدبيّةِ، وما كان خارجَها نالَهُ حظٌّ منَ التّهميشِ والإقصاءِ وهو ما حصلَ للمقالِ العلميِّ الذي ظلَّ خارجَ أسوارِ النّقدِ ظنًّا أنّه نصٌّ يفتقرُ إلى شِعريّةِ اللّغةِ وحُسنِ البيانِ وبداعةِ الصّنعةِ وفخامةِ التّعبيرِ وأناقةِ الأسلوبِ؛ لأنّه نصٌّ غايتُه نقلُ المعرفةِ العلميّةِ في الكيمياءِ والطبِّ والنّباتِ والجيولوجيا وغيرِها منَ الفروعِ المعرفيّةِ الدّقيقة، وقد نسيَ النّاقدُ العربيُّ أنَّ كثيرًا من علماءِ الأمّةِ جمعُوا بين العلمِ والأدبِ وانصهرَ الإبداعُ بالموازاةِ مع إنتاجِ العبقريّةِ العلميّةِ أو داخلَ بَوتقتِها، فابنُ سينا كان الطّبيبَ والمؤرّخَ واللّغويَّ والشّاعرَ وقصيدتُه عنِ النّفس دليلٌ على أنَّ التّخصّص في مجالٍ علميٍّ دقيقٍ لا يمنعُ صاحبَه أن يكونَ أديبًا وشاعرًا ومؤرّخًا وفيلسوفًا، وقِسْ على ذلك ما شئتَ من علماءِ العربِ المسلمين، ولنا في التّاريخ الحديثِ أعلامٌ زاوجتْ بحِرْفيّةٍ عاليةٍ بين تخصُّصِها العلميِّ والأدبِ وبرعتْ في هذا المجال كلَّ البراعةِ، بل وأتتْ فيه منَ العَجب العُجابِ ما يعجزُ عنه فطاحلةُ الأدبِ وجهابذتُه، فنجيب الكيلاني الطّبيبُ المصريُّ كان من أعظمِ الرّوائيّين العربِ، ولا أدلَّ على ذلك من غزارة إنتاجِه الرّوائيِّ وتحوُّلِ عددٍ منها إلى أفلامٍ سينمائيّةٍ ومسلسلاتٍ إذاعيّةٍ حسْبي أن أذكرَ منها: «ليلٌ وقُضبان»و «اليومُ الموعودُ»، والدّكتور نبيلُ عليّ مهندسُ الطّيران ورائدُ البرمجياتِ ألّفَ في مجاله العلميِّ كُتبًا مهمّةً بلُغةٍ عربيّةٍ دلّتْ على ضلاعتِه وتمكُّنِه الحقِّ منَ اللّغة أذكرُ منها "الفجوةُ الرّقميةُ رؤيةٌ عربيّةٌ لمجتمع المعرفةِ مع د. نادية حجازي و«العقلُ العربيُّ ومجتمعُ المعرفةِ: مظاهرُ الأزمةِ واقتراحاتٌ بالحلولِ، في جزأين».

صحيحٌ أنَّ كثيرًا من كُتّابِ المقالِ العلميِّ استعملُوا اللّغةَ في بُعدِها التّبليغيِّ والإفهاميِّ لا لأنّهم كانوا مُهتمّين بجانبِ الفكرةِ ويَتغيّون الإقناعَ، وإنّما لعدم تمكُّنِهم منَ الصّنعةِ بحُكمِ طبيعتِهم المعرفيّةِ التي حتّمتْ عليهم دراسةَ مجالِهم بلُغةٍ أجنبيّةٍ، ما جعلَ اللّغةَ التي كُتب بها المقالُ لا ترتقِي في سُلّمِ الأدبيّةِ التي تتصنّعُ الجمالَ وتمنحُ الأنساقَ التّعبيريّةَ رونقًا جذّابًا يحقّقُ بلاغةً إمتاعيّةً وإقناعيّةً في الآن نفسِه ما يُرغمُ القارئَ على الحفْرِ أكثرَ في طبقاتِ اللُّغةِ من أجلِ كشْفِ المعاني الثّاويةِ والدّلالاتِ المخبوءةِ في أبنيةِ الحقلِ العلميِّ، خاصّةً وأنَّ القارئَ

العربيَّ تدرّبتْ حواسُّه عبرَ مُراكماتٍ قِرائيّةٍ على التقاطِ مواضعِ الأدبيّةِ في النّصِّ وتغذّت ذائقتُه برونقِ الأسلوبِ الماتعِ عبرَ عصورِ الأدبِ، لذا فكاتبُ المقالِ العلميِّ ينحدرُ بلُغتِه نحوَ الإسفافِ المُملِّ ما يجعلُ التّلقّي فاقدًا للمُتعة بسببِ تقديمِها له في شاكلةِ بطاقاتٍ علميّةٍ بلُغةٍ إعلاميّةٍ تُضاهي لُغةَ الخبرِ المتراوحِ بين الفصيحِ والعاميِّ، ما يجعلُ تلقّيَه مقبولاً ومفهومًا دون إدراكٍ لشبكاتِ الأنحاءِ وما يعتملُ في باطنِها من علائقَ لِسانيّةٍ.

صحيحٌ أنَّ المتلقّيَ العربيَّ يبحثُ عنِ المعلومةِ في المقالِ العلميِّ ويرمِي إلى فهْمِ الظّاهرةِ في حقلِها الدّقيقِ بشكلٍ مبسّطٍ دونَ تغلغلٍ إلى التّفاصيلِ العلميّةِ والجُزئياتِ الدّقيقةِ التي تعتملُ داخلَ عالَمِ المختبراتِ وتُشكّلُ مُعجميّةَ التّخصّصِ العلميِّ الذي يظلُّ حِكرًا على أصحابِه، لكنّه في الآنِ نفسِه يبحثُ عن جمالِ اللُّغةِ وصَنعةِ صاحبِها في أثناءِ تقديمِ المعلومةِ، إنّه قارئٌ لا يهتمُّ بالجوابِ عن سؤالِ ماذا يقولُ النّصُّ؟، لكنّه يهتمُّ كذلك بالجوابِ عن سؤالِ كيف يقولُ النّصُّ؟، ولتمريرِ هذه البساطةِ المتوخّاةِ والـمُضنيةِ للكاتبِ الذي لا يُبخسُ حقُّه في عمليةِ تذويبِ الحقلِ العلميِّ وإعادةِ تركيبِه في متنٍ لُغويٍّ مبسّطٍ عبرَ نقْلِه من دقّتِه الاصطلاحيّةِ والقفزِ على مُصطلحاتٍ وأجهزةٍ مفاهيميّةٍ تبدو شديدةَ التّعقيدِ على القارئِ غيرِ الخبيرِ بالمجالِ، فإنَّ كثيرًا من كُتّابِ المقالِ العلميِّ يمارسون نوعًا منَ الاحتقارِ المعرفيِّ للقارئِ العربيِّ – وهي ممارسةٌ لا شُعوريّةٌ – حين يُقدّمون المادّةَ العلميّةَ تقديـمًا غايةً في التّبسيطِ المُسفِّ الذي يُخرجُ النّصَّ من دائرةِ الجمالِ اللّغويِّ الذي يحيا داخلَ النّصوصِ النّابضةِ ذاتِ الإيقاعاتِ المتغيّرةِ والأرديَـةِ المتلوّنةِ، لذا يظلُّ المقالُ العلميُّ عند غالبِ الكُتّاب موسومًا بجفافِه التّعبيريِّ وبُخلِه الأسلوبيِّ وافتقارِه البيانيِّ ووهَنِ صَنْعته التي تنمُّ عن عدمِ حِرْفيّةِ صاحبِها في جانبِ اللّغةِ التي تظلُّ بالنّسبة إليه مجرّدَ قناةِ عبورٍ يُـمَرُّ عبْرَها لتأديةِ المقصدِ التّبليغيِّ، يقول الدكتور فليب عطية: «والخطيرُ في الإيدز أنّه يصيبُ على الأخصِّ النّساءَ والرّجالَ الذين تتراوحُ أعمارُهم ما بين عشرين سنة وتسع وأربعين سنة، علمًا أنَّ هذه الفئةَ هي عمادُ القوّةِ الإنتاجيّةِ لأيِّ مجتمعٍ، وينتقلُ المرضُ بطريقتين:

1– الاتّصالُ الجنسيُّ بالمصابِ أو حاملِ الفيروس.

2 – وصولُ الفَيروس إلى الدّم بطريقةٍ أو بأُخرى مثلَ نقْلِ الدّمِ الملوّثِ أوِ استعمالِ حُقَنٍ ملوّثةٍ بالفَيروس وضحايا الطّريقةِ الأخيرةِ منَ المخدّراتِ بواسطة الحقْنِ الوريديِّ

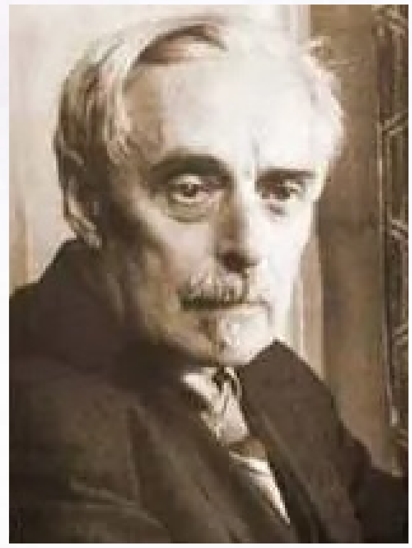


أمين نخلة



ميخائيل باختين

إنَّ رؤيـةَ الـدّارسـين إلى الـمـقـالِ الـعـلـميِّ تـتّـسمُ بمحدوديتِها وضِيقِ الأفقِ النّـقديِّ الـذي انحصرَ في دوائـرِ نصوص شكّلت مرتعًا خصبًا للنّظريّةِ الأدبيّةِ بدءًا بشكلانيّةِ الـرّوس وتأسُّسِها بـمورفولـوجيّـةِ الـخُـرافة لفلاديمير بروب سنة 1928 حين أفسحَ المجالَ لدراسةِ النّصِّ الخُرافيِّ الحِكائيِّ.



فلاديمير بروب



دوستويفسكي

..»(1)، بل نجدُ الكثيرَ منَ النّصوصِ المُفتقرةِ إلى المادّةِ العلميّةِ نفسِها بسببِ تَفقيرِ الكاتبِ للنّصّ وإقصاءِ المعلومةِ العلميّةِ وتهميشِ المصطلحِ العلميِّ بسببِ إيمانِ الكاتبِ بغيابِ المعرفةِ العلميّةِ عنِ القارئِ العربيِّ مادام أنّه قارئٌ بسيطٌ غيرُ متخصّصٍ - فهو في نظرِه - لا يحتاجُ إلى تفصيلاتٍ ولا إدراجٍ لأجهزةٍ مفاهيميّةٍ دقيقةٍ تمنحُ النّصَّ صبغتَه العلميّةَ الصِّرفةَ ما يجرُّه إلى المباشريّةِ في الخطابِ والتّقريريّةِ المملّةِ التي تجعلُ النّصّ المقالي يتحوّلُ إلى بطاقاتٍ إعلاميّةٍ شبيهةٍ بكلامِ مذيعٍ تلفزيٍّ ينقلُ أخبارًا لعامّةِ النّاس، في حينِ أنَّ القارئَ العربيَّ خريجُ مراحلَ تعليميّةٍ متعدّدةٍ، تلقّى عبْرَها معارفَ علميّةً في شتّى الحقولِ (فيزياء، كيمياء، بيولوجيا، جيولوجيا، هندسة، جبر، إعلاميات)، فهذه معارفُ علميّةٌ تلقّاها القارئُ على امتدادِ الزّمنِ التّعليميِّ في المدرسةِ بمختلفِ أسلاكِها ولابدَّ أنّه راكمَ مع مرورِ السّنوات وخارجَ أسوارِها في وسائلِ الإعلامِ السّمعيِّ والبصريِّ الآن معارفَ أكبرَ جعلتْ منه ذلك القارئَ الموسوعيَّ والنّموذجيَّ الذي تكلّمَ عنه

”

حينَ نتصفّحُ موسوعةَ «في سبيلِ موسوعةٍ علميّةٍ» للدّكتور أحمد زكي، فإنَّ هذه الرّؤيةَ تتلاشَى في سماءِ المقالاتِ العلميّةِ في عالَمنا العربيّ، لنقفَ ذاهلِين أمامَ قلمِ عالِم الكيمياءِ خرّيجِ الجامعةِ البريطانيّةِ والحاصلِ على دكتوراة الدّولة في علمِ الكيمياء.

إمبرتو إيكو كشرطٍ أساسيٍّ لتحقيقِ القراءةِ التّفاعليّةِ، يقول الدّكتور أحمد عبد الدايم: «لقدِ استطاع العالمُ الأسكتلنديُّ أيّان ويلموت أن يُولِّدَ للعالم نعجةً أسماها دوللي يعني الدّميةَ ليس عن طريق التّكاثرِ الطّبيعي الذي يتمُّ بين الكائنات جنسيًّا، بل عن طريق التّكاثرِ اللّاتزاوُجيّ»(2)، فحديثُ الكاتبِ عنِ الاستنساخ هنا خالٍ تمامًا من أيِّ استخدامٍ للاصطلاحِ العلميِّ المستمدِّ من حقلِ البِيُولوجيا كالبُوَيضةِ والخليةِ والسّيتوبلازم والجيناتِ أوِ الكروموزمات وما شابه هذه المفرداتِ التي تخزّنت في ذاكرةِ القارئِ العربيِّ، بل أكثرُ من هذا نجدُ محاولاتِ التّمثيلِ والتّقريبِ تنحدرُ إلى مُستوياتٍ منَ الإسفافِ المحتقِرِ للقارئِ حين نجدُ أحمدَ عبدالدايم يقرّبُ صورةَ الاستنساخِ عبْرَ تشبيهٍ بعملِ المزارعِ فيقول: «ما حصلَ لو اختصرَ بكلمةٍ، لا يخرجُ عن عملِ أيِّ فلّاحٍ في الحقل، يأخذُ غصنًا من شجرةٍ فيزرعُه فتخرجُ شجرةٌ مثلَ أمّها»(3)

لكنْ حينَ نتصفّحُ موسوعةَ «في سبيلِ موسوعةٍ علميّةٍ» للدّكتور أحمد زكي، فإنَّ هذه الرّؤيةَ تتلاشَى في سماءِ المقالاتِ العلميّةِ في عالَمنا العربيّ، لنقفَ ذاهلِين أمامَ قلمِ عالِمِ الكيمياءِ خرّيجِ الجامعةِ البريطانيّةِ والحاصلِ على دكتوراة الدّولة في علْمِ الكيمياء، العالم المصريِّ الكبيرِ أحمد زكي، لنجدَ أنفُسَنا أمام أديبٍ متمرّسٍ، ضليعٍ، دانت له العربيّةُ كما دانتْ لكبارِ أُدباءِ عصرِه، فلا تكادُ تقرأُ له مقالاً في مجالٍ علميٍّ منَ المجالات التي

طرقَ كلَّ أبوابِها، فقدّمَ المادّةَ على أتمِّ ما يكونُ التّقديمُ مبسّطةً سلسةً متينةَ اللّغةِ والبناءِ، مكسوّةً برونقٍ من أسلوبٍ بهيٍّ جميلٍ يدلُّ على تصنُّعِ صاحبِها للأنساقِ التّعبيريّةِ في الوقتِ الذي يمرّرُ الفكرةَ العلميّةَ فيقدِّمُها على طبقٍ ماتعٍ مُستلذِّ المذاقةِ، يمزجُ فيها بين الحقيقةِ والمجازِ ويلفُّها بأثوابِ الاستعاراتِ والتّشبيهاتِ ليقرّبَ الصّورةَ كلَّ التّقريب ويُدْنيَها منَ الأفهامِ كلَّ الإدْناءِ، فجاءت مقالاتُه في موسوعتِه رغمَ مجاوزتِها ستمائةِ صفحةٍ أنيقةً، ممتعةً، لا يكلُّ منها القارئُ ولا يملُّ، بل تجدُه يعيدُ القراءةَ كلّما استوقفتْه العبارةُ الجميلةُ وشدّهُ الأسلوبُ المحكمُ.

إنّ «في سبيلِ موسوعةٍ علميّةٍ» نموذجٌ فريدٌ في عالَمِ المقالِ العلميِّ، لا أظنُّه يتكرّرُ في المُنتجِ الثّقافيِّ العربيِّ الحديثِ لطُولِ نفَسِه وغزارةِ متْنِه وجماليّةِ أنساقِه التّعبيريّة، إذِ اجتمعتْ فيه بلاغتَا الإقناعِ والإمتاعِ معًا وانصهرتَا في بَوتقةٍ واحدةٍ جعلتْ منه كتابًا فريدًا لا يُضاهَى في مجال نقلِ المعرفةِ العلميّةِ إلى القارئِ العربيِّ، فقد ضمَّ في متْنِه شتّى صنوفِ العلومِ الطّبيعيّةِ والفيزيائيّةِ والكيميائيّةِ والطبيّةِ وعلمِ النّبات وعلْمِ الأجنة وعلْمِ البحار وعلمِ الفلَك وغيرِها منَ الفروع، وقدّمها للقارئِ في هيئةِ مقالاتٍ منظّمةٍ مرفوقةٍ برسوماتٍ إيضاحيّةٍ، ينتظمُها أربعةَ عشر بابًا ضمّ مختلفَ المعارفِ العلميّةِ الدّقيقةِ التي قدّمها الدّكتور أحمد زكي للقارئِ العربيِّ في غايةِ البساطةِ الملفوفةِ بالأناقةِ التّعبيريّةِ



عناوين مقالات أحمد زكي عاكف على مجلة العربي في شهر مرضه ووفاته وبعدها

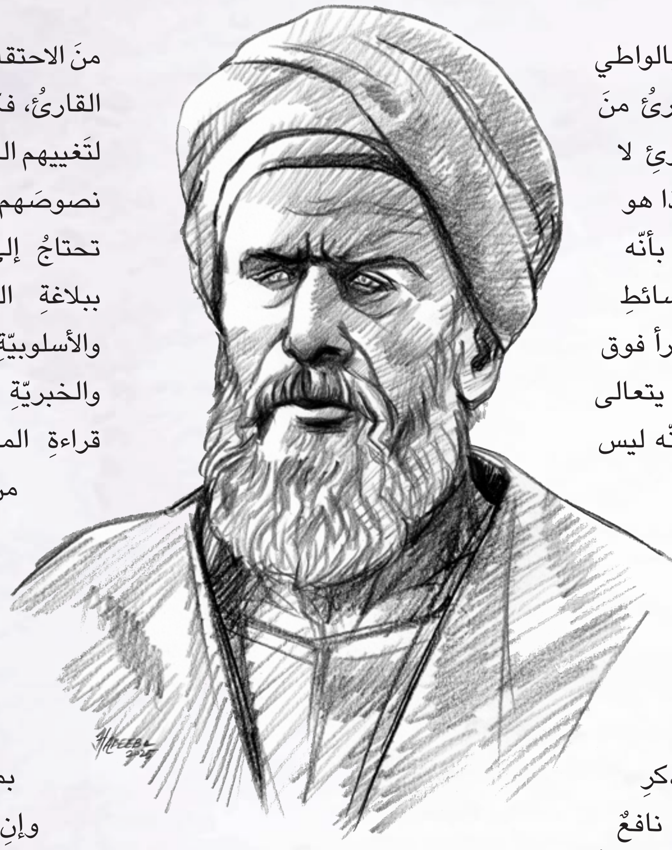
حقوق الصورة محفوظة لموقع الميزان

التي يستشعرُ معها القارئُ أنّه لا يقرأُ في الحقيقة لعالم وإنّما لأديبٍ ضليعٍ متمكّنٍ منَ العربيّةِ وعارفٍ ببلاغاتِها وأنساقِها الجماليّةِ التي دلّت على أنّ كاتبَ الموسوعةِ لم يكنْ يدورُ في خَلَدِه إيصالُ المعلومةِ العلميّةِ فحسبُ، وإنّما كان تفكيرُه مُنصبًّا على كيفيةِ الإيصالِ؛ لأنَّ الوعيَ بالمتلقّي كان قويَّ الحُضورِ في فكْرِ «زكي» وهو يكتبُ مقالاتِه، ولعلَّ هذا الطّرحَ الذي تبلوَرَ لديَّ عند قراءةِ مقالاتِه متفرّقةً في مجلّة العربيِّ قبل أن أطَّلعَ على الموسوعةِ سيتأكّدُ حتمًا حينمَا وجدتُه يعلنُ في مقدّمةِ موسوعتِه قائلًا:«من أجلِ هذا يجدُ كاتبُ العلْمِ صعوبةً عندما يكتبُ للجمهور؛ فالجمهورُ يتألّفُ من أفرادٍ درسوا شيئًا منَ العلم، ولكنِ اختلفت طبقاتُ العلمِ، في عمارة العلمِ، وصلُوا إليها؛ والكاتبُ للجمهورِ لا يستطيعُ

> **إنّ «في سبيلِ موسوعةٍ علميّةٍ» نموذجُ فريدٌ في عالَم المقالِ العلميِّ، لا أظنُّه يتكرّرُ في المُنتجِ الثّقافيِّ العربيِّ الحديثِ لطُولِ نفَسِه وغزارةِ متْنِه وجماليّةِ أنساقِه التّعبيريّة.**

أن يتحدّثَ في موضوع هو في أوسطِ الطّبقاتِ ثمّ يمهّدَ له بأن يبدأَ بعرضٍ لمبادئَ سبقتْ بها الطّبقاتُ السّفلَى وأقصَى ما يستطيعُه كاتبُ العلمِ للجمهورِ أن يفرضَ في قُرّائه علمًا

متوسّطًا لا هو بالعالي ولا هو بالواطي الذي عنده لا يكادُ يعرفُ القارئُ منَ العلم شيئًا. والقارئُ كلُّ القارئ لا بدَّ أن يذكرَ ذلك عندما يقرأُ فإذا هو قرأَ دون مُستواه فلايرَى الكاتبَ بأنّه يتسفّلُ ويتبذّلُ ويكتبُ في البسائطِ المعروفةِ المشهورةِ وإذا هو قرأ فوق مُستواه فلايرمِي الكاتبَ بأنّه يتعالى ويتعاظمُ ثمّ ليذكرْ كلُّ قارئٍ أنّه ليس منَ المفروضِ أن يخرجَ كلُّ قارئٍ بتحصيلِ معاني كلِّ ما قرأ تحصيلاً كاملاً شاملاً، فما هذا حتّى في قاعاتِ الجامعاتِ، وَ قاعاتِ المحاضراتِ، للمتخصّصين منَ الطُّلابِ بالأمرِ الواقعِ، ولْيذكرِ القارئُ أنَّ بعضَ التّحصيل نافعٌ إذا فاتَه التّحصيلُ كلُّه، وأنَّ هذه سُنّةُ الحياة»(4)، ومن هذا المنظورِ الواعِي بالتّلقّي انبثقَ وعيُ أحمدَ زكي باللّغةِ التي يكتبُ بها المقالَ عادًّا الانحدارَ إلى البساطةِ أمرًا منَ التّعقيد بما كان؛ لأنَّ كاتبَ المقالِ العلميِّ مضطرٌّ إلى تذويبِ المعرفةِ العلميّةِ المتخصّصةِ في أبنيةٍ لُغويّةٍ بسيطةٍ تقتربُ من أذهانِ القُرّاء على اختلافِ مشاربِهم الثّقافيّةِ ومُستوياتِهم الفكريّةِ، فأنماطُ القُرّاء حضرتْ في ذهنِ أحمد زكي قبل الشُّروعِ في إنجاز موسوعتِه، عادًّا إيّاهم صنفًا منَ الجمهور بغضِّ النّظرِ عن تخصُّصِ القارئِ فقال: «ونتحدّثُ عنِ الجمهور، وقد يقعُ في روعِ السّامعِ أنّنا نعني كلَّ قارئٍ وقفتْ به الثّقافةُ عند حدٍّ محدودٍ وإذن يقعُ السّامعُ في هذا الفهم في خطأٍ كبيرٍ ذلك أنَّ منَ القُرّاء من قد يكونُ ذا علمٍ كبيرٍ ولكنْ



أبو العلاء المعرّي

في ناحيةٍ من نواحي العلم واحدةٍ وهو في الكثيرِ من غيرِ هذه النّاحية ذو علْمٍ قليلٍ؛ فهو إذ يقرأُ في هذا الكثيرِ يعدُّ بعضَ الجماهير الطّبيبَ الكبيرَ الذي يقرأُ في علم الأرض وهو يقرأُ في هذا العلم جمهورٌ على الرّغم منِ اختصاصِه في الطبّ، ورجلَ الدّين الفقيهَ الكبيرَ الذي يقرأ في علمِ الطبِّ وهو يقرأُ في هذا العلم جمهورٌ على الرّغم منِ اختصاصِه في الفقه واللّاهوتِ وهلُمَّ جرًّا»(5).

لقدِ استطاعَ أحمدُ زكي أن يجسّدَ في موسوعتِه درجاتِ الوعْيِ في الكتابةِ التي خَفيت على كثيرٍ من كُتّاب المقالِ العلميِّ الذين يَكتبُون بنوعٍ منَ البساطةِ الرّتيبةِ الفاقدةِ للجمالِ اللُّغويِّ في نوعٍ منَ الاحتقارِ للّغة وللمعرفةِ التي يمتلكُها القارئُ، فكان التّلقّي بعيدًا عن أذهانِهم لتَغييهم الفكرةَ العلميّةَ فحسبُ، ما جعلَ نصوصَهم تتميّزُ بغيابِ الأدبيّةِ التي تحتاجُ إلى صَنعةِ المتصنِّع ومعرفةٍ ببلاغةِ العربيّةِ وأنساقِها التّعبيريّةِ والأسلوبيّةِ بعيدًا عنِ التّقريريّةِ والخبريّةِ التي تجعلُ القارئَ ينفرُ من قراءةِ المقالِ الذي يُسْتَفْرَغُ مُحتواه منَ المعرفةِ العلميّةِ والاكتفاءِ بالهوامشِ ما يُفقدُ النّصَّ المقالَ قيمتَه العلميّةَ والأدبيّةَ معًا، غيرَ أنَّ اطّلاعِـــيَ المبكّرَ على مقالات أحمد زكي مقارنةً بما كُتب من موسوعاتٍ حديثةٍ وإنِ اتّسمت بجماليةِ الإخراجِ مثلَ (الأطاليس) لسائر بصمه جي وعماد الدين أفندي، أو تلك المقالاتِ المتفرّقةِ في مجلّات عربيّةٍ كالعربيّ أو ما كُتب في عالم المعرفةِ من أعدادٍ خُصّصت للمادّةِ العلميّةِ مثلِ (الفقرُ ومُشكلاتُ دولِ العالم الثّالث) لفليب عطيّة الطّبيبِ المصريِّ الكبيرِ المتخصّصِ في طبِّ المناطق الحارّة، أو في المجلّة العلميّةِ للفِتيان فإنّها تظلُّ بعيدةَ الشّأن عن مقالاتِ عالم الكيمياءِ الدكتور أحمد زكي لا من حيث التّنوّعُ الموضوعاتيُّ فحسبُ وإنّما من حيث طريقةُ تقديم المادّةِ مُفصّلةً مشروحةً متدرّجةً تحسُّ أنّ كاتبَها يفكّرُ في قارئه في كلِّ لحظةٍ من لحظاتِ الكتابة، فكأنّه يُوقفُه في كلِّ فقرةٍ لينظرَ هلِ استوعبَ قارئُه المقصدَ من كلامه وإلّا غيّرَ النّسقَ وتفنّنَ في إعادةِ الأبنيةِ لتكونَ مطواعةً في الفكرِ ليّنةً في الخاطرِ، دون أن يَسهُوَ لحظةً

في تصنُّعِ الجمالِ التّعبيريِّ وإلباسِ لُغتِه ما جادت به قريحتُه من أرديةِ البلاغةِ والبيانِ الجميلِ في معانقةٍ بديعةٍ بين العلمِ والأدبِ.ومـا وجدتُ كاتبًا في عالَمنا العربيِّ نجحَ فيها كلَّ النّجاحِ كدُكتورنا «أحمد زكي» على امتدادِ كلِّ الموسوعةِ .

ولستُ أعنِي بهذا الكلام نفْيَ الجدّةِ الأدبيّةِ عن نماذجَ منَ المقالاتِ امتلكَ فيها أصحابُها ناصيةَ اللّغةِ ودانتْ لهم فيها البلاغةُ وانْقادَ البيانُ، غيرَ أنّها لم تكنْ لِتستغرقَ كلَّ ما كتبُوا فوقفتْ بلاغتُهم عند حدودٍ رُسمتْ لها لم تستطعْ تخطِّيَها، فالدّكتور نبيل عليّ منَ العبقرياتِ العربيّةِ في مجالِ المعلومياتِ، نجدُه في سلسلةِ عالمِ المعرفةِ تحت عنوان: الثّقافةُ العربيّةُ وعصرُ المعلوماتِ «غايةً في الاعتناءِ بالصَّنعةِ اللّغويّةِ التي أظهرتْ ضلاعتَه بالعربيّةِ وتمكُّنَه الحقَّ من أساليبِها وبنياتِها وهو منَ الأمرِ النّادرِ الذي قد يصادفُه قارئُ المقالِ العلميِّ ما يجعلُه أمامَ قُطبين يتكاملان معًا: قطبٍ فَنِّيٍّ جماليٍّ تصنعُه اللّغةُ، وقطبٍ معرفيٍّ تصنعُه المعرفةُ العلميّةُ، يقول نبيل علي: «وفنُّ التّشكيلِ الذي ظلَّ يزهُو بانتصارِه على الكاميرَا، تاركًا لها مهمّةَ تسجيلِ الواقعِ لِيسمُوَ هو إلى تمثّلِه وتمثيلِه وإعادةِ صياغتِه، ها هو التّشكيلُ ذاتُه ينتظرُ حائرًا في ترقُّبٍ لا يدرِي ماذا ستفعلُ به تكنولوجيا المعلوماتِ التي دانت لها الخطوطُ والألوانُ والأشكالُ والصُّورُ والأبعادُ بصورةٍ غيرِ مسبوقةٍ وينتفضُ الأدبُ هو الآخـرُ لا يدرِي ماذا يفعلُ بعدَ أن خلّصتْه تكنولوجيا المعلوماتِ من خَطيئةِ السّردِ الذي فرضتْه عليه تكنولوجيا الطّباعةِ»(6)، فيظهرُ هذا التّأنّقُ الأسلوبيُّ الدّالُّ على تمكُّنِ الكاتبِ منَ العربيّةِ تمكُّنَ الأديبِ المتمرّسِ حتى إنَّ القارئَ لا يَستشعرُ أنّه يقرأُ مقالاً علميًّا يقاربُ فيه صاحبُه مآلاتِ الفنونِ الجميلةِ في ظلِّ هيمنةِ الرّقمياتِ، وهو يلتقطُ هذه الاستعاراتِ الجميلةَ.



وقد كانت «في سبيلِ موسوعةٍ علميّةٍ» سبّاقةً إلى هذه الصّنعةِ بحِرَفيّةٍ أكبرَ وأعلى على امتدادِ الأبوابِ كلِّها، فلم يخلُ واحدٌ منها من صَنعةٍ ظاهرةٍ للعيانِ يجدُ فيها القارئُ العربيُّ مُتعةَ النّصِّ ولذّتَه بلُغةِ «رولان بارث» ما يدفعُه بشغفٍ إلى متابعةِ المقالاتِ واحدةً تلو الأخرى، ولنؤكّدَ أنَّ الدكتور أحمد زكي وإن كان يميلُ في لغتِه إلى ممارسةِ التّوسّطِ بين اللّغةِ المتعاليةِ التي كان يملكُ ناصيتَها واللّغةِ المتدنّيةِ التي كان يأنفُ منها فجعلَ أنساقَه التّعبيريّةَ متراوحةً بينهما باعتدالٍ واتّزانٍ وجّهَه على امتدادِ الكتابةِ، بل وجدْناه يعمدُ إلى إطلاقاتٍ مُعجميّةٍ رائجةِ التّداوُلِ في الوسَطِ الاجتماعيِّ تقريبًا للصّورةِ وإحقاقًا للفهمِ والاستيعابِ فنجدُه يقول: «الكاتبُ للجمهور قد يعزفُ عنِ استعمالِ اصطلاحاتِ العلم إلى لُغة النّاس كما فعلْنا في الحديثِ عن أذنابِ الحيواناتِ في مواضيعِ هذا الكتاب الحاضرِ وذكرنا منَ الأذنابِ ذنَبَ العقربِ فجاءتنا خطاباتٌ تقولُ: ما هو بذنبٍ، وإنّما هو أو فيه بطنُ العقربِ، وأجبْنا

المعترضِين على التّوّ بأنَّ هذا الطّرفَ من بناءِ العقربِ سواءٌ كان فيه البطنُ أوِ المعدةُ أوِ الأمعاءُ أو حتى القلبُ فهذا لا يمنعُ من أن تصفَه في لُغة النّاس بأنّه الذَّنَب، وأنّه يحملُ في نهايته الجهازَ السّامَّ الذي يضربُ به أعداءَه ويحمِي به نفسَه. فالذَّنَبُ في اللّغة هو ما جاء في آخرِ بناءِ الجسم وطالَ حتى ولو كان من ريشٍ وهذا لا يتنافى وأنّ الذّنَبَ في العلم قد يكونُ اصطلاحًا امتدادًا للسّلسلةِ الفقريّةِ في الحيواناتِ ذواتِ الفَقار، ثمّ زدنا هؤلاء المعترضِين اقتناعًا بأن جئنَا لهم بمقتطفاتٍ منَ الكُتبِ العلميّةِ الأجنبيّةِ ومنَ الموسوعةِ البريطانيّةِ تصفُ ذنَبَ العقربِ بأنّه الذّنَبُ»(7)؛ إنَّ كلامًا كهذا ينمُّ حقيقةً عن وعيٍ وإدراكٍ عميقَين للمُعجميّةِ العربيّةِ ودلالتِها في سياقاتِها التّركيبيّةِ ووظائفِها التّداوليّةِ ممّا خفيَ على مُعارِضيه وهو ما يُزكّي طرْحَنا السّابقَ في استحضارِه اللّحظيِّ للمتلقّي العربيّ حَيْثُ جعلَ القُطبَ الجماليَّ جُزءًا من موسوعتِه العلميّةِ وهو ما وهبَها قيمتَها المضافةَ التي تعالتْ بها عن كثيرٍ منَ الموسوعات، وإلى جانبِ هذا اللّونِ منَ الاستعمالِ المُعجميِّ المتداوَلِ في الوسَطِ الاجتماعيِّ نجدُ الدّكتور أحمد زكي يُكثرُ منَ التّمثيلاتِ والتّشبيهاتِ تقريبًا لأفهامِ الجمهورِ، يقولُ في بابِ الاحتكاكِ: «مثالُ ذلك كرسيٌّ تجرُّه من ركنٍ إلى ركنِ حجرةٍ إلى ركنٍ آخرَ منها إنّك تفضّلُ حملَه أي ترفعُه منَ الأرض التي يحتكُّ بها لتتفادَى الاحتكاكَ»(8)، وهذا تمثيلٌ منَ الواقعِ يضربُه بالأدواتِ المعروفةِ كالكرسيّ والمكتبِ والبضائعِ والعجلاتِ التي ترفعُ العرباتِ عنِ الأرض فلا يحصلُ الاحتكاكُ المباشرُ وبالمشي نفسِه ممّا يحتاجُ إلى خشونةِ الأرض لحصولِ السّير وإلّا أُعيقَ، وبإمساكةِ القلم والممحاةِ باليدِ، وهي كلُّها أمثلةٌ واقعيّةٌ ماديّةٌ يدركُها أيُّ متلقٍّ، غيرَ أنَّ زكي ـ وهذا من جمال الموسوعة ـ يلجأُ إلى ضربِ التّمثيلِ التّخييليِّ أحيانًا ما يحملُ المتلقّيَ على تصوُّرِ المشهديّةِ وكأنّه أمامَ خيالٍ ساردٍ لا عالم، يقول أحمد زكي: «وهَبْ أنَّ الله رفعَ عنِ الأشياء خشونتَها وجلستَ أنت على مقعدٍ وثيرٍ إنّك عندئذٍ ستجدُ نفسَك في عناءٍ من حفظِ جسْمِك عليه، أو إن كان واسعًا، ففيه أنّك تنزلقُ عليه وهو ينزلقُ على الأرضِ وأنت تحاولُ إن حاولتَ أن تتمطّى عليه فلن تلبثَ أن تجدَ نفسَك على الأرض، ورُبَّـما أخذتَ تجري عليها حتى يوقفَك حائطٌ، بل أنت لا تستطيعُ أن تنال هذا المقعدَ فأنت لا تستطيعُ أن تمشيَ إليه ؛صورةٌ منَ الخيال عندَ امتناعِ الاحتكاكِ عجيبةٌ»(9)، إنّها تنويعاتٌ تمثيليّةٌ اغتنتْ بها الموسوعةُ وازدانتْ فقدّمت مادّتَها العلميّةَ بأسلوبٍ رامَ فيه الكاتبُ تقريبَ المعرفةِ العلميّةِ تارةً عبْرَ تمثيلٍ واقعيٍّ ملموسٍ وتارةً أُخرى عبْرَ حمْلِ الذّهنِ على التّخييلِ وهو ضربٌ من ضروبِ الجماليّةِ الإبداعيّةِ التي تحتفِي بها نصوصُ الإبداعِ من شِعرٍ وروايةٍ وقصّةٍ وغيرِها، هذا الجمالُ الذي يتأثّثُ في موسوعةِ زكي عبْرَ أنساقٍ تعبيريّةٍ بديعةٍ تظهرُ فيها براعةُ الكاتبِ وإلمامُه الكبيرُ بفنونِ البيانِ والبديعِ وعلْمِ المعاني إذ نجدُ التّعابيرَ في موسوعتِه لا تخلُو مِن استعاراتٍ لا تقلُّ شأنًا عن مثيلاتِها في الشّعريّةِ العربيّةِ، يقولُ أحمد

هذا الجمالُ الذي يتأثّثُ في موسوعةِ زكي عبْرَ أنساقٍ تعبيريّةٍ بديعةٍ تظهرُ فيها براعةُ الكاتبِ وإلمامُه الكبيرُ بفنونِ البيانِ والبديعِ وعلْمِ المعاني إذ نجدُ التّعابيرَ في موسوعتِه لا تخلُو مِن استعاراتٍ لا تقلُّ شأنًا عن مثيلاتِها في الشّعريّةِ العربيّةِ.

إنَّ الدكتور أحمد زكي وإن كان يميلُ في لغتِه إلى ممارسةِ التّوسّط بين اللّغة المتعاليةِ التي كان يملكُ ناصيتَها واللّغةِ المتدنّيةِ التي كان يأنفُ منها فجعلَ أنساقَه التّعبيريّةَ متراوحةً بينهما باعتدالٍ واتّزانٍ وجّهَه على امتدادِ الكتابةِ.

زكي: «وإلى جانبِ الخُضرةِ الضّاربةِ في النّبات تجدُ الزّهرَ قد خرجَ بألوانِه البديعةِ المختلفةِ تلك التي أوحتْ للإنسانِ بمعانٍ للجمالِ ظنَّ أنّها معانيه وما هي إلّا معانٍ منَ النّبات بحُكمِ العادةِ مُقتبسةٌ(10)، ومن تشبيهاتٍ مثلِ قولِه وهو يتحدّثُ عنِ الهيكلِ العَظميّ للإنسان: «والعظمُ يركبُ بعضُه بعضًا، فقرةٌ تركبُ فقرةً فيكونُ عمودًا أسميناه العمودَ الفقريَّ، لأنّه كعمودِ الخيمةِ هو الذي رفعَها ولولاه لانهارت على الأرض»(11)، وفي حديثه عنِ القلب يقولُ: «القلبُ قلبان مُتجاوران كالبيتَين بينهما حائطٌ واحدٌ ولكنْ لا تدخلُ من أحدِهما إلى الآخرِ عبْرَ هذا الحائطِ والقلبُ الواحدُ من أيّهما عبارةٌ عن خزانتَين، صغيرةٍ عُليا وكبيرةٍ سُفلى، وتسمّى الأُولى بالأُذَين لأنّها تُشبهُ الأذنَ الصّغيرةَ وتُسمّى الثّانيةُ البُطينَ كأنّها البطنُ الصّغيرُ»(12)، ومنَ البديع تتجلّى فيه صَنعةُ اللّغةِ وحرفيتُها فيظهرُ السّجعُ غيرَ ما مرّةٍ في كثيرٍ منَ التّراكيبِ كما في قوله: وقد أحدثتِ القذيفةُ الذّريّةُ في هيروشيمَا منَ الكوارثِ والخسائرِ ما تقشعرُّ له الأبـدانُ وتشيبُ لهولِه الولدانُ»(13)، ونجدُ الطّباقَ في مواضعَ كثيرةٍ منها: «ومع هذا فكلُّ الأجناسِ والأنواعِ مهما اختلفتْ شكلاً وتبايَنتْ صِغرًا وكِبرًا وتفاوتتْ حركةً وسكونًا وثبتتْ في الأرض فأسميناها نباتًا أو لاذتْ بالحركةِ فأسميناها حيوانًا كلُّ هذه الأجناسِ والأنواعِ تجمعُها في أصولِها الأُولـى جامعةٌ واحــدةٌ»(14)، ونلفِي الجناسَ كما في حديثه عنِ التهاب اللّوزتين: «إلّا أنَّ هذه الأجسامَ لابدَّ أن يكونَ بينها وبين الميكروبِ الذي تقتلُه التئامٌ والتحامٌ فهي تلتحمُ به التحامًا لتقتلَه"(15)، ومثالُ التّرادفِ قولُه في معرضِ حديثِه عنِ الجاذبيّةِ: وتقولُ بأنّك تجذبُ أخاك بأن تُمسكَه فتشدَّه إليك وليس بين الأرضِ والفنجانِ رابطةٌ تشدُّه إليها»(16).

أمّا أساليبُ الإنشاء وما تُؤدّيه من معانٍ بلاغيّةٍ وتحقّقُه من مقتضياتٍ تداوُليّةٍ فإنَّ الموسوعةَ لم تخْلُ في كلِّ بابٍ من أبوابِها من نماذجَ تتردّدُ هنا وهناك لتؤثّث فضاءَها وتمنحَها إلى جانبِ ألوانِ البيانِ والبديعِ جمالاً ما فوقه جمالٌ ، تتحرّكُ داخلَها المعرفةُ العلميّةُ المتنوّعةُ ملفوفةً بعباءةٍ من رونقٍ جميلٍ ماتعٍ يجدُ فيه القارئُ العربيُّ لذّةً ومُتعةً لا توصفُ فيكونُ القارئُ أشبهَ بنحلةٍ تتنقلُ بين أزهارٍ تمتصُّ رحائقَها دون أن تملَّ أو تكلَّ، فلم تخْلُ الموسوعةُ من تعجّبٍ واستفهامٍ وتمنٍّ وترجٍّ وغيرِها من ألوانِ الإنشاء ، بل إنّنا وجدْنا الموسوعةَ تستدعِي متونَ الشّعرِ العربيِّ القديمِ كبيتِ أبي العلاء المعرّي(17):

استطاعتِ الموسوعةُ أن تجمعَ بين بلاغتَي الإقناعِ والإمتاعِ معًا وتُقدّمَ للقارئِ العربيِّ نموذجًا فريدًا في عالَمِ الموسوعاتِ عجزتْ عنه كثيرٌ منها إلى حدودِ السّاعةِ لاكتفائِها بتقديمِ المعرفةِ العلميّةِ دون أن تشدَّ القارئَ إلى عالَمِ اللّغةِ.

زُحَلُ أشرفُ الكواكبِ دارًا ... من لقاءِ الرّدَى على مِيعادِ

وغيرِه منَ الأبياتِ التي تخلّلتِ الموسوعةَ بين الفينةِ والأخرى لغاياتٍ جماليّةٍ وإفهاميّةٍ وإمتاعيّةٍ قصدَ إليها الدّكتور أحمد زكي لإخـراجِ القارئِ العربيِّ من دائرةِ العلميّةِ إلى حقلِ الأدبيّةِ في تناغُمٍ منحَ الموسوعةَ قيمتَها الجماليّةَ إلى جانبِ قيمتِها العلميّةِ.

بل للنّظر إلى كمالِ اللّغةِ واجتماعِ البيان فيها والبديعِ والإنشاءِ في قول أحمد زكي ممّا يعجزُ عنه أحيانا أهلُ الأدبِ أنفسُهم في حديثه عن جمال قوامِ الإنسان واستوائِه انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾[الأعلى:2]: «ولكنْ كم منَ النّاس تلْقاهم على الطريق ماشِين، قد خرجُوا عن هذا الجمالِ الذي اختصّت به الطّبيعةُ، واختصّ خالقُ الخلقِ الإنسانَ كلٌّ منهم يمشي، لا يحملُ شيئًا، ولكنّه يمشي كمن حملَ على ظهره الأثقالَ ،وآخرون يمشون فكأنّما حملوا الأثقالَ عندَ بطونِهم ويقعدون فإذا برؤوسهم وأيدِيهم إلى أمامٍ فكأنّهم القردةُ جالسينَ ،﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾، وأفسدَ الإنسانُ بنفسِه لنفسِه هذا الاستواءَ وترى هذا في الرّجال فيسُوءك، ثمّ أنت تراه في النّساء فيسُوءك ضعفَين، وتراه في الطّفل والطّفلةِ يخرجُ من بطنِ أمّه كأنّه الألفُ استقامةً ثمّ هو يتعوّجُ ولات حينَ اعوجاجٍ. إنَّ هذه الدّنيا فيها القبحُ

الكثيرُ الدّائمُ وفيها الجمالُ يأتي لُمَعًا والذي يزيدُ في حظِّ الدّنيا من جمالٍ، في نفسِه أو في النّاسِ يَستحقُّ شُكرَ الدّنيا وعلى الزّاهدين في جمالِها العفاءُ»(18)، إنَّ هذا النّموذجَ الذي سُقتُه لدليلٌ قاطعٌ على صَنعةِ الصّانعِ وحذْقِ الحاذقِ في جمْعِ ما من شأنِه أن يمنحَ التّعبيرَ جمالَه وهو المتكلّمُ عنِ الجمالِ والاستواءِ فجاء البيانُ تشبيهاتٍ جميلةً ملأى بالشّعريّةِ (صـورةُ الألــفِ في الاستقامة مثلاً) وحسْبُها أن تذكّرَنا بقولِ الشّاعرِ اللّبنانيّ أمين نخلة (1901–1976) في وصف الشّلال حين قال:

طـاوِلِ الهُضْبَ يا عمودَ الماءِ
وتَـمـايَـلْ بـالـقـامةِ الـهَـيْـفـاءِ

أَلِـفٌ أنْت خطَّها قلمُ اللّـــه
لأحْـلى الصَّـحـائـفِ الـزَّهْـراءِ

وجاء البديعُ طباقًا يُـؤدّي معنَى الجمالِ في الكلام (رجالٌ ونساءٌ، قبحٌ وجمالٌ) لإظهارِ المقارنةِ بين أمرِ العنايةِ في الاستواءِ وعدمِ العنايةِ عند كلا الجنسَين وما يترتّبُ عنها من جمالٍ ومن قُبحٍ عند انتفائِها ويتشكّلُ الأسلوبُ الإنشائيُّ عنده بكمِ الخبريّةِ مفيدةً للتّعجّبِ ليكتملَ حظُّ البلاغةِ بفروعِها التّقليديّةِ المعروفةِ في تراثِنا البلاغيِّ القديمِ، ولعلَّ هذا الجمعَ في نصٍّ قصيرٍ ضربٌ لا يجتمعُ إلّا لمن أُوتيَ من قريحةِ العربيّةِ الشّيءَ الكثيرَ ودانتْ له تراكيبُها ومُفرداتُها فتنقادُ له طيّعةً، لتتشكّلَ في بنياتٍ تعبيريّةٍ تنمُّ عن براعةِ صاحبِها وضلاعتِه وتمكُّنِه الحقِّ منَ اللُّغةِ.

لقدِ استطاعَ الدّكتور أحمد زكي في موسوعتِه أن يقدِّمَ مادّةً علميّةً خِصبةً ومُعتمِدًا اصطلاحاتٍ علميّةً مُستخدمةً في حقْلِها العلميِّ ممّا يُدركُ الكاتبُ امتلاكَ القارئِ لناصيتِها مقدِّمًا ترجماتِها اللّاتينيّةَ وما كان من بابٍ غيرِ المُدركِ انحدرَ به إلى مرتبةِ التّداوُلِ، عبْرَ لُغةٍ أظهرت براعةَ صاحبِها ومعرفتَه الحقّةَ بأساليبِها وأنساقِها وبلاغتِها للدّرجةِ التي كانت فيه اللُّغةُ بين يديه منقادةً له يتصنَّعُها كيفمَا أرادَ لتكونَ على قدْرٍ منَ الوفاءِ للبلاغةِ الإمتاعيّةِ التي ينشدُها قارئٌ عربيٌّ يعيشُ في السّتينيّات منَ القرنِ الماضي كَوَّنَتِ اللّغةُ جُزءًا كبيرًا منِ اهتمامِه، مثلمَا كَوَّنَ محورًا أساسيًّا في تفكيرِ الدّكتور أحمد زكي فكان لابدَّ من تقديمِ معرفةٍ علميّةٍ مفصّلةٍ في شتّى الفروعِ بلُغةٍ قويّةٍ شديدةِ الاتّساقِ والتّماسكِ تتصنّعُ أنساقَها وتَنتقي عباراتِها وتتفنّنُ في طرائقِ التّبليغِ حسبَ ما يقتضيه المقامُ والموضوعُ، فاستطاعتِ الموسوعةُ أن تجمعَ بين بلاغتَي الإقناعِ والإمتاعِ معًا وتُقدّمَ للقارئِ العربيِّ نموذجًا فريدًا في عالَمِ الموسوعاتِ عجزتْ عنه كثيرٌ منها إلى حدودِ السّاعةِ لاكتفائِها بتقديمِ المعرفةِ العلميّةِ مستفيدةً من تطوُّرِ الإخراجِ التّقنيِّ والجماليِّ دون أن تشدَّ القارئَ إلى عالَمِ اللّغةِ لارتباطِ أصحابِها بالغايةِ الإقناعيّةِ والتّبليغيّةِ دونَ استحضارٍ للقُطبِ الجماليِّ الذي يُعدُّ وسيلةَ جذْبٍ للقارئِ لا عبْرَ الصُّورةِ والإخراجِ فقط، وإنّما عبْرَ عالمِ اللّغةِ لِما تمتلكُه من سحْرٍ وجاذبيّةٍ وقُدرةٍ تأثيريّةٍ تخترقُ النّفوسَ وتُسكّنُ الأرواحَ.

الهوامشُ :

1.فليب عطية، أمراض الفقر (الــمشكلات الصحية في العالم الثالث) عالم المعرفة ع 161 سنة 1992 ص 111
2.أحمد عبد الدايم، العلم والتكنولوجيا والتنمية مؤسسة الكويت للنشر ط 1998 ص 89
3. المرجع السابق، ص 88
4. أحمد زكي، في سبيل موسوعة علمية دار الشروق ط 6 سنة 1994ص 10
5.نفسه ص 12
6.نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات عالم المعرفة ع 276 سنة 2001 ص 491
7. أحمد زكي، المرجع السابق ص 11
8. نفسه، ص 23
9.نفسه،ص 23
10. نفسه، ص 56
11. نفسه، ص 248
12.نفسه، ص 257
13.أحمد زكي، مجلة العربي ع 79 يوليوز 1965
14.أحمد زكي، في سبيل موسوعة علمية ص 70
15. نفسه، ص 254
16. نفسه، ص 509
17. نفسه، ص 513
18. نفسه، ص 243



جُهُودُ سِيبَوَيْه البَلاغِيَّةُ في (الكتاب) مِن خلالِ أُسلُوبِ الحَذْفِ

(حَذْفُ الاسْمِ) أُنموذَجًا



د. أحمد مللي
باحث

حَظيَ الدّرسُ النَّحْويُّ والبلاغيُّ في اللّغةِ العربيَّةِ باهتمامٍ وفيرٍ من علماءِ اللّغةِ والباحثِين في كنوزِها، فوضعُوا لها القواعدَ ونَظَمُوا فيها المؤلّفاتِ والشُّروحَ، ولم يَألُوا جُهدًا في تقديمِ كلِّ ما يُسهمُ في الحِفاظِ على اللُّغةِ العربيّةِ وبيانِ خصائصِها، وتتبُّعِ مواطنِ الجمالِ فيها، وتوضيحِ مفاهيمِها لأبنائِها ولكلٍّ من يَسعَى لتعلُّمِها والنّهلِ من مَوردِها. ويُعدُّ سِيبَويه أبو بشرٍ عثمانُ بنُ قُنبر (ت 180هـ)، أحدَ أهمِّ عُلمائِها الذين يعودُ إليه الفضلُ في تأسيسِ علمَيِ النّحوِ والصّرفِ ووضْعِ القواعدِ لهما من خلال مؤلّفِه الذي لم تعرفْ له المكتبةُ العربيّةُ كتابًا غيرَه فأُطلقَ عليه "الكتابُ" استدلالاً على تفرّدِه وتميّزِه، فغدا المصدرَ الأوّلَ الذي يُرجعُ إليه في دراسةِ النّحوِ والصّرفِ واستقصاءِ قواعدِهما منه، بل لعلَّ الباحثَ في الكتابِ سيجدُ فيه ما يُشيرُ إلى احتوائِه على علومٍ أُخرى في اللّغةِ العربيّةِ، كعلْمِ البلاغةِ وعلْمِ الأصواتِ واللّسانيّاتِ وما ارتبطَ بعلْمِ اللّغةِ، وهذا إنْ دلَّ على شيءٍ فإنّه يدلُّ على عبقريّةِ سِيبَويه وإبداعِه اللُّغويِّ.

لذَا أتتْ هذه الدّراسةُ لكي تَتَبَّعَ الأثرَ البلاغيَّ الذي تركَه سِيبَويه في الكتابِ، ولتُسلّطَ الضّوءَ على الجُهد الذي بذلَه، ولتكشفَ جانبًا منَ الجوانبِ البلاغيّةِ التي يعودُ لسِيبَويه فضلٌ لا يمكنُ التّغافلُ عنه أو إنكارُه، بل لربّما جاءت مبيّنةً لفضلِه وسبْقِه في علوم البلاغةِ عن غيرِه منَ العلماء ممّن يُنسبُ لهمُ الفضلُ فيه، أمثالِ الجُرجانيِّ والزّمخشريِّ وغيرِهما من أهلِ البلاغةِ ونوابغِها.

ولعلَّ أُسلوبَ الحذْفِ يُعدُّ منَ الأساليبِ التي جمعت بين علمَيِ النّحو والبلاغة، إذْ لا يُمكنُنا الفصلُ بينهما؛ ذلك أنّ الحذفَ في الجُملةِ النّحويّةِ لابدّ أن يكونَ له غرضٌ بلاغيٌّ، كالإيجازِ بأنواعِه، أوِ الاستحسانِ على الذِّكْرِ، أو ضيقِ المقامِ عنِ الإطالةِ، أوِ الاستهجانِ والتّأدُّبِ في القولِ، أوِ الإنكارِ، أو غيرِها منَ الأغراضِ البلاغيّةِ المتعدّدةِ للحذْفِ.

ولا ضَيْرَ من توضيحِ بعضِ المفاهيمِ قُبَيلَ البحثِ في جُهودِ سِيبَويه البلاغيّةِ في (الكتاب) من خلالِ أُسلوبِ الحذفِ، سعيًا للوصولِ إلى نتائجَ دقيقةٍ جليّةٍ وواضحةٍ،كتوضيحِ مفهومِ الإيجازِ، والحذفِ، والاختصارِ، والاقتصارِ، والاختزالِ.

1 – الإيجازُ: جاء في لسان العربِ: «وَجُزَ الكلامُ وَجَازَةً، ووَجْزاً. وأوجزَ: قلَّ في بلاغةٍ. وأوجزَه: اختصرَهُ: قال ابنُ سيدَه: بين الإيجازِ والاختصارِ فرقٌ منطقيٌّ ليس هذا موضعَه. وكلامٌ وَجْزٌ: خفيفٌ.

يُقال: أوجزتُ الكلام: قصرتهُ. وفي حديث جرير، قال له رسولُ الله عليه

الصّلاة والسّلام: "إذا قلتَ فأَوْجِزْ". أي أسرِعْ واقْتَصر.

ورجلٌ ميجازٌ: يُوجِزُ في الكلامِ والجواب. وأَوْجَزَ القولَ والعطاءَ: قلَّلَه.

ويقولُ ابنُ الأثير في تعريفِه: «هو حذفُ زياداتِ الألفاظِ، وهذا نوعٌ منَ الكلامِ، شريفٌ لا يتعلّقُ به إلا فرسانُ البلاغةِ، من سبقَ إلى غايتِها وما صلّى، وضربَ في أعلى درجاتها بالقِدْحِ المُعَلّى، وذلك لعُلوِّ مكانِه وتعذُّرِ إمكانِه».

وعرّفه أبو هلالٍ العسكريُّ بقوله: «الإيجازُ قصورُ البلاغةِ على الحقيقةِ، وما تجاوزَ مقدارَ الحاجة، فهو فضلٌ داخلٌ في باب الهَذَرِ والخَطَل ، وهما من أعظمِ أدواءِ الكلامِ، وفيهما دلالةٌ على بلادةِ صاحبِ الصّناعةِ". وقال أيضًا: «الإيجازُ: القَصْرُ والحَذْفُ».

2 – الحذْفُ: جاء في لسان العربِ: حَذَفَ الشّيءَ، يحذِفهُ حذفًا: قطعَه من طرفِه. يقولُ الجوهريُّ: «حذْفُ الشّيءِ، إسقاطُهُ. ومنه حذفتُ من شَعْري ومن ذَنَبِ الدّابّة أي أخذتُ». وعرّفهُ الأزهريُّ بقوله: «الحذفُ: قطفُ الشّيءِ منَ الطّرف كما يُحذفُ ذنبُ الدّابّة».

والحذفُ أحدُ قسمَيِ الإيجاز، ويكونُ بحذفِ ما لا يُخلُّ بالمعنى، ولا يُنقصُ منَ البلاغة، بل لو ظهرَ المحذوفُ لنزلَ قدرُ الكلام عن عُلوِّ بلاغتِه، ولصارَ إلى شيءٍ مُسترَكٍّ مُسْترذَلٍ، ولكان مُبطِلاً لما كان يَظهرُ على الكلام منَ الطّلاوة والحُسْنِ والرّقّة».

وعرّفه الجُرجانيُّ تعريفًا بديعًا فقال: «هو بابٌ دقيقُ المسلَك، لطيفُ المأخذِ، عجيبُ الأمر، شَبهٌ بالسّحرِ، فإنّك ترى به تركَ الذِّكرِ أفصحَ منَ الذِّكر، والصّمتَ

لعلَّ أُسلوبَ الحذْفِ يُعدُّ منَ الأساليبِ التي جمعت بين علمَيِ النّحو والبلاغةِ، إذْ لا يُمكنُنا الفصلُ بينهما.

عنِ الإفادة أزيدَ للإفادة، وتجدُكَ أنطقَ ما تكونُ إذا لم تَنطقْ، وأتمَّ ما تكونُ بياناً إذا لم تُبِنْ».

3 – الاختصارُ: جاء في لسان العربِ: «اختصارُ الكلامِ: إيجازُه، والاختصارُ في الكلامِ: أن تدعَ الفضولَ وتَستوْجزَ الذي يأتي على المعنى، وكذلك الاختصارُ في الطريق. والاختصارُ حذفُ الفضولِ من كلّ شيءٍ».

والاختصارُ هو: «الاقتصارُ على ما يدلُّ على الغرضِ، مع حذفٍ أو إضمارٍ، والعربُ لا يَحذفون ما لا دلالةَ عليه ولا وُصلةَ إليه؛ لأنّ حذفَ ما لا دلالةَ عليه مُنافٍ لغرضِ وضْعِ الكلام منَ الإفادةِ والإبهامِ، وفائدةُ الحذفِ تقليلُ الكلام وتقريبُ معانيه إلى الإفهام».

4 – الاقتصارُ: «القَصْرُ والقِصَرُ في كلّ شيء: خلافُ الطُّول. والاقتصارُ على الشّيءِ الاكتفاءُ به».

5 – الاختزالُ: «الخزْلُ: القطعُ، يقال: خزلتُه فانخزلَ، أي قطعتُه فانقطعَ. وقولُ الشّاعرِ: «يكادُ الخصرُ ينخزلُ» معناه ينقطعُ لضُمرِه، كما قال الآخرُ: يكادُ ينغرفُ أي ينقطعُ. وانخزلَ الشّيءُ: انقطعَ. والاختزالُ: الاقتطاعُ. وقال ابنُ سيدَه: والاختزالُ: الحذفُ، استعملَه سِيبَويه كثيرًا، قال: ولا أعلمُ ذلك عن غيرِه».

ممّا سبقَ يُرى توافقُ المصطلحاتِ المعرّفة في التّدليل على الحذفِ،



ابن الأثير



النابغة الجعدي

والإشارةِ إليه وإلى الغايةِ المرجوّةِ منه.

ثانيًا: أسلوبُ الحذْفِ في الكتابِ وجهودُ سِيبَويه البلاغيّةُ فيه:

سُئلَ أحدُ البُلغاء: ما البلاغةُ؟ فقال: قليلٌ يُفهمُ، وكثيرٌ لا يُسأمُ. وسُئلَ آخرُ: فقال: معانٍ كثيرةٌ في ألفاظٍ قليلةٍ. وقال الخليلُ بنُ أحمدَ: البلاغةُ كلمةٌ تكشفُ عنِ البقيّة، وقال معاويةُ لعمرو بنِ العاص: من أبلغُ النّاسِ؟ فقال: مَن اقتصرَ على الإيجازِ وتنكّبَ الفُضولَ.

ولعلَّ المتتبِّعَ لكتابِ سِيبَويه والباحثَ فيه سيجدُ ما يؤكّدُ أهميّةَ الإيجازِ في اللّغةِ العربيّةِ وأثرَه البلاغيَّ، وسيُكتشفُ أثرُ هذا العالم الفذِّ في علْمِ البلاغةِ، وذلك من خلال تعرُّضِه للحذْفِ في أقسام الكلامِ الثّلاثةِ: الفعلِ والاسمِ والحرفِ.

وقدِ اقتصرَ هذا المبحثُ على تتبُّعِ الحذْفِ في الاسمِ كنموذجٍ دالٍّ على الحذْفِ في الكتابِ؛ ذلك أنّ الأسماءَ تُعدّ أصلاً للأفعال، كما أنّ الحذْفَ فيها واسعٌ ومتعدّدُ المواضعِ والحالاتِ.

- حذْفُ الاسمِ في الكتابِ:

كثيرةٌ هي الأسماءُ التي أصابَها الحذفُ في الجُملةِ سواءٌ الاسميّةُ أمِ الفعليّةُ، وقد خُصّصت أبوابٌ في الكتابِ لتفصيلِه وتوضيحِه، ومنها:

أ- حذْفُ المبتدأ: وقد وردَ حذْفُه في عدّةِ أبوابٍ منها:[هذا بابٌ يُحذفُ منَ الفعلِ لكثرتِه في كلامِهم حتى صارَ بمنزلة المثلِ]، حيث جاء فيه: "ومنَ العربِ من يرفعُ الدّيارَ، كأنّه يقول: تلك ديارُ فلانةِ. وقد قال الشاعر:

اعْـتـادَ قَـلْـبَـكَ مِـنْ سَـلْـمَـى عَـوائِـدُهُ
وَهَـاجَ أَهْـوَاءَكَ الـمَـكْـنُـونَـةَ الطَّلَلُ
رَبْــعٌ قَــواءٌ أَذاعَ الـمُـعْـصِـراتُ بِـهِ
وَكُـلُّ حَـيْـرَانَ سَـارٍ مَـاؤُهُ خَـضِـلُ

وكأنّه قال: وذاك ربْعٌ، أو هو ربْعٌ، (رفعَه على ذا وما أشبهَه، سمعناه ممّن يرويه عنِ العرب).

ومثلُه لعمرَ بن أبي ربيعةَ:

هَـلْ تَـعْـرِفُ الـيَـوْمَ رَسْـمَ الـدَّارِ وَالطَّلَلا
كَـمَـا عَـرَفْـتَ بِـجَـفْـنِ الصَّـيْـقَلِ الخِلَلا
دَارٌ لِـمَــرْوَةَ إِذْ أَهْـلِـي وَأَهْـلُـهُـمُ
بِالكَانِسِيَّـةِ نَـرْعَـى اللَّهْـوَ وَالغَـزَلا

فـإذا رفعتَ فالذي في نفسك ما أظهرتَ، وإذا نصبتَ فالذي في نفسِك غيرُ ما أظهرتَ».

وموضعُ الشّاهدِ كما يقولُ السّيرافيّ: كأنّه قال: تلك دارٌ لمروةَ.

فالغرضُ البلاغيُّ الذي قرّره سِيبَويه في موضعِ هذا الحذْفِ، هو كثرةُ استخدامِه في كلام العربِ، ممّا استوجبَ حذفَه.

ويقولُ في بابٍ آخرَ [هذا بابٌ يكونُ المبتدأُ فيه مُضمرًا ويكونُ المبنيُّ عليه مُظهرًا]: «وذاك أنّك رأيتَ صُورةَ شخصٍ فصارَ آيةً لك على معرفة الشّخصِ، فقلتَ: عبدُ الله وربّي، كأنّك قلتَ: ذاك عبدُ الله، أو هذا عبدُ الله، أو سمعتَ صوتًا فعرفتَ صاحبَ الصّوتِ فصارَ آيةً لك على معرفتِه، فقلتَ: زيدٌ وربّي، أو مَسَسْتَ جسدًا أو شممتَ ريحًا فقلتَ: زيدٌ، أوِ المسكُ، أو ذقتَ طعامًا فقلتَ: العسلُ. ولو حُدّثتَ عن شمائلِ رجلٍ فصار آيةً لك على معرفتِه لقلتَ: عبدُ الله. كأنّ رجلاً قال: مررتُ برجلٍ راحمٍ للمساكين بارٍّ بوالديه: فقلتَ: فلانٌ والله».

إنّ حذْفَ المبتدأِ في هذه السّياقاتِ التي ذكرَها سِيبَويه في هذا الباب لَكأنّها تشيرُ إلى غرضٍ بلاغيٍّ أرادَه منها، ألا وهو إبرازُ فطنةِ المتحدّثِ وسُرعةِ بديهتِه؛ من خلال إجابتِه وتقديمِه المعلومةَ لِما يُتحدّثُ عنه، علمًا أنّ هذا الغرضَ لم يُشَرْ إليه من قبلُ منَ البلاغيّين، ولعلّي سأكونُ قد وُفّقتُ في استنتاجِ غرضٍ جديدٍ من أغراضِ الحذْفِ والبلاغةِ، كما أنّه سيكونُ الغرضُ مُستنتجًا ممّا جاء في الكتاب وعليه فسيُنسبُ الفضلُ في تخمينِه والاستدلالِ عَلَيْهِ إلى سِيبَويه.

ب- حذْفُ الخبرِ: وممّا جاء في الكتابِ





عن حذْفِ الخبرِ ما أوردَه سِيبَويه في عدّةِ أبوابٍ، ومنها: [هذا بابٌ منَ الابتداءِ يُضمرُ فيه ما يُبنى على الابتداء]، يقول فيه: "وذلك قولُك: لولا عبدُ الله لكان كذا وكذا، أمّا لكان كذا وكذا فحديثٌ معلّقٌ بحديث لولا، وأمّا عبدُ الله فإنّه من حديثِ لولا، وارتفاعُ بالابتداء كما يرتفعُ بالابتداء بعد ألفِ الاستفهام، كقولك: أزيدٌ أخوك، إنّما رفعتَه على ما رفعتَ عليه زيدٌ أخوك، غيرَ أنّ ذلك استخبارٌ وهذا خبرٌ. وكأنّ المبنيَّ عليه الذي في الإضمار كان في مكانٍ كذا وكذا، فكأنّه قال: لولا عبدُ الله كان بذلك المكان، ولولا القتالُ كان في زمان كذا وكذا، ولكنّ هذا حُذفَ حين كثُر استعمالُهم إيّاه في الكلام. كما حُذف الكلامُ من (إمّا لا)، وزعمَ الخليلُ أنّهم أرادوا: إنْ كنتَ لا تفعلُ غيرَه فافعلْ كذا وكذا إمّا لا، ولكنّهم حذفوه لكثرته في الكلام».

فالغرضُ البلاغيُّ كما قرّره سِيبَويه في حذفِ الخبرِ هو كثرةُ استعمالِهم له في الكلام فحسُنَ الاختصارُ والحذفُ.

ويؤكّدُ المبرّدُ ما ذهب إليه سِيبَويه في كتابه (المُقتضبُ)، في باب المبتدأ المحذوفِ الخبرِ استغناءً عنه وهو بابُ لولا، بقوله: "اعلمْ أنّ الاسم بعد لولا يرتفعُ بالابتداء، وخبرُه محذوفٌ لما يدلّ عليه. وذلك قولُك: لولا عبدُ الله لأكرمتك. ف(عبد الله) ارتفعَ بالابتداء، وخبرُه محذوفٌ، والتقديرُ: لولا عبدُ الله بالحضرةِ، أو لسببِ كذا لأكرمْتُك.

فقولُك: لأكرمْتُك خبرٌ معلّقٌ بحديثِ لولا. ولولا حرفُ امتناعِ الفعلِ لوقوعِ الاسم.

ومن حذْفِ الخبر أيضًا ما وقع ظرفًا كما جاء في باب [الظّروفُ المبهمةُ غيرُ المتمكّنةِ]، وقد قال فيه: "وسألتُه عن قول بعضِ العرب، وهو قليلٌ: مذْ عامُ أوّلَ؟ فقال: جعلوه ظرفًا في هذا الموضع، فكأنّه قال: مُذْ عامُ قبلَ عامِك. وسألتُه عن قوله: زيدٌ أسفلَ منك؟ فقال: هذا ظرفٌ، كقوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾ ، كأنّه قال: زيدٌ في مكانٍ أسفلَ من مكانِك.

ومثلُ الحذفِ في أوّلَ لكثرة استعمالِهم إيّاه قولُهم: لا عليك. فالحذفُ في هذا الموضعِ كهذا».

وتحدّثَ سِيبَويه أيضاً عن حذفِ الخبرِ في بابٍ أسْماهُ [بابُ استعمالِ الفعلِ في اللّفظِ لا في المعنى لاتّساعِهم في الكلامِ، والإيجازِ والاختصارِ]، فقال: «ومثلُه: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾،وإنّما المعنى: بل مكرُكُم في اللّيل والنّهار. وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ . وإنّما هو (ولكنّ البرَّ برُّ من آمن بالله واليوم الآخر)».

فالغرضُ البلاغيُّ كما قرّره سِيبَويه في حذف الخبرِ في هذا الموضعِ هو الاتّساعُ والاختصارُ والإيجازُ.

وقد أكّدَ ابنُ جنّي جوازَ حذفِ الخبرِ عندما يكونُ ظرفًا، في قوله: "وقد حُذفَ الخبرُ، نحوَ قولهم في جوابِ مَن عندك: زيدٌ، أي زيدٌ عندي. وكذلك قولُه تعالى: ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ﴾ ، إنْ شئتَ كان على طاعةٍ وقولٍ معروفٍ أمثلَ من غيرِهما، وإنْ شئتَ كان على أمرنا طاعةٌ ومعروفٌ، وعليه قول الشاعر:

فقالتْ: على اسم الله أمرُكَ طاعةٌ
وإنْ كنتُ قد كُلِّفتُ ما لم أُعوَّدِ

ج- حذْفُ نائبِ الفاعلِ وإقامةُ الظّرفِ مكانَه:

وقد وردَ هذا الحذفُ في الكتابِ في [بابُ استعمالِ الفعلِ في اللّفظ لا في المعنى لاتّساعِهم في الكلامِ والإيجازِ والاختصارِ]، في قوله: «فمِن ذلك أنْ تقولَ على قول السّائلِ: كمْ صِيدَ عليه؟ وكم غيرُ ظرفٍ لِما ذكرت لك من الاتّساعِ والإيجازِ، فتقولُ: صيدَ عليه يومان. وإنّما المعنى صيدَ عليه الوحشُ في يومين، ولكنّه اتّسعَ واختصرَ. ولذلك أيضًا وضعَ السّائلُ كم غيرَ ظرف. ومن ذلك أن تقول:


عمر بن أبي ربيعة

كم وُلِدَ له؟ فيقول: ستون عامًا. فالمعنى وُلِدَ له الأولادُ ووُلِدَ له الولدُ ستّين عامًا، ولكنّه اتّسعَ وأوجزَ».

فالغرضُ البلاغيُّ كما أشارَ إليه سِيبَويه في بداية حديثِه، خروجُ الحذْفِ لغرضِ الاتّساعِ في الكلامِ والإيجازِ والاختصارِ.

د- تخفيفُ كأنَّ وحذفُ اسمِها:

جاء في [بابُ الحروفِ الخمسةِ التي تعملُ فيما بعدَها كعملِ الفعلِ فيما بعده]: "وروى الخليلُ رحمه الله أنّ ناسًا يقولون: إنّ بك زيدٌ مأخوذٌ، فقال: هذا على قولِه إنّه بك زيدٌ مأخوذٌ، وشبّهَه بما يجوزُ في الشّعر، نحوَ قولِه: وهو ابنُ صريم اليَشكريّ:

ويومًا توافينا بوجهٍ مُقَسَّمٍ
كأنْ ظبيةٌ تعطو إلى وارقِ السَّلَمْ

والشّاهدُ فيه رفعُ ظبيةٍ على الخبرِ لِكأنْ المخفّفةِ، واسمُها مَنْوِيٌّ تقديرُها: كأنّها.

وقال الآخرُ:

ووجهٌ مُشرِقُ النّحرِ
كأنْ ثدياهُ حُقّانِ

والتّقديرُ: كأنّه ثدياه حُقّان.

لأنّه لا يَحسنُ هاهنا إلّا الإضمارُ».

فالغرضُ البلاغيُّ الذي يشيرُ إليه في هذا البابِ هو استحسانُ الحذْفِ على الذِّكرِ وتأديتِه المرادَ في المعنى.

وأشارَ في الباب نفسِه إلى تخفيف أنْ وحذْفِ اسمِها، فقال: «... وأمّا قولُ الأعشَى:

في فتْيَةٍ كسُيوفِ الهند قَدْ عَلِمُوا
أنْ هَالِكٌ كلُّ من يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ

فإنّ هذا على إضمارِ الهاء، لم يحذفُوا لأنْ يكونَ الحذفُ يُدخلُه في حروف الابتداء بمنزلة إنّ ولكنّ، ولكنّهم حذفُوا كما حذفوا الإضمارَ، وجعلوا الحذفَ علمًا لحذفِ الإضمارِ في إنّ، كما فعلُوا في كأنّ».

فالغرضُ هنا أيضًا هو استحسانُ الحذْفِ على الذّكرِ لتأديتِه المعنى.

ه- حذْفُ خبرِ إنّ وأخواتِها:

جاء في باب [ما يَحسنُ السّكوتُ عليه في هذه الأحرفِ الخمسةِ]: «لإضمارك ما يكونُ مستقرًّا لها ومَوضِعًا لو أظهرتَه، وليس هذا المُضمرُ بنفس المُظهر. وذلك: إنّ مالاً وإنّ ولداً وإنّ عدداً، أي إنّ لهم مالاً، فالذي أضمرتَ (لهُمْ). ويقول الرّجل للرّجل: هل لكم أحدٌ إنّ النّاسَ ألْبٌ عليكم، فيقولُ: إنّ زيداً، وإنّ عمراً، أي إنّ لنا. وقال الأعشى:

إنّ مَحَلًّا وإنّ مُرْتَحَلًا
وإنّ في السَّفْرِ مَا مَضَى مَهَلًا

وتقولُ: إنّ غيرها إبلاً وشاءً كأنّه قال: إنّ لنا غيرَها إبلاً وشاءً، أو عندنا غيرُها إبلاً وشاءً. فالذي تُضمرُ هذا النّحوُ وما أشبهَه. وانتصب الإبلُ والشّاءُ كانتصاب فارسٍ إذا قلت: ما في النّاسِ مثلُه فارساً. ومثلُ ذلك قولُ الشاعر:

يَا لَيْتَ أيَّامَ الصِّبَا رَوَاجِعَا

فهذا كقولِه: ألا ماءَ بارداً، كأنّه قال: ألا ماءَ لنا بارداً، وكأنّه قال: يا ليتَ لنا أيامَ الصّبا، وكأنّه قال: ما ليتَ أيّامَ الصبا أقبلتْ رواجعَ...»».

فالغرضُ البلاغيُّ الذي يمكنُ استقراؤُه من حذفِ خبرِ إنّ في هذا البابِ، هو الابتعادُ عنِ الوصْفيّةِ في الكلام، فضلاً عن أنّ الذِّكرَ هنا يُضعفُ الكلامَ، فيكونُ الحذفُ أقربَ ما يكونُ لغرضِ الاستحسانِ عنِ الذِّكر.

و- حذْفُ المفعولِ به:

جاء في بابِ [استعمالُ الفعْلِ في اللّفظِ لا في المعنَى لاتّساعهِم في الكلام، والإيجازِ والاختصار]: "... ومثلُه في الاتّساعِ قولُه

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

–1 الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز: عزّ الدين السُّلمي الشافعي، ت(660هـ)، تح: محمد بن الحسن بن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت. ط1/1995

–2 خزانة الأدب: عبد القادر البغدادي ت(1093هـ)، دار صادر، بيروت.

–3 الخصائص: ابن جنّي ت(392هـ)، تح: محمد علي النجار، دار الهدى.

–4 دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجانيّ، ت(471هـ)، تعليق محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة

–5 ديوان الأعشى الكبير: تح، محمد أحمد قاسم، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1 / 1994

–6 ديوان الحطيئة: تح: نعمات محمد أمين طه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1/1982م.

–6 ديوان العجّاج: ت(69هـ)، تح: عبد الحفيظ السطلي، مكتبة أطلس، حلب، ط1995م.

–7 ديوان عمر بن أبي ربيعة: قدري مايو، عالم الكتب، بيروت، ط1/1997م.

–8 ديوان النابغة الجعدي: تح: عبد العزيز رباح، منشورات

عزّ وجلّ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ﴾ . فلم يُشبّهُوا بما ينعقُ، وإنّما شُبّهُوا بالمنعوقِ به الذي لا يسمعُ، ولكنّه جاء على سعة الكلامِ والإيجازِ لعلمِ المخاطَبِ بالمعنى».

فالغرضُ البلاغيُّ هنا سعةُ الكلامِ،والإيجازُ ،وكثرةُ الاستعمالِ.

ز- حذْفُ المُستثنَى:

وقد خصَّه سِيبَويه في بابٍ أُطلقَ عليه [بابُ ما يُحذفُ المستثنَى فيه استخفافًا]، يقولُ فيه: «وذلك قولُك: (ليس غير) و(ليس إلّا) كأنّه قال: ليس إلّا ذاك، وليس غيرُ ذاك، ولكنّهم حذفُوا تخفيفًا واكتفاءً بعلْمِ المخاطَبِ ما يعني».

وفي الباب نفسِه تحدّثَ سِيبَويه عن حذْفِ الموصوفِ لدلالةِ الصّفةِ عليه: «سمعْنا بعضَ العربِ الموثوقِ بهم يقولُ: ما منهم مات حتى رأيتُه في حالِ كذا وكذا، وإنّما يريدُ ما منهم واحدٌ ماتَ. ومثلُ ذلك قولُه تعالى جدُّه: ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ﴾ .

ومثلُ ذلك منَ الشِّعر قولُ النّابغة:

كَأنّكَ مِنْ جِمالِ بَني أُقَيْشٍ
يُقَعْقَعُ خَلْفَ رِجلَيْهِ بِشَنِّ

فالشّاهدُ يدلُّ على حذْفِ الاسمِ الموصوفِ لدلالةِ الصّفةِ عليه.

ومثلُ ذلك أيضًا قولُه:

لَوْ قُلْتَ ما في قَوْمِها لم تِيْثَمِ
يَفْضُلُها في حَسَبٍ ومِيْسَمِ

يريدُ: ما في قومِها أحدٌ فحذفُوا هذا كما قالُوا: لو أنّ زيدًا هنا.

وإنّما يريدُون: لكان كذا وكذا.

وقولُهم: ليس أحدٌ، أي ليس هنا أحدٌ. فكلُّ ذلك حُذفَ تخفيفًا واستغناءً بعلْمِ المُخاطَبِ بما يَعني.

ويقولُ السّيرافيّ: الحذْفُ الذي استعملُوه بعدَ إلّا وغير إنّما يُستعملُ إذا كانت إلّا وغير بعدَ ليس، ولو كان مكانَ ليس غيرُها من ألفاظِ الجَحْدِ لم يجُزِ الحذفُ، لا تقولُ بدلَ: ليس إلّا: لم يكن إلّا، ولا: لم يكن غيرُ. ومثلُ البيتَين الأوّلَين قولُ الشّاعر، وهو ابنُ مُقبل:

وَما الدَّهْرُ إلّا تارتانِ فَمِنْهُما
أَموتُ وأُخْرى أبْتَغي العَيْشَ أَكْدَحُ

إنّما يريدُ منهما تارةً أموتُ وأُخرى.

ومثلُ قولهم «ليس غيرُ» هذا الذي أمسِ، يريدُ الذي فعلَ أمسِ». فالغرضُ البلاغيُّ من ذلك هو التّخفيفُ والاستغناءُ.



أبو هلال العسكري

ح- حذْفُ المضافِ وإقامةُ المضافِ إليه مَقامَه:

جاء في الباب الذي مرّ آنفًا وهو بابُ [استعمالُ الفعلِ في اللّفظِ لا في المعنى لاتّساعِهم في الكلامِ، والإيجازِ والاختصارِ]: «وممّا جاءَ على اتّساعِ الكلامِ والاختصارِ قولُه تعالى جدُّه: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ﴾، إنّما يريدُ أهلَ القرية، فاختصرَ، وعملَ الفعلُ في القريةِ كما كان عاملاً في الأهلِ ولو كان ها هنا».

ويقولُ في موضعٍ آخرَ منَ البابِ نفسِه: «ومثلُ ذلك من كلامِهم، بنو فلانٍ يَطَؤُهُمُ الطّريقُ، يريدُ يطؤُهم أهلُ الطّريقِ، وقالوا:

المكتب الإسلامي، دمشق، ط/1964

–9 ديوان النابغة الذبياني: صنعة ابن السكّيت، ت(244هـ)، تح، شكري فيصل، دار الفكر، بيروت.

–10 الصّناعتين الكتابة والشعر: أبو هلال العسكري، ت(395هـ)، تح: علي محمد البجاوي، الناشر عيسى البابي الحلبي،ط2

–11 العمدة في محاسن الشعر وآدابه: ابن رشيق القيرواني، ت(456هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5/1981م

–12 الكتاب: سيبويه، ت(180هـ)، تح: عبد السلام هارون، دار عالم الكتب، بيروت.

–13 لسان العرب: ابن منظور ت(711هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3/1999.

–14 المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ابن الأثير الموصليّ. ت(637هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، بيروت.

–15 – معجم البلاغة العربية: بدوي طبانة، منشورات جامعة طرابلس، ط1/1975م

–16 المقتضب: المبرّد ت(285هـ)، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت.

صِدْنا قَنَوين، وإنّما يريدُ: صدْنا بقَنَوين، أو صِدْنا وحْشَ قَنَوين، وإنّما قَنَوان اسمُ أرضٍ.

ومثلُه في السّعة: أنت أكرمُ عليَّ من أنْ أضربك، وأنت أنكدُ من أنْ تتركَه. إنّما يريدُ: أنتَ أكرمُ عليَّ من صاحبِ الضّرب، وأنت أنكدُ من صاحبِ ترْكِه؛ لأنّ قولَك: أنْ أضربَك وأنْ تتركَه، هو الضّربُ والتّركُ؛ لأنّ أنْ اسمٌ، وتتركه وأضربَك من صلتِه، كما تقولُ: يسوءُني أنْ أضربَك، أي يسوءُني ضربُك، وليس يريدُ: أنت أكرمُ عليّ منَ الضّرب، ولكن أكرمُ عليّ من صاحبِ الضّربِ.

وقال الجعديُّ:

كَـأنَّ عَـذيـرَهُـمْ بِـجَـنُـوبِ سِلَّـى
نَـعَـامٌ قَـاقَ فـي بَـلَـدٍ قِـفَـارِ

العذيرُ: الصّوتُ» .

ط- الحذْفُ المتعلّقُ بالصّلة:

أ- حذْفُ صدْرِ الصّلةِ بعد أيٍّ وبناؤها:

أشار إليها سِيبَويه في بـابِ[أيّ] فقال: "وحدّثنا هارونُ أنّ أُناسًا وهمُ الكوفيّون يقرؤونها: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ .هي لغةٌ جيّدةٌ، نصبُوها كما جرُّوها حيث قالوا: امرُرْ على أيّهم أفضلُ، فأجرَاها هؤلاء مجرَى الذي إذا قلتَ: اضربِ الذي أفضلُ؛ لأنّك تُنزّل أيًا ومَنْ منزلةَ الذي في غير الجزاءِ والاستفهام».

ثمّ يقولُ: «وأرى قولَهم: اضربْ أيُّهم أفضلُ على أنَّهم جعلُوا هذه الضّمّةَ بمنزلةِ الفتحةِ في خمسَةَ عشر، وبمنزلة الفتحةِ في الآنَ حين قالوا: منَ الآنَ إلى غدٍ، ففعلُوا ذلك بأيّهم حين جاء مجيئًا لم تَجِئْ أخواتُه عليه إلاّ قليلًا، واستُعملَ استعمالاً لم تُستعمَلْه أخواتُه إلاّ ضعيفًا. وجاز إسقاطُ هو في أيّهم كما كان: لا عليكَ، تخفيفًا، ولم يجُزْ في أخواته إلاّ قليلاً ضعيفًا».

وقد خرجَ الغرضُ البلاغيُّ منَ الحذْفِ هنا إلى التّخفيفِ والتّسهيلِ.

ب- حذْفُ الصّلةِ جميعِها:

وجاء هذا في [بابٌ يُحذفُ المستثنَى فيه استخفافًا]، في قوله: «وقولُه وهو العجّاج: (بعد اللُّتيّا واللَّتيّا والّتي) . فليس حذفُ المضافِ إليه في كلامِهم بأشدَّ من حذْفِ الاسمِ».

وقد أشار سِيبَويه في هذا البابِ أيضًا إلى حذْفِ المضافِ إليه عندَ العرب، وألمحَ إلى أنّ الغرضَ البلاغيَّ للحذْفِ فيهما هو التّخفيفُ والاختصارُ لعلْمِ السّامعِ به.

نتائجُ البحث:

إنّ الدراسةَ الـمَذكورةَ آنِفًا عَنْ حَذْفِ الاسمِ في كتابِ سِيبَويه، تضعُ المتتبِّعَ لجهودِ هذا العالِـمِ اللُّغويِّ الفذِّ في علْمِ

---

(1) لسان العرب: ابن منظور (ت711ه) ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3/1999مادة (وجز).
(2) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ابن الأثير الموصليّ. (ت637هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، بيروت. 2/68م
(3) الهَذَر: الكلام الذي لا يُعبأ به لكثرة الخطأ والباطل فيه. والخطل: الكلام الفاسد الكثير المضطرب.
(4) الصّناعتين الكتابة والشعر: أبو هلال العسكري، (ت395ه)، تح: علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي. ط2. ص179.
(5) لسان العرب: مادة (حذف)
(6) معجم البلاغة العربية: بدوي طبانة، منشورات جامعة طرابلس، ط1/1975م. 1/177-178.
(7) دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجانيّ، ت(471ه)، تعليق محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة. ص146.
(8) لسان العرب: مادة (خصر)
(9) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز: عزّ الدين السُّلمي الشافعي، (ت660ه)، تح: محمد بن الحسن بن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت. ط1/1995. ص11.
(10) لسان العرب: مادة (قصر)
(11) المصدر نفسه: مادة (خزل)
(12) العمدة في محاسن الشعر وآدابه: ابن رشيق القيرواني، ت(456ه)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5/1981م. 1/243.
(13) نُسب البيتان في دلائل الإعجاز إلى عمر بن أبي ربيعة: ص146.
(14) ديوان عمر: قدري مايو، عالم الكتب، بيروت، ط1/1997م. وفي اللسان (كنس) دون نسبة.
(15) الكتاب: سيبويه، ت(180)ه، تح: عبد السلام هارون، دارعالم الكتب، بيروت. 1/281 – 282.
(16) المصدر نفسه: 2/130.
(17) الكتاب: 2/ 129.
(18) المقتضب:المبرّد ت(285)ه، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت 3/76
(19) سورة الأنفال :42
(20) الكتاب: 2/289
(21) سورة سبأ33
(22) سورة البقرة 177
(23) الكتاب: 1/212
(24)سورة محمد 21

البلاغةِ أمامَ نتائجَ مهمّةٍ لا يمكنُ تغافلُها، تُبيّنُ الأثرَ البلاغيَّ لسِيبَويه ودورَه البارزَ في نشأةِ هذا العلمِ إلى جانب دورِه وأثرِه في علوم النّحوِ والصّرفِ.

ولعلَّ من أهمِّ هذه النّتائجِ التي خلُصتْ إليها هذه الدّراسةُ ما يُمكنُ تلخيصُه في الآتي:

1 - يُعدُّ أسلوبُ الحذْفِ من أهمِّ الأساليبِ البلاغيّةِ لما يحملُه من أغراضٍ متنوّعةٍ ومتعدّدةٍ أضفتْ على اللّغةِ العربيّةِ جمالاً واتّساعًا ميّزَها عن غيرِها منَ اللُّغاتِ الأُخرى.

2 - أظهرت هذه الدّراسةُ دورَ سِيبَويه وأثرَه في علم البلاغةِ من خلال ما أوردَه في كتابه المعروفِ عند أهلِ اللُّغة بأنّه كتابٌ متأصِّلٌ في النّحو والصّرفِ، فغدا مَرجعًا مهمًّا لمن أراد أنْ يبحثَ في علوم البلاغةِ أيضًا.

3 -أنّ سِيبَويه المتوفّى سنة (180هـ)، قد سبقَ غيرَه من علماءِ اللّغةِ والبلاغةِ في الإشارةِ إلى بلاغةِ الكلامِ ودلالتِه وتحديدِ أحوالِه وأغراضِه كما بيّنتِ الدّراسةُ، كابنِ رشيقٍ القيروانيِّ المتوفّى سنة (456هـ)، وعبدِ القاهر الجُرجاني المتوفّى سنة (471هـ)، وعزِّ الدّين الشّافعيِّ المتوفّى سنة (660هـ)، أولئك الذين يرتبطُ علمُ البلاغة بهم؛ لذا يمكنُ أن يُنسبَ له فضلُ السّبقِ في تأسيسِ علمِ البلاغة والإشارةِ إليه في كتابه.

4 - إنّ الأغراضَ البلاغيّةَ للحذْفِ كما جاءت في الكتاب تُعدُّ دليلاً صريحًا على العُمقِ البلاغيِّ عندَ سِيبَويه وأثرِه الواضحِ فيه، وقد تعدّدتْ هذه الأغراضُ وتنوّعتْ، فجاءت على النّحوِ الآتي:

* الحذْفُ لكثرةِ الاستعمالِ
* الحذْفُ لعلّةٍ صوتيّةٍ وهي الاستثقالُ في النُّطق.
* الحذْفُ للمُشابهةِ
* الحذْفُ للضّرورةِ
* الحذْفُ للاستغناءِ وعدمِ الحاجةِ
* الحذْفُ للتّخفيفِ أوِ الاستخفافِ
* الحذْفُ لامتناعِ اللّبْسِ
* الحذفُ لتوسيعِ عملِ الفعْلِ
* الحذْفُ للاختصارِ
* الحذفُ نهيًا عنِ القيامِ بالفعلِ
* عدمُ الاستعمالِ والسّعةِ
* علْمُ المخاطَبِ بالشّيءِ المحذوفِ
* علْمُ المُخبَرِ بهذا الكلامِ
* فهمُ الكلامِ والمعنَى
* استحسانُ الحذْفِ على الذِّكْرِ
* سَعةُ الكلامِ والإيجازُ

5 - لقدِ استطاع سِيبَويه بفطنتِه اللُّغويّةِ والبلاغيّةِ أن يشيرَ إلى غرضٍ بلاغيٍّ لم يُشرْ إليه في كُتبِ البلاغةِ، وهو إبرازُ فطنةِ المتحدّثِ وسُرعةِ بديهتِه، وقدِ اسْتُنْتِجَ هذا الغرضُ من خلالِ حديثِه عنِ الحذْفِ في بعضِ الأبوابِ التي وردتْ في كتابِه.

---

(25) الخصائص: 2/362. والبيت لعمر بن أبي ربيعة في ديوانه: 178/1 برواية وإنْ كنتُ قد كلّفتُ.
(26)الكتاب: 211/1
(27) خزانة الأدب: عبد القادر البغدادي ت(1093)ه، دار صادر، بيروت 364/1
(28) المصدر نفسه: 358/4
(29) الكتاب: 2/-134 135
(30) ديوان الأعشى الكبير:تح، محمد أحمد قاسم، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1 /1994. ص58
(31)الكتاب: 137/2
(32) ديوان الأعشى الكبير: ص325.
(33) خزانة الأدب: 290/4
(34) الكتاب: 2/-141 142. ومعنى ألْبٌ أي تجمّعوا عليكم. انظر لسان العرب مادة (ألب)
(35) سورة البقرة 171.
(36) الكتاب:212/1.
(37) الكتاب: 2/344-345
(38)سورة النساء: 159
(39) ديوان النابغة الذبياني: صنعة ابن السكّيت، ت(244ه)، تح، شكري فيصل، دار الفكر.ص198. ومعنى شنّ: القربة الخَلَق مصنوعة من الجلد. لسان العرب: مادة (شنن).
(40) خزانة الأدب: 2/311، وهو منسوب إلى حكيم بن معية.(والشاهد: حذف الاسم الموصوف، والتقدير: لو قلتُ ما في قومها أحدٌ يفضلها لم تكذب فتأثم).
(41) الشاهد فيه: حذف الاسم لدلالة الصفة عليه، والتقدير: فمنهما تارة أموت.
(42) الكتاب: 2/346.
(43)سورة يوسف:82
(44) الكتاب: 1/212.
(45) ديوان النابغة الجعدي: تح: عبد العزيز رباح، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، ط/1964. 242.
(46) الكتاب: 1/213-214
(47) سورة مريم: 69.
(48) الكتاب: 2/399.
(49) الكتاب: 2/400.
(50) ديوان العجاج: واللتيا تصغير التي على غير قياس، وهو تصغير في معنى التشنيع والتفظيع، والشاهد فيه حذف صلة Sالتي» اختصاراً لعلم السامع بما أراد.
(51) الكتاب: 2/347.

معنى اسم (كلباء)

الكَلِبَة: شجَرةٌ شاكّة تعلقُ بِمَن يَمُرُّ بها، ويُطلِقون عليها في (كلباء) اسم: أمّ الغيلان، وهي شجَرةٌ معروفة تنبُت على الأسوار، في الأرضِ القاحِلَة، وهي الوَحيدَةُ الّتي تَبقى بينَ الأشجارِ حتّى إذا مرَّ بها الزَّمَن، ويُقال للأرض الّتي تَكْثُرُ فيها تلكَ الأشجار: أرض كَلِبَة أو كَلْباء.

رمـز الاستجـابة السريـعة لشـرح صاحـب السمّوّ حاكم الشّارقة لمعنى اسم كلباء





مُعجَميّات

الدّلَالَـةُ الإِفْـرَادِيّةُ فـي الشَّوَاهِدِ القُرآنيّةِ للمُعْجَمِ التَّارِيخـيِّ للُّغَـةِ العـرَبيَّـةِ



د. بكري محمد الحاج
رئيس مجمع اللّغة العربيّة السّوداني

تأتي هذه الورقةُ إسْهَامًا منَ الباحثِ في أبحاثِ مجلّةِ مَجمعِ اللّغةِ العربيَّةِ بالشّارقةِ، بموضوعٍ يتّصلُ بالمُعْجَمِ التّاريخيِّ، يتعلّقُ بشواهدِهِ القُرآنيَّةِ التي وردتْ في أحدِ جُذورِه. وقد جاءتِ الورقةُ بعُنوان: (الدّلالةُ الإفْرَاديّةُ في الشَّوَاهِدِ القُرآنيَّةِ للمُعْجَمِ التَّاريخيِّ للُّغَةِ العربيَّةِ). وتهدفُ هذه الورقةُ إلى إبرازِ جهودِ اتّحادِ المجامعِ اللُّغويَّةِ العلميّةِ العربيّةِ، ومجمعِ الشّارقةِ، والمجامعِ الأُخرَى والمراكزِ البحثيّةِ؛ في إنجازِ مشروعِ المُعجمِ التّاريخيِّ للُغةِ العربيَّةِ من ناحيةٍ، وتقديمِ نموذجٍ لإمكانِ استثمارِ مدوّنةِ المُعجمِ التّاريخيِّ في البحثِ اللّغويِّ على مُستوَى الدّلالةِ، ومن ناحيةٍ أُخرَى ترمِي الورقةُ- من خلالِ الدّراسةِ التّطبيقيّةِ - إلى التّعريفِ المُوجزِ بالمنهجِ العلميِّ(1)، الذي مكّنَ من إنجازِ مائةٍ وسبعةٍ وعشرين مجلّدًا منه، قامَ بإطلاقِها صاحبُ السّموِّ الشّيخُ الدّكتور سلطانُ بنُ محمد القاسميّ - حفظَه الله- حاكمُ الشّارقةِ الرّئيسُ الأعلى لمجمَعِها خلالَ الأعوامِ 2021م إلى 2024م.



2 - **عيِّنَةُ البَحْثِ:**

وقعَ الاختيارُ على عيِّنَةٍ منَ الطّبعةِ الأُولى التي أصدرَها اتّحادُ المجامعِ اللُّغويَّةِ العربيّةِ، ومجمعُ اللُّغةِ العربيّةِ بالشّارقةِ للمُعجمِ التّاريخيِّ، من حرفِ السّين، وقد بلغت إحدَى عشْرة آيةً، وردتْ في أربعةِ مداخلَ من هذا الجذرِ، وهي مبيَّنةٌ في الجدولِ الآتي:

المدخلُ	عددُ الآيات	النّسبةُ
سألَ	7	%63.6
تساءلَ	2	%18
السّائلُ	1	%9
السُّؤلُ	1	%9

يلاحـظُ أنَّ أكثرَ الصِّيغِ وُرودًا في هذه العيِّنةِ هي الصّيغُ الفعليّةُ (سأل)، وأقلُّها الصِّيغتان الاسميّتان (السّائلُ)، و(السُّؤْلُ).

وهذه الشّواهدُ عيِّنةُ البحثِ نصوصٌ لُغويَّةٌ تحملُ رسالةً من مُرسِلٍ إلى مخاطَبٍ، وتُعَدُّ مِنْ ثَـمَّ خطابًا محمَّلًا بمضامينَ لُغويَّةٍ، مَصُوغةٍ بأشكالٍ لُغويَّةٍ مترابطةٍ لفظيًّا ودلاليًّا بفضلِ عناصرِ الرّبطِ اللّفظيّةِ منها، والمعنويّةِ، فضلًا عنِ السّياق، وسيتتبّعُ البحثُ دلالةَ المفرداتِ القُرآنيّةِ التي استشهدَ بها المعجمُ من خلال العيِّنةِ المختارةِ للبحث، مقابَلةً بالمعاني الكلّيةِ للجذرِ (سألَ) الذي أورد المُعجمُ التّاريخيُّ له معنيَين كلّيَّيْنِ هما: الطّلبُ والاستخبارُ، والمراجعةُ والمحاسبةُ(2).

3 - **مُصطلحاتُ البحثِ:**

- المُعجمُ التّاريخيُّ: "هو مُعجمُ ألفاظٍ قائمٌ على الجُذورِ أوِ الأصولِ اللُّغويَّةِ ينطلقُ مُستعمِلُه منَ اللّفظِ المُعَيَّن؛ بحثًا عنِ المعلوماتِ اللّغويَّةِ المختلفةِ التي تتعلّقُ بتصريفِه، وتأصيلِه...»(3)، وقد بيَّن الدّليلُ الاسترشاديُّ لإعـدادِ هذ المُعجمِ الهدفَ منه بالقولِ: «ومن حيث الهدفُ من صناعتِه فهو ليس مجرّدَ مُعجمٍ وصْفيٍّ يتقيّدُ بمرحلةٍ زمنيّةٍ محدّدةٍ، وإنّما يتّسعُ ليُسجّلَ الواقعَ اللّغويَّ، وما طرأَ عليه من تغييرٍ في الثّروةِ اللّفظيّةِ ودلالتِها على مدى العصورِ التّاريخيّةِ للّغةِ ...»(4).

- الشّاهدُ: «هو النّصُّ اللُّغويُّ الذي يُستدلُّ به على وجودِ اللّفظِ المعيّنِ بدلالةٍ معيَّنةٍ في الاستعمالِ اللّغويِّ، ويُستدلُّ في تعْيينِ الدّلالةِ ورصْدِها في المُعجمِ التّاريخيِّ على الشّاهدِ المقتبَسِ منَ المدوَّنة»(5) .

> **المُـعـجـمُ الـتّـاريـخـيُّ: "هـو مُعجمُ ألفاظٍ قائمٌ على الجُذورِ أوِ الأصولِ اللُّغويَّةِ ينطلقُ مُستعمِلُه منَ اللّفظِ المُعَيَّن؛ بحثًا عـنِ المعلوماتِ اللّغويَّةِ المختلفةِ الـتـي تتعلّقُ بتصريفِه، وتأصيلِه.**

4 -**المنهجُ العلميُّ للمُعجمِ التّاريخيِّ:**

حرصَ اتّحادُ المجامعِ اللّغويَّةِ على وضْعِ مَنهجٍ علميٍّ عام 2018م، وأُجريت عليه عدَّةُ تعديلاتٍ، وقد قسَّم هذا الدّليلُ عُصورَ اللّغةِ إلى خمسةِ عُصورٍ: تبدأُ بعصْرِ ما قبلَ الإسلام، وتنتهي بالعصرِ الحديثِ، ورُتِّبت ألفاظُ العربيّةِ المُستعمَلةِ في هذه العصورِ بحسبِ أصولِها (الجُذور) بناءً على الحرفِ الأول ثمّ الثّاني ثمّ الثّالث، وتحت كلِّ جذرٍ تأتي المداخلُ الـمُعجميّةُ، وفي ترتيبِ المداخلِ تأتي الأفعالُ أوّلًا متقدّمةً على الأسماءِ، ويقدّمُ الفعلُ الثّلاثيُّ على الرُّباعيِّ، والمجرّدُ على المزيدِ، واللّازمُ على المتعدّي بأنواعِه(6)، ورُتِّبتِ الأفعالُ في كلِّ فئةٍ ممّا ذُكر التّرتيبَ الذي سارت عليه كُتبُ الصّرفِ العربيِّ(7).

أمّا الأسماءُ فيأتي التّأريخُ لها "بعدَ الأفعالِ مُباشرةً، ويؤرّخُ فيها للأسماءِ الجامدةِ، وما تمحّضَ للاسميّةِ منَ المشتقّات... وتُرتَّبُ المداخلُ الاسميّةُ ترتيبًا هجائيًّا...» (8) .

وذكرَ دليلُ المُعجمِ التّاريخيِّ أنّه: «يُكتفَى بشاهدٍ واحدٍ لكلِّ مُتغيِّرٍ في المبنى أوِ المعنى في كلِّ عصْرٍ...



ويُستثنى من ذلك العصرُ الإسلاميُّ؛ فيُستدلُّ على كلِّ دلالةٍ بثلاثةِ شواهدَ: يمثّلُ أحدُها لغةَ القرآن الكريم، وثانيها لُغةَ الحديثِ النّبويِّ، وثالثُها كلامَ العربِ نثرًا أو شعرًا»(9) .

وقد حظيَ الاستشهادُ بالقرآن الكريم منذُ سِيبَويه في كتابه، وقد قال أبو البقَاء العُكْبَريُّ: «فأوّلُ مبدوءٍ به من ذلك تلقّفُ ألفاظِه عن حُفّاظِه، ثمّ تلقّي معانيه ممّن يُعانِيه، وأقْوَمُ طريقٍ يُسْلَكُ في الوقوف على معناه، ويُتوصّلُ به إلى تبيُّنِ أغراضِه ومَغزاه، معرفةُ إعرابِه، واشتقاقُ مقاصدِه من أنحاء خطابه..»(10).

وبناءً على هذه الأهميّةِ للاستشهادِ بألفاظِ القُرآن الكريم فقدِ اهتمَّ المعجمُ التّاريخيُّ بشواهدِه، وفي ضوء العيِّنة التي أوردَها الباحثُ من قبْلُ يُتَناوَلُ عددٌ منَ الشّواهدِ القُرآنيّةِ؛ للوقوفِ على دلالةِ الألفاظِ الواردةِ فيها بناءً على سياقاتِها، مقارنةً معانِيها بالمعاني الكلّيّةِ للجذرِ (سألَ) الذي أُخذت منه عيِّنةُ البحثِ بإذن الله تعالى، وذلك على الوجهِ الآتي:

5– سِياحةٌ مع بعضِ الشّواهدِ من عيِّنةِ الدّراسةِ:

ذكرَ الباحثُ من قبْلُ أنَّ المعانيَ الكلّيةَ للجذرِ (س أ ل) موضعِ البحثِ ،وَ المنبثقةَ عنِ المداخلِ الخاصّةِ به تنحصرُ في أمرين: الطلبُ والاستخبارُ، والمراجعةُ والمحاسبةُ(11). وبمراجعةِ معانِي الأفعالِ والأسماءِ المتفرّعةِ عن مداخلِ هذا الجذرِ نجدُ أنَّ تسعةَ معانٍ

”

هو ليس مجرّدَ مُعجمٍ وصْفيٍّ يتقيّدُ بمرحلةٍ زمنيّةٍ محدّدةٍ، وإنّما يتّسعُ ليُسجّلَ الواقعَ اللّغويَّ، وما طرأَ عليه من تغييرٍ في الثّروةِ اللّفظيّةِ ودلالتِها على مدى العصورِ التّاريخيّةِ للّغةِ.

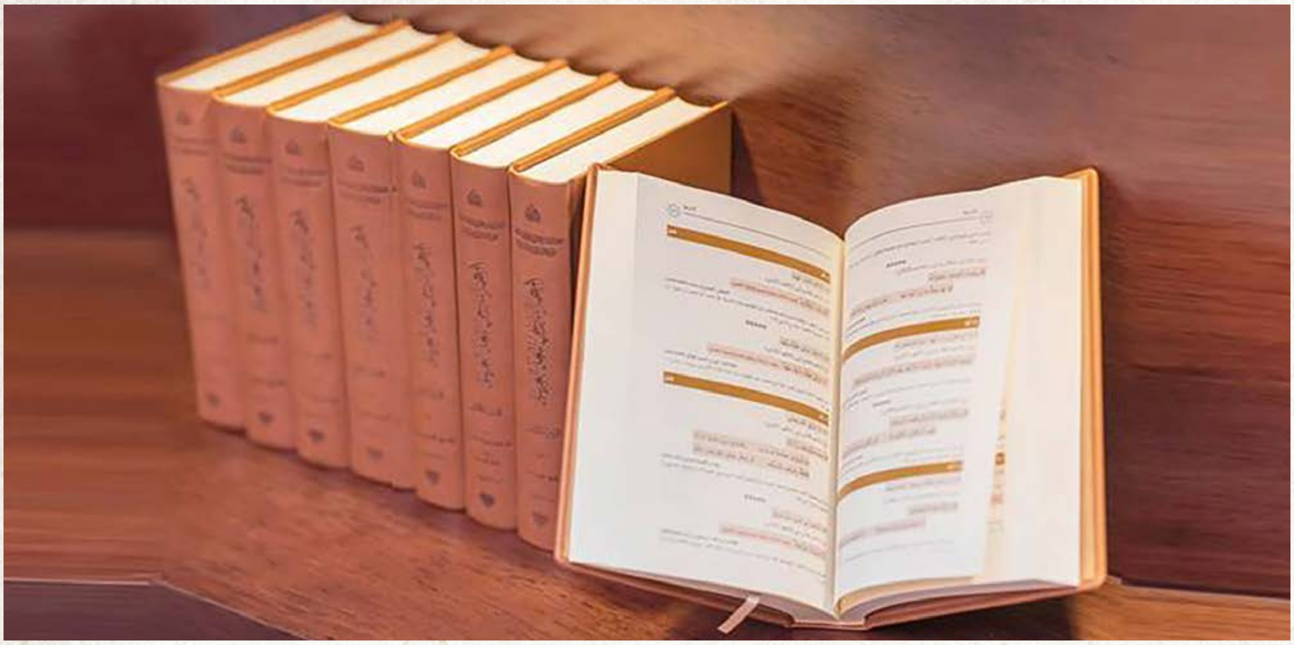
”

الشّاهدُ: «هو النّصُّ اللُّغويُّ الذي يُستدلُّ به على وجودِ اللّفظِ المعيّنِ بدلالةٍ معيَّنةٍ في الاستعمالِ اللّغويِّ، ويُستدلُّ في تعْيينِ الدّلالةِ ورصْدِها في المُعجمِ التّاريخيِّ على الشّاهدِ المقتبَسِ من المدوَّنة».

ترتبطُ بالمعنَى الكلّيّ الأوّلِ (الطّلبُ والاستخبارُ) وأنَّ معنيَين فقط يَرتبطان بالمعنَى الكلّيّ الثّاني وهو (المراجعةُ والمحاسبةُ). وبناءً على هذا يُفَصَّلُ الحديثُ عن بعض المعاني للشّواهدِ القُرآنيّةِ التي أوردَها المُعجمُ التّاريخيُّ مُرتبطةً بالمعنيَين الكُلّيّين المشارِ إليهما على التّرتيبِ الآتي:

1/5 المعاني المرتبِطةُ بالمعنَى الكلّيِّ الأوّلِ:

– المثالُ الأوّلُ: قولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ (12). ويرتبطُ المعنَى للفعلِ المأخوذِ منَ الفعلِ الثّلاثيّ (سأل) في قولِه (لا تسألوا) بالطّلبِ والاستخبارِ، وقد رُويَ أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم لما قرأ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [آل عمران: 97] وقال: «يا أيّها النّاس كُتب عليكم الحجُّ»، فقام رجلٌ فقال: في كلِّ عامٍ يا رسول الله؟ فأعرضَ عنه... ثم عاد؛ فقال: "والذي نفسي بيده لو قلتُ نعم لوجبَ، ولو وجبَ ما استطَعْتموه...» ثمّ قال: «إنّما هي حجّةٌ واحدةٌ – أو قال: مرّةً واحدةً»(13). والنّهيُ ليس متوجّهًا للطّلب بقصْدِ المعرفة، وإنّما النّهيُ عن كثرةِ السُّؤال المُفضِي إلى جلْبِ العُسر، وهذا أيضًا وردَ في قولِه صلى الله عليه وسلم: (إنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قيلَ وَقالَ، وإضَاعَةَ المَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ.(14)



-المثالُ الثّاني: قولُه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (15)

جاء الفعلُ (يسأل) مكوّنًا مع الفاعلِ والمفعولِ جملةً فعليّةً خبريّةً موسّعةً، والسّائلون همُ الصّحابةُ، والمخاطَبُ النّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم، والرّادّ على سؤالهم المولى سبحانه وتعالى بقوله: ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ ، قال ابنُ عبّاس: «نزلتْ هذه الآيةُ في شأن معاذِ بنِ جبلٍ، وثعلبةَ بنِ عنمةَ الأنصاريِّ، لأنّهما قالا: يا رسولَ الله ما بالُ الهلال يبدُو فيطلعُ دقيقًا مثلَ الخيط، ثمّ يزيدُ حتى يعظُمَ ويستويَ ويستدير، ثمّ ينقصَ؟! فنزلتْ هذه الآية:﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ أي هي: علاماتٌ للنّاس في حلّ ديونِهم، وصوْمِهم وفطْرِهم، وعدّةِ نسائِهم ووقتِ الحجّ»(16). وواضحٌ من هذا السّياقِ دلالةُ هذا المعنى، وارتباطُه بالطّلبِ والاستخبار.

حرصَ اتّحادُ المجامعِ اللّغويّةِ على وضْعِ منهجٍ علميٍّ عام 2018م، وأُجريت عليه عدّةُ تعديلاتٍ، وقد قسّم هذا الدّليلُ عُصورَ اللّغةِ إلى خمسةِ عُصورٍ؛ تبدأُ بعصْرِ ما قبلَ الإسلامِ، وتنتهِي بالعصرِ الحديث.

- المثالُ الثّالث: قولُه تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ (17). ويُوقفُنا المُعجمُ التّاريخيُّ في هذه الآيةِ الكريمةِ على توسُّعِ دلالةِ الطّلبِ؛ لتَشملَ عدمَ طلبِ العطيّةِ والصّدقةِ، تعففًا عمّا في أيدِي النّاس، على الرّغمِ من حاجةِ الفُقراء، وحبْسِهم أنفُسَهم على الجهادِ في سبيل الله، "وقالوا أَحْصَرهم عَدوّهُم؛ لأنّه شَغَلَهُمْ بِجهادِهِ، ومعنى (أُحْصِرُوا) صاروا إلى أن حصَروا أنفسَهم للجهاد»(18).

المثالُ الرّابعُ: قولُه تعالى : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ (19). وهنا في هذه الآيةِ يتوجَّهُ الطّلبُ

إلى دلالةٍ أُخرى تحملُ معنَى الالتجاءِ والتّذلّلِ إلى المولى سبحانه وتعالى، وهو صاحبُ قضاءِ الحاجاتِ، مع النّهي عن تمنّي ما حازهُ الآخرون. "وقال ابنُ عبّاس:نهى الله سبحانه أن يتمنّى الرّجلُ مالَ فلانٍ وأهلَه ، وأمر عبادَه المؤمنين أن يسألُوه من فضله»(20).

المثالُ الخامسُ: قوله تعالى:﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ﴾(21) أي ليَسألَ بعضُهم بعضًا؛ «أي كما أنمَنْاهم، وحفِظْنا أجسادَهم منَ البِلى والتّحلُّل، آيةً دالّةً على كمال قُدرتِنا؛ بعثْناهم منَ النّوم ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ﴾:أي لِيَسألَ بعضُهم بعضًا؛ فيترتّبُ عليه ما فُصّلَ منَ الحِكَم البالغةِ، وجعلُه غايةً للبعث...»(22). والدّلالةُ هنا مع أنّها في إطار طلبِ الاستخبارِ للإحاطةِ بالمدّةِ التي مكثُوها نائمِين، ولكنَّ سياقَ الآيةِ يشيرُ إلى قضيّةِ البعث عند قيامِ السّاعة، وهي أمرٌ يسيرٌ عندَ الله تعالى مثلُه مثلُ صحْوِهم بعد نومِهم الطّويلِ الذي لم يتبيّنوا مدّةَ مُكثِهم فيه.



المثالُ السّادسُ: قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ (23). وهذا المثالُ نموذجٌ ساقَه المُعجمُ التّاريخيُّ من الدّلالةِ الاسميّةِ للجذرِ (س أ ل)، والسّائلُ هو الفقيرُ الذي يطلبُ الصّدقةَ ونحوَها(24)، قال أبو السّعود: «فلا تزجُرْ وَلَا تُغلظْ لهُ القولَ بلْ رُدَّهُ ردًّا جميلاً ... وقيل المرادُ بالسّائل ههنا الذي يَسألُ عنِ الدّينِ» (25).

2/5 المعاني المرتبطةُ بالمعنى الكلّيّ الثّاني:

المثالُ الأوّلُ: قولُه تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾(26). وهذه الدّلالةُ للفعلِ المؤكّدِ (يسألُ) المسنَدِ إلى جماعة الغائبِين ترتبط بالمعنَى الكلّيّ الثّاني لهذا الجذرِ الذي يحملُ دلالةَ المراجعةِ والمحاسبةِ، حينَ يومِ الحساب، حيث يَحملون أوزارَهم،

(1) ينظر: الدليل العلمي المعدل:اتحاد المجامع اللغوية العربية لعام 2021م :1.
(2) المعجم التاريخي للغة العربية، مجمع الشارقة للغة العربية، النسخة الإلكترونية
(3) ينظر: الدليل العلمي المعدل:اتحاد المجامع اللغوية العربية لعام 2021م :1.
(4) الدليل الاسترشادي للمعجم التاريخي اللغة العربية: المنهجية وآلية التحرير:16
(5) المرجع السابق:17
(6)الدليل العلمي المعدل:اتحاد المجامع اللغوية العربية لعام 2021م :1.
(7)ينظر التفاصيل في المصدر السابق:-5 8.
(8)ينظر:الدليل العلمي المعدل:اتحاد المجامع اللغوية العربية لعام 2021م:13 وما بعدها.
(9) المعجم التاريخي للغة العربية 1/-97 98.
(10) إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، أبو البقاء العكبري دار الكتب العلمية، بيروت 1979م/1399هـ:1/3.
(11) المعجم التاريخي للغة العربية، مجمع الشارقة للغة العربية، النسخة الإلكترونية.
(12) سورة المائدة:101.
(13) أخرجه النسائي : كتاب مناسك الحج ، باب وجوب الحج، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، وانظر: تفسير بحر العلوم، للسمرقندي، المكتبة الشاملة1/421.

وأوزارَ مَن أضلُّوهم مع تعرُّضِهم للسّؤال عنها مجتمعةً، وقد أشارَ القرآنُ الكريم إلى التّعرّضِ للمراجعةِ والحسابِ يومَ القيامة في قوله تعالى: {ولتسألنّ يومئذ عن النّعيم} ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ (27) «أي : ثمّ لتسألنّ يومئذ عن شُكرِ ما أنعمَ الله به عليكم، منَ الصّحةِ والأمنِ والرّزقِ وغيرِ ذلك، ما إذا قابلتُم به نعمَه من شُكرِه وعبادتِه»(28).

المثالُ الثّاني: قولُه تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ (29). وقد تكرّرَ الفعلُ(يسأل) في هذه الآية مُثبتًا مرّةً ومنفيًّا مرّةً أخرى، وقد نصّ المعجمُ التّاريخيُّ في التّعريف بهذه الدّلالة بقوله: «على قوله، وهو أمرٌ متعلّقٌ بالله وحده لا ينازعُه فيه سواه»(30). وأورد القُرطبي قولَ ابنِ جريج: «قال: المعنى: لا يَسأل الخلقُ عن قضائِه في خلْقِه، وهو يَسْأل الخلقَ عن عملِهم ؛ لأنّهم عبيدٌ»(31).

6 - خاتمةٌ:

وهكذا أوقفَنا المعجمُ التّاريخيُّ للّغةِ العربيّةِ على الدّلالاتِ المتنوّعةِ التي تفرّعتْ عنِ المداخلِ الفعليّةِ والاسميّةِ التي دارت حول المعاني الكلّيّةِ للجذرِ (س أ ل) من خلال عيّنةِ البحثِ القائمةِ على الشّواهدِ القُرآنيّةِ التي بلغت إحدى عشْرةَ آيةً، وجاءتِ الصّيغُ الفعليّةُ (سأل)، أكثرَ ورودًا في هذه العيّنة، ووصلَ البحثُ إلى أنَّ تسعةَ معانٍ ترتبطُ بالمعنى الكلّيِّ الأوّلِ للجذرِ وهو (الطّلبُ والاستخبارُ)، وأنَّ معنيَين فقط يَرتبطان بالمعنَى الكلّيِّ الثّاني وهو (المراجعةُ والمحاسبةُ). وقد توسّعتْ دلالةُ الطّلبِ لتشملَ نفْيَ طلبِ العطيّةِ والصّدقة، تعفُّفًا منَ الفقراء، ذوِي الحاجةِ، فضلًا عن إشارةِ السّياقِ في بعضِ العيّنةِ إلى قضيّةِ البعثِ ويُسرِها عند الله تعالى، مقارنةً بها سهولةُ إنامةِ أصحابِ الكهفِ ثمّ إيقاظُهم ،وكذلك إيرادُ المعجم معانِيَ أُخَرَ للطّلبِ تتمثّلُ في الالتجاءِ والتّذلّلِ إلى المولى سبحانه وتعالى لقضاءِ الحاجاتِ. وأشار البحثُ إلى دلالةِ المراجعةِ والمحاسبةِ للعِبادِ من قِبَل المولى سبحانه وتعالى يومَ البعثِ، واستحالتِها بالنّسبة إليه؛ لكونه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾.

"رُتِّبت ألفاظُ العربيّةِ المُستعمَلةِ في هذه العصورِ بحسبِ أصولِها (الجُذور) بناءً على الحرفِ الأول ثمّ الثّاني ثمّ الثّالث، وتحت كلّ جذرٍ تأتي المداخلُ المُعجميّةُ، وفي ترتيبِ المداخلِ تأتي الأفعالُ أوّلًا متقدّمةً على الأسماءِ، ويقدّمُ الفعلُ الثّلاثيُّ على الرُّباعيِّ، والمجرّدُ على المزيدِ، واللّازمُ على المتعدّي بأنواعِه.

(14)الجامع الصحيح، للبخاري، المكتبة السلفية ومطبعتها، القاهرة 1400هـ.
(15) سورة البقرة :189
(16) تفسير بحر العلوم،للسمرقندي، المكتبة الشاملة1/153.
(17) سورة البقرة:273.
(18)معاني القرآن وإعرابه للزجاج،تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب ، بيروت 1318/1988م.
(19)سورة النساء: 32 .
(20) تفسير القرطبي، دار الكتب المصرية، القاهرة 1384هـ/1964م.
(21) سورة الكهف:19
(22) تفسير أبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
(23) سورة الضحى:10
(24) المعجم التاريخي للغة العربية، مصدر سابق نسخة إلكترونية.
(25) تفسير أبي السعود، مصدر سابق ،9/171.
(26) سورة العنكبوت :13.
(27) سورة التكاثر: 8.
(28) تفسير ابن كثير، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض 1420هـ/1999م.
(29) سورة الأنبياء :23.
(30) المعجم التاريخي للغة العربية: الجذر سأل:418.
(31) تفسير القرطبي، دار الكتب المصرية، القاهرة 1384هـ/1964م.

مِـنْ أَسْـرَارِ المُعْجَـمِ التّاريخِيِّ للُّغَةِ العَرَبِيّةِ إِبْحَـــــارٌ في عَوَالِمِ الشّاهِدِ الاستعماليِّ





د. محمد السملالي
باحث لغوي

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصّلاةُ والسّلامُ على أشْرَفِ المرسَلين، وعلى آلِه وصحبِه أجمعينَ.
يمثّلُ الشّاهدُ الاستعماليُّ عنصرًا واحدًا من عناصرِ البطاقةِ المُعجميّةِ في عمليّةِ تحريرِ المُعجمِ التّاريخيِّ للّغةِ العربيّةِ، ولكنّه هو العُنصرُ الأهمُّ، وهو الجسمُ الذي تَسري فيه روحُ المعاني دلالةً على حيويّةِ اللّغةِ واستمرارِها. والتّعاملُ مع الشّاهدِ المذكورِ، يُشبهُ عمليّةَ استخلاصِ الذّهبِ أو تصْفيتِه، لكي نُحصّلَ منه في النّهايةِ سبيكةً لامعةً تسُرُّ النّاظرين.
. ويقتضِي ذلك منَ المحرّرِ أن يتوقّفَ باهتمامٍ عندَ المسائلِ الآتيةِ:
1. تحقيقُ نسبةِ الشّاهدِ إلى قائلِه من أجلِ التّحقُّقِ منَ التّاريخِ الذي يَنتمِي إليه.
3. توثيقُ الشّاهدِ من أقدمِ المصَادرِ، تَوخّيًا للدّقةِ وطلبًا للصّحةِ.
2. تصحيحُ ألفاظِ الشّاهدِ وتخليصُه منَ الأخطاءِ والتّصحيفاتِ والتّحريفاتِ.
4. صياغةُ تقديمٍ مختصَرٍ ومناسِبٍ، اعتمادًا على سياقِ النّصِّ.

ويقتضِي ذلك منَ المحرّرِ أن يتوقّفَ باهتمامٍ عندَ المسائلِ الآتيةِ:

1. تحقيقُ نسبةِ الشّاهدِ إلى قائلِه من أجلِ التّحقُّقِ منَ التّاريخِ الذي يَنتمِي إليه.

3. توثيقُ الشّاهدِ من أقدمِ المصَادرِ، تَوخّيًا للدّقةِ وطلبًا للصّحةِ.

2.تصحيحُ ألفاظِ الشّاهدِ وتخليصُه مِـنَ الأخـطـاءِ والتّصحيفاتِ والتّحريفاتِ.

4. صياغةُ تقديمٍ مختصَرٍ ومناسِبٍ، اعتمادًا على سياقِ النّصّ.

ومن خلال الشّاهدِ الآتـي، سوف نعرضُ للقارئِ الكريمِ نـمُوذجًا من تِلْكُمُ الخُطواتِ، ليرى كيف تتمُّ العمليّاتُ العلميّةُ المعقّدةُ أحيانًا قبْل أن يخرجَ الشّاهدُ المختارُ إلى النّور، والشّاهدُ هو قولُ الشّاعرِ:

ومَشْمولَةٍ رَقَّتْ وراقَتْ فأَصْبَحَتْ
عَلى الشَّرْبِ تَزْهو حينَ تُجْلَى عَلَى الكاسِ
مُعَتَّقَةٌ ما شُمِّسَتْ بَعْدَ عَصْرِها
لإثْمٍ، وكَمْ فيها مَنافِعُ للنّاسِ
ولا عُصِرَتْ يَوْمًا بِرِجْلٍ وَكَمْ لَها
إذا ما أُديرَتْ مِنْ صُعودٍ إلى الرّاسِ

تحقيقُ النّسبةِ وتوثيقُ المصدرِ:

لقد وجدْنا الشَّاهدَ المذكورَ في أربعةِ مصادرَ، نبدأُ بأحدِها عشوائيًّا وهو: «الدّررُ الكامنةُ في أعيان المائةِ الثّامنةِ»، لابنِ حجرٍ العسقلانيِّ (ت: 852هـ)، فنجدُه يَنسبُ الشّاهدَ إلى: (يحيى بنِ أَحْمد بن مِسْعر الكَفْرَطابيّ شرفِ الدّين القَاضِي أَبي سَالم المعرّي، ت: 707هـ)، ولكنَّ ابنَ حجر يعزُو الشّاهدَ عن طريق الذّهبي، ممّا يجعلُنا مُلزَمين بالرّجوعِ إلى الذّهبي نفسِه للتّحقّقِ. ولكنْ قبْلَ ذلك لِننظرْ في مصدرٍ آخرَ وهو: «أعيانُ العصر وأعوانُ النّصر»، لابنِ أيبك الصّفديّ (ت: 764هـ)، فنجدُه يَنسبُ الشّاهدَ إلى شخصٍ مختلفٍ، وهو (القاضي محيي الدّين بنُ عبد الظّاهر، ت: 680هـ)، ثمّ ننتقلُ إلى مصدرٍ آخرَ وهو: «مطالعُ البُدور في منازل السُّرور»، للبهائيّ الدّمشقيّ (ت: 815هـ)، فنجدُه يَنسبُ الشّاهدَ إلى اسم ثالثٍ هو (مجيرُ الدّين بنُ عبدِ الظّاهر)، وهو قريبٌ من سابقِه، ممّا يرجّحُ لدينا أنّه هو القاضي السّابقُ نفسُه وإنّما تَصَحَّفَتْ (محيي) إلى (مجير)، لأنّنا لم نجدْ للاسمِ الأخير ذكرًا في تراجم القُضاة.

لم يبقَ لنا الآن إلّا أن نرجعَ إلى المصدرِ الأساسِ، الذي يبدو أنّه هو أقدمُ من ذكرَ الشّاهدَ وهو: معجمُ الشّيوخِ الكبيرُ، لأبي عبد الله الذهَبيّ (ت: 748)، وبقراءة النّصّ

يمثّلُ الشّاهدُ الاستعماليُّ عنصرًا واحدًا من عناصرِ البطاقةِ المُعجميّةِ في عمليّةِ تحريرِ المُعجم التّاريخيِّ للّغةِ العربيّةِ، ولكنّه هو العُنصرُ الأهمُّ، وهو الجسمُ الذي تَسري فيه روحُ المعاني دلالةً على حيويّةِ اللّغةِ واستمرارِها.



كاملًا يتّضحُ -بيقينٍ- أنّ صاحبَ الشّاهدِ هو شخصٌ رابعٌ غيرُ الثّلاثة المذكورين، يقول الذّهبيُّ في ترجمة شيخِه قاضِي (كَفْرطاب): «يَحْيى بنُ أحمد بنِ مِسْعَرٍ، الفَقيهُ الإمامُ شَرَفُ الدّينِ أَبو سالِمٍ المَعَرِّيُّ المِسْعَرِيُّ الشّافِعيُّ، قاضِي كَفْرطاب. تُوُفِّيَ كَهْلًا في حُدودِ سَنَةِ سَبْعٍ وَسَبْعِمائَةٍ. أَنْشَدَنِي أَبُو سَالِمٍ يَحْيَى بْنُ أَحْمَدَ بِسِرْمِينَ، قال: أَنْشَدَنا أبو جَلَنْك أَحْمَدُ الأَديبُ في مَقْدَشاوِيَّةٍ، وأَجادَ في التَّوْرِيَةِ»، ثمّ ذكرَ الأبياتَ.

إذن فصاحبُ الشّاهدِ هو الشّاعرُ شهابُ الدّين أبو العبّاس، المعروفُ بـ (أبي جَلَنْك الحَلَبيّ، ت: 700هـ=1301م). وما وقع في (الدُّرر الكامنة) إنّما هو وهمٌ ناتجٌ عن رواية القاضِي المذكورِ للأبياتِ. أمّا الوهمُ الواقعُ في (أعيان العصر) فلم يتّضحْ لنا تفسيرُه، ويبدُو ما في (مطالع البُدور) تقليدًا له، مع زيادةِ تصحيفٍ آخرَ.

وهكذا يكونُ تاريخُ الشّاهدِ في هذه الحالةِ مرتبطًا تلقائيًّا بوفاةِ الشّاعرِ،

باعتباره واقعًا قبْلَها قطعًا؛ لأنّنا لم نجدْ قرينةً محدّدةً غيرَها.

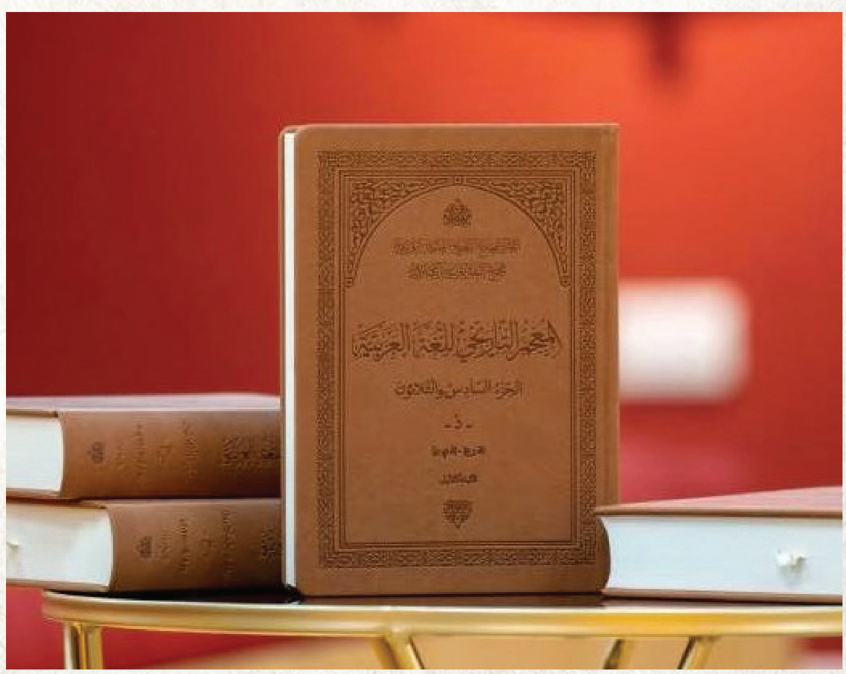
تصحيحُ النّصّ:

أمّا عن تصحيحِ ألفاظِ الشّاهدِ، فإنّنا نجدُ أغلبَ المصادرِ تشتركُ في التّقصير في ضبْطِ الشّاهدِ، مع أنَّ فيه ما يحتاجُ إلى الضّبطِ، مثل (الشَّرب) بفتح الشّين؛ لأنّها هي التي تُحقّقُ التّوريةَ المطلوبةَ، كما سيأتي، ولكنَّ أكثرَها أخطاءً هي طبعةُ (معجم شيوخ الذّهبي، تح: روحية السيوفي، ص: 641)، فقد ضبطتِ (الكأس، الـرّأس) بالهمز، ووافقَها المحقّقُ الآخرُ الحبيبُ الهيلة، في (الرأس)، ولا يخفى أنَّ ذلك يُفسدُ القافيةَ، وأنَّ الصّوابَ بإبدال الهمزِ ألفًا، خصوصًا أنّه يريدُ التّوريةَ بين «الكأس» التي للشّراب، و«الكاسي» الذي يكتسي بالعمامةِ، ولكن يُغتفرُ له حذفُ الياء في هذه الحالة، من أجل تعقيدِ اللّغزِ والتّوريةِ، وأمّا الرأسُ أيضًا فإبدالُها ضروريٌّ؛ لأنَّ الألفَ هي حرفُ الرّدف في القافيةِ، وبتحقيق الهمزِ هنا يحصلُ «سنادُ الرّدف»، وهو من عيوبِ القافيةِ المرفوضةِ. ثمّ يضافُ إلى ذلك الخطأُ في ضبطِ (تُجْلَى)، حيث نَقطتِ الياءَ، لتتعيّن قراءتُها: (تُجْلِي)، فتتحوّلَ من بناء المجهولِ إلى بناء المعلوم، وبذلك يفسدُ المعنى كما لا يخفَى. ثمّ زادت على كلِّ ذلك بتحريفِ عبارةِ التّقديم من (فِي مَقْدَشاوِيَّةٍ) إلى (في مقْرِ شاوِيَةٍ)، حيث صارت بلا معنى أيضًا.

صياغةُ التّقديم:

بعدَ تصحيحِ ألفاظِ الشّاهدِ، نبدأُ في جولةٍ أخرَى من أجلِ اسْتكناهِ معنى الأبياتِ وموضوعِها، لكي نتمكّنَ من صياغةِ التّقديم، الذي يُعينُ القارئَ على فهْمِ السّياقِ الاستعماليِّ للشّاهدِ، وتنزيلِه على المعنَى الذي سيقَ له، حينَها يتبيّنُ أنَّ الشّاعرَ يَستخدمُ التّوريَةَ من أجلِ الإلغازِ عن شيءٍ معيّنٍ، فاستخدمَ أوصافًا مناسبةً للخمرِ، وهو يقصدُ شيئًا آخرَ مختلفًا تمامًا. وقدِ اختلفت عباراتُ المصادرِ في ذلك؛ أمّا الذّهبيُّ (المصدرُ الأساسُ) فجعلَ المُورَّى عنه: "مقدشاويّة"، وأمّا الصّفديُّ فجعلَه: «لِسانَ الحَريرِ الَّذي يَسْتَعْمِلهُ المِصْرِيّون في عَمائِمِهم"، وأمّا البهائيُّ فجعلَه «شملةً»، وأمّا ابنُ حجرٍ فجعلَه "فوطةً شاشيةً».

فنحن إذن أمامَ أربعةِ احتمالاتٍ؛ أوّلُها: المَقْدِشاويّة؛ والتي يظهرُ أنّها تعني النّسبةَ إلى (مقديشو) دون زيادةٍ على ذلك، ونعلمُ من خلال ابنِ بطّوطةَ مثلًا (ت: 779هـــ) أنَّ مقديشو في ذلك العصرِ كانت «تَصنعُ الثّيابَ المنسوبةَ إليها التي لا نظيرَ لها، ومنها تُحملُ إلى ديار مصرَ وغيرِها». والثّاني: لسانُ الحرير، الذي عبّر به الصّفديُّ، وإن لم نجدْه في مصادرَ أخرى، لكنّه تعبيرٌ أكثرُ وضوحًا، إذ يحيلُ عَلى منسوجٍ حريريٍّ يوضعُ تحت العِمامةِ. والثّالثُ: الشَّملةُ، وهي في اللّغة تعني الثّوبَ الذي يَشتَملُ به الإنسانُ، أي يلفُّهُ عليه؛ قال ابنُ سيده: «الشَّمْلةُ: كِساءٌ دُونَ القَطِيفة يُشْتَمل بِهِ»، فهي أيضاً عبارةٌ عموميّةٌ لا تفيدُنا. وبقي الاحتمالُ الرّابعُ: الفوطةُ الشّاشيةُ، فنجدُ أنَّ الفوطةَ أيضًا مثلُ الشّملة، وهي كلمةٌ معرّبةٌ من أصلٍ سِنْدِيّ، وتُطلقُ على «ثيابٍ تُجلبُ منَ السّندِ، الواحدةُ فُوطَةٌ، وهي غلاظٌ قصارٌ تكونُ مآزرَ». ولكنَّ الفوطةَ فيما يبدُو قدِ استُعْملت أيضًا في العمائمِ، حيث نجدُ المقريزيَّ (ت: 845هـ) يصفُ أحدَ مواكبِ الملكِ الظّاهرِ بالقول: «وركبَ الظّاهرُ في موكبٍ إلى المقس بعمامةِ شربٍ مُفوّطةٍ بسوادٍ». أمّا الشّاشيّةُ فهي الطّاقيةُ التي تُلفُّ عليها العمامةُ.



فالخلاصة إذنْ أن المُوَرَّى عنه (المُلغَزَ به) في الأبيات هو جزءٌ مِن مكوّناتِ العمامةِ، ربّما انتشر استعمالُه في حدود القرن الثّامن، وعليه يمكنُ الاستعانةُ بتعبيرِ الصّفديِّ بوصْفِه أكثرَ توضيحًا وتفصيلاً.

استطرادٌ خفيفٌ:

وإذا كنّا بهذا القدرِ قد توصّلنا إلى تقديمٍ مناسبٍ للشّاهِد، فإنَّ من تمام الفائدةِ الأدبيّةِ والبلاغيّةِ أن نُعرّجَ - بإشارةٍ خفيفةٍ - على وجهِ التّوريَةِ المرشَّحةِ التي استخدمَها الشّاعرُ، والتّوريَةُ -كما هو معلوم- ضربٌ منَ البديع المعنويِّ، وتعريفُها: «أنْ يُطلَقَ لفظٌ له معنيان: قريبٌ وبعيدٌ، ويرادُ البعيدُ». ففي حالتِنا المعنى القريبُ هو الخمرُ، والبعيدُ هو لسانُ الحريرِ الذي يحولُ بين العمامةِ والطّاقيةِ، فاستخدمَ الشّاعرُ ألفاظًا تصلحُ للمعنيَين على النّحو الآتي:

* مَشمولةٌ: من أسماءِ الخمْر، وهي في الأصل وصفٌ للخمرِ التي طُرحت حتى أصابتْها ريحُ الشَّمال، ثم صار اسمًا غالبًا عليها. وأمّا في المعنى البعيدِ فتصلحُ وصفًا لكلِّ ثوبٍ يُشتَمَلُ به، ومنه العِمامةُ وملحقاتُها.

* رقّتْ وراقَتْ: وصفانِ يصلُحان للخمرِ وللثّيابِ أيضًا، خصوصًا ثيابَ الحرير.

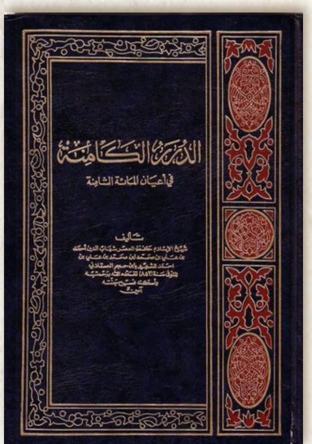
* الشَّرْبُ: في الأصل اسمُ جمعٍ لشاربِ الخمر، كالرَّكْبِ والصّحْب، والشَّرْبُ أيضًا الكتّانُ الرّقيقُ، تُصنعُ منه أنواعٌ منَ العمائمِ الملوّنة.

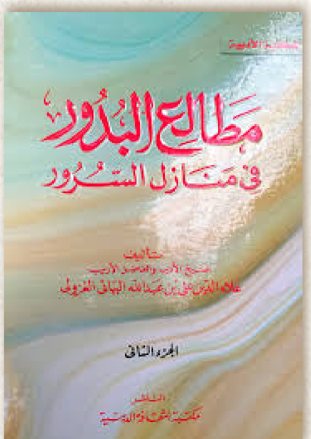
* الكاس: كأسُ الخمر التي تُشربُ بها، والكاسي أيضًا الشّخصُ المكسُوُّ باللّباس، من عمامةٍ أو غيرِها. وهنا اختلف اللّفظان في الرّسم، لكنْ تغليبًا لجانبِ الإلغازِ، تَسقطُ الياءُ ويُكتبُ اللّفظُ على ما يوافقُ المورَّى به، كما هو مذكورٌ في كتبِ الإملاء.

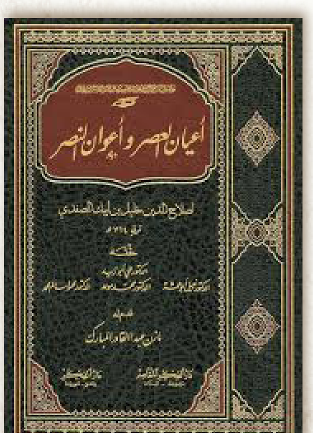
* معتّقةٌ: وصفٌ للخمرِ التي تُتركُ حتى تتقادمَ، وذلك أجودُ لها، كما أنَّ العتيقَ من كلِّ شيءٍ هو الكريمُ الأصيلُ.

* ما شُمّست: التَّشميسُ (وهو محلُّ الشّاهدِ في إيراد الأبيات): مصطلحٌ معروفٌ في استخدامِ الخمر، ويعني تعريضَها للشّمسِ حتى تتخلّلَ، فيذهبَ عنها الإسكارُ. والتّشميسُ في الثّياب أيضًا: تعريضُها للشّمس، وهو هنا منفيٌّ لأنّه يدلُّ على كثرةِ الاستعمال.

بعدَ تصحيحِ ألفاظِ الشّاهدِ، نبدأُ في جولةٍ أخرَى من أجلِ اسْتكناهِ معنى الأبياتِ وموضوعِها، لكي نتمكّنَ من صياغةِ التّقديم، الذي يُعينُ القارئَ على فهْمِ السّياقِ الاستعماليِّ للشّاهدِ، وتنزيلِه على المعنَى الذي سيقَ له.







* عصرُها: العصرُ في حقِّ الخمر: هو صناعتُها واستخلاصُها، وفي حقِّ الثّوبِ هو تنشيفُه بعدَ الغسلِ.

* أُديرت: إدارةُ الخمرِ تعني أن يدورَ بها السّاقي على النّدامَى، وأمّا إدارةُ العِمامةِ فهي تكويرُها على الرّأس.

* صعود إلى الـرّأس: تصعدُ الخمرُ في رأس شاربها فتُسكرُه، كما تصعدُ العِمامةُ على رأس صاحبِها فتُزيّنُه.

بعضُ الفوائدِ المُستخلَصَة:

إذا كان الشّاهدُ قد سِيقَ لمقصَدٍ لُغويٍّ مُعجميٍّ، يثبتُ استخدامَ معنى التّشميسِ في سياقٍ حيٍّ في عصرٍ معيّنٍ، فإنَّ هذه الجولةَ قد أتاحتْ لنا - على الهامشِ - مجموعةً منَ الفوائدِ اللّغويّةِ وغيرِها، نُجملُها على النّحو الآتي:

* استدراكُ الأوهامِ المتنوّعةِ في نسبةِ الشّاهدِ إلى غير صاحبِه، ممّا يؤكّدُ ضرورةَ التزامِ الباحثِ العلميِّ دائمًا بالرّجوعِ إلى أقدمِ مصدَرٍ لتحقيقِ المعلومةِ.

* استدراكُ الأخطاءِ المطبعيّةِ الواردةِ في الشّاهدِ في عدّةِ طبعاتٍ، وأبرزُها الطّبعةُ الثّانيةُ من (مُعجم الشُّيوخ) للذّهبيِّ.

* الوقوفُ على استعمالٍ نادرٍ لم نجدْه عند غيرِ الذّهبيّ (في ما نقلَ عن شيخِه)، وهو لفظُ (مقدشاوية)، الذي يبدُو أنّه قد صار اسمًا متمحّضًا لنوعٍ منَ القماشِ في ذلك العصرِ.

* استدراكُ وهمٍ وقعَ فيه د. الحبيبُ الهيلة، محقّقُ معجمِ الشّيوخِ للذّهبيّ، حيث عرّفَ المقدشاوية بأنّها: (امرأةٌ من مقديشو) .

* الوقوفُ على استعمالٍ نادرٍ لم نجدْه عند غيرِ الصّفديِّ في (أعيان العصر)، وهو لفظُ (لسان الحرير)، الذي يبدو أنّه صارَ جُزءًا من مكوّناتِ العِمامةِ في ذلك العصرِ.

* في كتابِه (آفاقُ الشّعرِ العربيِّ في العصرِ المملوكيّ)، أورد د. ياسين الأيوبي الأبياتَ المذكورةَ، ووقعَ في خطأين؛ أحدُهما تقليدُه لابنِ حجرٍ العسقلانيِّ في نسبةِ الأبياتِ إلى القاضي الكَفْرطابيّ، والخطأُ الثّاني في فهْمِ الأبيات، حيث عدّها أبياتاً خمريّةً بالأساسِ، قائلاً: «ومثلُه قولُ شرفِ الدّين الكَفْرطابي ... واصفًا زهوَ الخمْرِ وهي تَرقُّ عنِ الماء وتُجلى على الكأس» إلخ.

خاتمةٌ:

لعلَّ هذا التّطوافَ السّريعَ يوضّحُ لقُرّاء المُعجمِ التّاريخيِّ، جانبًا منَ القيمةِ العلميّةِ والتّاريخيّةِ الكبرَى لهذا المشروعِ، ويوضّحُ أيضًا أنّ ما خفيَ منَ التّحقيقِ العلميِّ أكثرُ وأعظمُ ممّا يظهرُ كثمرةٍ على طرفِ الثّمامِ يلتقطُها القارئُ جاهزةً منقّحةً مُنتقاةً.

فالمعجمُ التّاريخيُّ في الحقيقة هو أشبهُ ما يكونُ بالأبراجِ العملاقةِ التي تُناطحُ السّحابَ، يراها الرّائي فيتعجّبُ من شموخِها وعظمتِها، ولا يَدري أنَّ الأساسَ الذي تقومُ عليه هو ذلك الجزءُ العظيمُ المُختفي تحتَها في أطباقِ الثّرى، وعليه فإنَّ هذا التَّحقيقَ العلميَّ الذي يُحيطُ بأغلبِ الشّواهدِ الاستعماليّةِ، لو قُدّر له أن يُطبعَ مع المُعجمِ لجاءَ المشروعُ في مئاتِ المجلَّداتِ.

المصادر:

* أبو عبد الله الذهَبيّ، معجم الشيوخ الكبير. (1408هـ) تح: محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق، الطائف، المملكة العربية السعودية، ط: 1، ج: 2، ص: 368.

* ابن أيبك الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر. (1418هـ)، تح: علي أبو زيد وآخرين، دار الفكر، دمشق، ج: 4، ص: 520.

* ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. ج: 6، ص: 179.

* البهائي الغزولي، علاء الدين، مطالع البدور في منازل السرور. (1299هـ)، ط: 1، إدارة الوطن، ج: 1، ص: 158.

الهوامش:

(1) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. تح: الأكاديمية الملكية المغربية، ج: 2، ص: 115.

(2) ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ج: 8، ص: 73.

(3) الفراهيدي، معجم العين. تح: مهدي المخزومي وآخر، دار الهلال، ج: 7، ص: 459.

(4) المقريزي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء. تح: محمد حلمي محمد، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، ج: 2، ص: 137.

(5) القزويني، التلخيص في علوم البلاغة. تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ص: 90.

(6) انظر: ج: 2، ص: 525.

(7)ياسين الأيوبي، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي. جروس برس، ص: 343.

الجِفـير

(**الجِفير**) في اللّهجة الإماراتيّة: سلَّةٌ مَصنوعَةٌ من خوص النَّخيل، يَسْتَخْدِمها أهل البحْرِ في حَمْل الأسماك، ويَسْتَخْدِمُها أهل البَرّ في حَمْلِ الرُّطَب، ويمكن استخدامُها في حَمْل المُشتريات من السّوق أيضًا.

و(**الجَفير**) كلمة فصيحة تعني: الكِنانَة، أو الجَعْبة، وهي وعاءٌ يُصْنَعُ من جِلدٍ أو خَشَب توضَعُ فيه السِّهام والنِّبال، ويأتي استعمال الكلمة في اللّهجة الإماراتيّة مُرْتَبِطًا بالمعنى الفصيح نفسه، غيرَ أنَّهُ اختَلَفَ في المادّة المصنوع منها، والأغراض الموضوعة فيه.





نَشْأَةُ المَعَاجِمِ العَرَبِيَّةِ وَتَطَوُّرُهَا عَبْرَ القُرُونِ

تُعَدُّ المعاجمُ العربيةُ من أبرزِ الأدواتِ التي أسهمتْ في توثيقِ وحفظِ اللّغةِ العربيّةِ على مرِّ العصورِ، حيثُ مَثَّلَت وسيلةً لفهمِ النّصوصِ وتفسيرِ المفرداتِ واستيعابِ دلالاتِها المتعدّدةِ. كانتِ الحاجةُ إلى المعاجمِ مُلِحَّةً منذ نشأةِ الحضارةِ الإسلاميةِ، وخاصةً بعد انتشارِ الإسلامِ واتّساعِ رُقعةِ الدّولِ الإسلاميّةِ التي شملت مناطقَ متعدّدةَ اللّغاتِ والثّقافاتِ. ولأنَّ اللّغةَ العربيّةَ كانت لُغةَ القرآنِ الكريمِ والعلمِ والأدبِ، أصبح منَ الضّروريِّ ضبطُ ألفاظِها وفهمُ معانيها بدِقّةٍ.

لَقَدْ بَدَأَ وَضْعُ المعاجمِ العربيةِ مُنْذُ القُرونِ الأُولى للإسلامِ، وأسْهمتْ في إغْنَاءِ المعرفةِ اللّغويّةِ والعُلومِ الإسلاميّةِ، ورَغْمَ اختلافِ طرائقِ تأليفِ المعاجم عبْرَ الزَّمَنِ، ظلَّ الهدفُ الأساسُ منها هو الحفاظَ على اللّغةِ وتطويرَها بما يتلاءَمُ مع مُتغيِّراتِ الزَّمَنِ والاحتياجاتِ.



د.محمود حلمي
كاتب وباحث

=الخليلُ بنُ أحمدَ الفَراهيديُّ ومُعجمُ «العين»

كانتِ البدايةُ الرّائدةُ في المعاجمِ من خلالِ أوّلِ مُعجمٍ عربيٍّ جامعٍ أُلِّفَ، وهو «كتابُ العين» للخليلِ بنِ أحمدَ الفراهيديِّ (ت 175هـ/ 791م)، حيثُ يُعدُّ هذا المعجمُ حَجرَ الأساسِ في عِلمِ المعاجمِ العربيّةِ، ويُمثِّلُ بدايةَ نشأةِ هذا العلمِ في الحضارةِ الإسلاميّةِ، وقدِ استخدمَ الفراهيديُّ منهجًا غيرَ مسبوقٍ في ترتيبِ الحروفِ، واعتمدَ على تصنيفِ الكلماتِ وَفْقًا لمَخارجِ الحروفِ منَ الأعمقِ إلى الأدنى، بدْءًا بحرفِ «العين» الذي اختارَه كعنوانٍ للمُعجمِ.(1)

كانت غايةُ الفراهيديِّ من تأليفِ مُعجمِ «العين» ضبطَ اللّغةِ وفهمَ دلالاتِها في ظلِّ الحاجةِ الماسّةِ إلى ضبطِ ألفاظِ القرآنِ الكريمِ والنّصوصِ الأدبيّةِ المُختلفةِ، وقد أَحْدَثَ هذا العملُ تحدّيًا علميًّا ومنهجيًّا، حيثُ إنّه لم يكن يعتمدُ على الترتيبِ الأبجديِّ المعتادِ، بل اتّبعَ نهجًا صوتيًّا، ممّا تطلّبَ منَ الباحثينَ واللّغويّينَ جُهدًا كبيرًا لفهمِ ترتيبِ الكلماتِ والوصولِ إلى معانِيها.

رغمَ صعوبةِ استخدامِه لبعضِ الباحثين، فإنَّ مُعجمَ «العين» يُعدُّ قمّةً في الإبداعِ اللّغويِّ، حيثُ وضعَ الأساسَ لمنهجيةِ البحثِ اللّغويِّ وصنعَ حجرَ الزّاويةِ الذي سيعتمدُهُ اللّغويّونَ لاحقًا في تأليفِ المعاجم.

إسماعيلُ الجَوهرِيُّ ومُعجَمُ «الصّحَاح»



في القرنِ الرّابعِ الهجري، جاءَ إسماعيلُ بن حمّاد الجوهريُّ (ت 393هـ/ 1003م) ليُضيفَ نقلةً نوعيّةً في عالمِ المعاجم من خلالِ مُعجمِهِ الشّهيرِ «الصّحاح»، ويُعدُّ هذا المعجمُ إحدى المحطّاتِ البارزةِ في تطوُّرِ المعاجمِ العربيّةِ؛ حيثُ قامَ الجوهريُّ بترتيبِ الكلماتِ وَفقًا للحروفِ الأبجدية، إلا أنَّهُ استخدمَ التّرتيبَ الأبجديَّ الذي يبدأُ بالهمزةِ وينتهي بالياء، وهو التّرتيبُ الذي سهَّلَ على القُرّاءِ والباحثينَ الوصولَ إلى الكلمةِ المطلوبةِ(2) .

تميّزَ «الصّحاح» بتبسيطِ عمليّةِ البحثِ والتّفسير، حيثُ كانَ مُعجمًا مَرجعًا شاملاً وموثوقًا، يهدفُ إلى توضيحِ معاني الكلماتِ ومعرفةِ أصولِها وتصاريفِها المختلفةِ. وكانَ لهذا المعجمِ أثرٌ كبيرٌ على الأجيالِ اللّاحقةِ من اللُّغويّين، حيثُ اقتُبسَ منهُ في العديدِ منَ المعاجمِ اللّاحقة.

ابنُ منظورٍ و«لِسَانُ العَرَبِ»

يُعدُّ مُعجمُ «لسانِ العرب» لابنِ منظورٍ (ت 711هـ/ 1311م) من أضخمِ المعاجمِ العربيّة وأكثرِها شُهرةً وانتشارًا، بل كانَ هو ذروةَ الإنتاجِ اللّغويِّ، فإذا كانَ معجمُ «العين» هو بدايةَ التّأليفِ المعجميِّ، فإنَّ «لسان العرب» يُعدُّ تتويجًا لتلكَ الجهود. جمعَ ابنُ منظورٍ بينَ دفَّتيْهِ خُلاصةَ المعاجمِ السّابقةِ وأضافَ إليها موادَّ لُغويّةً وشعريّةً وأمثالاً عربيّةً، حتى أصبحَ موسوعةً لُغويّةً وثقافيّةً في آنٍ واحد(3).

تَميّزَ ابنُ منظورٍ في «لسانِ العرب» بتجميعِهِ لمادّةٍ لُغويّةٍ واسعةٍ، واستفادَتِه من مصادرَ متنوّعةٍ، منها "تهذيبُ اللّغةِ" للأزهريِّ و«المحكمُ» لابنِ سيدَه. وقدِ استطاعَ أن يضعَ مُعجمًا يُعَدُّ حتى يومِنا هذا مَرجعًا لا غنًى عنهُ للباحثينَ واللّغويّينَ في مختلفِ مجالاتِ اللّغةِ العربيّةِ.

كانتِ البدايةُ الرّائدةُ في المعاجمِ من خلالِ أوّلِ مُعجمٍ عربيٍّ جامعٍ أُلِّفَ، وهو «كتابُ العين» للخليلِ بنِ أحمدَ الفراهيديِّ حيثُ يُعدُّ حَجرَ الأساسِ في علمِ المعاجمِ العربيّةِ ويُمثِّلُ بدايةَ نَشأةِ هذا العلمِ في الحضارةِ الإسلاميّةِ.

اعتمدَ ابنُ منظور التّرتيبَ الأبجديَّ التّقليديَّ مع إرجاعِ الكلماتِ إلى جذرِها الثُّلاثيِّ، ممّا جعلَ المُعجمَ دقيقًا ومنهجيًّا في استعراضِ الألفاظِ ومعانيها المختلفةِ. إنَّ هذا المعجمَ لم يكنْ مجرّدَ مرجعٍ لُغويٍّ، بل كان أيضًا سجلاًّ للحضارةِ العربيّةِ والإسلاميّةِ وثقافتِها المتنوّعةِ.

القامُوسُ المُحِيطُ للفَيرُوزآبادي

مع حلولِ القرنِ الثّامنِ الهجري، ظهرَ مُعجمُ «القاموسُ المحيطُ» لمؤلّفِهِ مجدِ الدّينِ أبي طاهرٍ محمّدِ بنِ يعقوبَ الفَيرُوزآباديّ (ت 817هـ/ 1414م)، وهو مُعجمٌ قدّمَ للعالمِ العربيِّ أداةً لُغويّةً سهلةَ الاستخدام وشاملةً في آنٍ واحدٍ. كان الفَيرُوزآبادي يسعَى إلى تقديمِ مُعجمٍ يُلبّي حاجاتِ الباحثينَ والعلماءِ بطريقةٍ سَهْلَةٍ، فجاء «القاموسُ المحيطُ» ليكونَ مرجعًا عمليًّا واسعَ الانتشارِ.

اعتمدَ الفَيرُوزآبادي على التّرتيبِ الأبجديِّ المُتعارفِ عليه، ولكنْ ببساطةٍ وسلاسةٍ في تقديمِ المادّةِ اللُّغويّةِ. وقد حقَّقَ هذا المعجمُ



شهرةً واسعةً، وظلَّ يُستخدمُ قرونًا طويلةً مرجعًا أساسًا في اللُّغةِ العربيّةِ، سواءٌ في المدارسِ أو في الجامعاتِ(4).

مَجْمَعُ اللّغةِ العَرَبيّةِ والمُعْجَمُ الوَسِيطُ

مع دخـولِ العالمِ العربيِّ في عصرِ النّهضةِ، وبدءِ الاحتكاكِ المتزايدِ بالغربِ في القرنِ التّاسعِ عشرَ، ظهرتِ الحاجةُ إلى تجديدِ المعاجمِ لِتُواكبَ التّطوّراتِ العلميّةَ والفكريّةَ. من أبرزِ المحطّاتِ في هذا السّياقِ هو إصدارُ «المعجمِ الوسيطِ» الذي أعدَّه مجمعُ اللّغةِ العربيّةِ بالقاهرةِ عامَ 1960م، حيثُ جاءَ هذا المُعجمُ ليسدَّ حاجةَ العلماءِ والباحثينَ إلى مُعجمٍ شاملٍ يسهلُ فهمُه ،ويَسْتَوْعِبُ تطوُّراتِ العصرِ. تميَّزَ «المعجمُ الوسيطُ» ببنْيَتِه الـمُيسّرةِ واحتوائِه على مصطلحاتٍ جديدةٍ تُناسِبُ المتغيِّراتِ العلميّةَ والثّقافيّةَ، وقدِ اعتمدَ في إنشائِه على أسلوبٍ مبسّطٍ يراعِي حاجاتِ الدّارسينَ ويجمعُ بين الأصالةِ والحداثةِ، ولا يزالُ هذا المعجمُ حتى اليومِ أحدَ أكثرِ المراجعِ اللّغويّةِ استخدامًا في العالمِ العربيِّ.(5)

المَعاجِمُ المُتَخصّصَةُ

مع تطوُّرِ العلومِ والتّكنولوجيا في القرنِ العشرين، ظهرتِ الحاجةُ إلى معاجمَ متخصِّصةٍ تخدمُ مجالاتٍ معيَّنةً منَ المعرفةِ، سواءٌ كانتْ علميَّةً أو فنيَّةً، ومن أبرزِ تلك المعاجمِ هو "المعجمُ الطبيُّ الموحّدُ"، الذي صدرَ عنِ اتّحادِ الأطبّاءِ العربِ ليكونَ مرجعًا للمصطلحاتِ الطبّيّةِ باللّغةِ العربيّةِ.

لم تكنْ هذه المعاجمُ مجرّدَ أداةٍ لتوضيحِ المعاني اللُّغويّةِ، بل أسهمتْ في تعزيزِ مكانةِ اللّغةِ العربيّةِ في المجالاتِ العلميّةِ المعاصرةِ، ممّا جعلَها وسيلةً مهمّةً لربطِ اللّغةِ العربيّةِ بالمعارفِ الحديثةِ.

المَعاجِمُ الرّقْمِيَّةُ في العَصْرِ الحَديث

مع انتشارِ التّكنولوجيا الحديثةِ، دخلتِ المعاجمُ في مرحلةٍ جديدةٍ منَ التّطوّرِ، حيثُ أصبحتْ مُتاحةً عبْرَ الإنترنتِ وبتطبيقاتٍ ذكيّةٍ، ومن أبرزِ الأمثلةِ على ذلك «المعجمُ الرّقميُّ» الذي يتيحُ للمُستخدمينَ سُبلَ الوصولِ السّريعِ إلى معاني الكلماتِ وتصاريفِها بضغطةِ زرٍّ.

تُتيحُ هذه المعاجمُ الرّقميّةُ مُرونةً كبيرةً في البحثِ والاستخدامِ، كما أنّها تعتمدُ على تِقنيّاتِ الذّكاءِ الاصطناعيِّ لتقديمِ محتوًى يُوافِقُ احتياجاتِ المستخدمينَ، ممّا يجعلُ اللُّغةَ العربيّةَ أكثرَ قُدرةً على مُواكبةِ العصرِ.

لقد كانتْ رحلةُ تطوُّرِ المعاجمِ العربيةِ مليئةً بالتّحدّياتِ والإبداعاتِ على مرِّ العصورِ، من مُعجمِ «العينِ» للفراهيديِّ إلى المعاجمِ الرّقميّةِ الحديثةِ، وعكستْ هذه الرّحلةُ التّفاعُلَ المستمرَّ بين العلماءِ والمجتمعِ في سبيلِ الحفاظِ على اللّغةِ العربيّةِ وتطويرِها. وفي ظلِّ تحدّياتِ العصرِ الرّقميِّ واللُّغةِ المعاصرةِ، تبقَى الحاجةُ إلى تحديثِ أدواتِ اللّغةِ وتعزيزِ حضورِها في مختلفِ المجالاتِ أمرًا مُلحًّا لضمانِ استمراريّةِ التّراثِ اللُّغويِّ العربيِّ في مواجهةِ التّغيُّراتِ السّريعةِ في العالمِ.

---

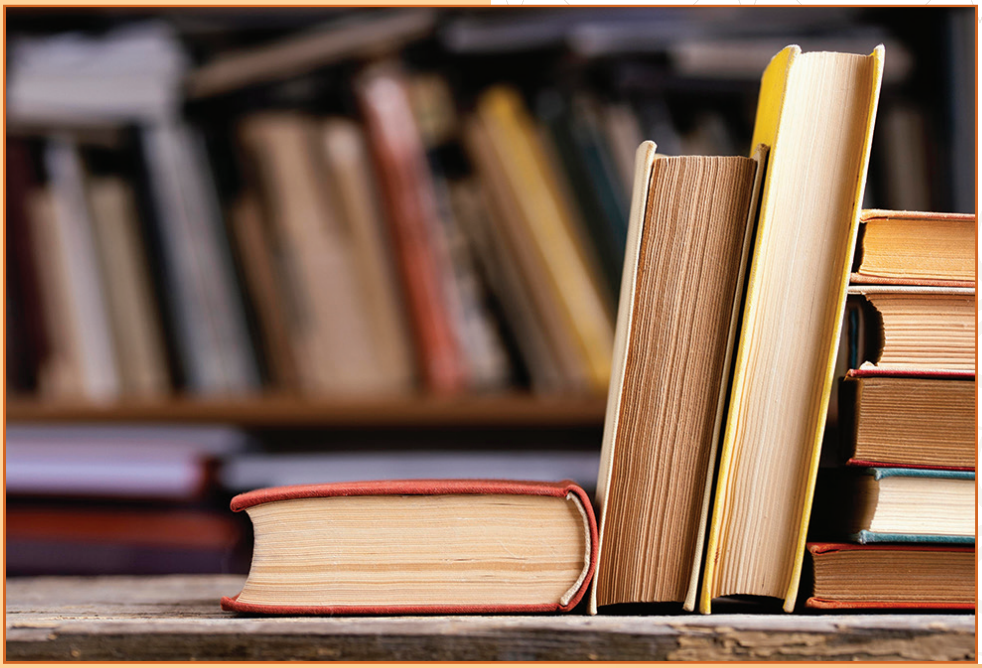
(1) كتاب العين–أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت ١٧٠هـ) –تحقيق/ د.مهدي المخزومي، د.إبراهيم السامرائي– الناشر / دار ومكتبة الهلال.

(2) الجوهري، إسماعيل بن حماد،الصحاح في اللغة–تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، (دار العلم للملايين، بيروت،1984).

(3)ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، (بيروت: دار المعارف، 1981م).

(4) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 2005م).

(5)مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط،القاهرة: دار الدعوة، 2004م.



كُتُبٌ ودِراساتٌ

- العُدُولُ الكَائِنُ القَابِضُ على قُوَّةِ اللُّغَةِ

- كِتَابُ «الشِّــــعْرِ والشُّــعَرَاءِ» لابنِ قُتَيْبَـةَ مَنْهَجُ التَّأْلِيفِ والحُكْمِ النَّقْدِيِّ

- وقفـةٌ معَ الأعْمـالِ الفائِــزةِ فـي جـائِـزَةِ الشّارقَة للدّراســاتِ اللّغَويّة والمُعجَميّة

العُدُولُ الكَائِنُ القَابِضُ على قُوَّةِ اللُّغَةِ





إبراهيم أحمد أردش
كـاتـب

اللُّغةُ هذا الكائنُ القويُّ العَصيُّ، الذي لا يسمحُ بالخطأ، ويقفُ بالمرصادِ لك إذا أردتَ أن تتجاوزَه، أن تعدلَ من صيغةٍ إلى صيغةٍ أُخرى لم يتّفقْ عليها العُرفُ اللّغويُّ، لكنَّ هذا الكائنَ يُصبحُ ليّنًا طيّعًا في يد المُبدعين، والشّعراءِ على وجْهِ الخصوص، فيتعاملون مع اللُّغةِ إبداعيًا كما يَشاؤون ويتجاوزون أنماطَ العُرفِ اللُّغويِّ. إنَّ هذا الفعلَ منهم يزيدُ اللّغةَ جمالاً، ويُثبتُ أنَّ إمكاناتِها غيرُ محدودةٍ؛ لذلك تسمحُ لهؤلاء النّاس المُبدعين بالعُدول.

لقد عُنيَ محلّلو الخطابِ بدراسةِ أنماطِ العُدولِ وأنواعِه وأشكالِه في النّصوص الأدبيّة، وكيفيةِ اختيارِ المبدعِ لِصيغةٍ دونَ الأُخرى، ومنَ البحوثِ التي عُنيت بذلك كتابُ الدّكتورِ سعيد بكّور الموسومُ بـ« مفهومُ العُدولِ».

والكتابُ يبحثُ في ثلاثةِ حقولٍ معرفيّةٍ هي:

1 -النّظريّةُ النّقديّةُ

2 -النّقدُ الشّارحُ (نقدُ النّقد)

3 – قراءةُ التّراثِ البلاغيِّ.

يتكوّنُ كتابُ «مفهومُ العُدول» من مقدّمةٍ وتمهيدٍ وثلاثةِ فصولٍ وخاتمةٍ وقائمةٍ للمصادرِ والمراجعِ، أمّا التّمهيدُ فقد تناولَ «خُصوصيّة الشِّعر» من حيث الإيقاعُ الشِّعريُّ والصّورةُ الشّعريّةُ والنّظمُ الشّعريُّ. والفصلُ الأوّلُ الذي يحملُ عنوانَ «العدولُ شرطُ الشّعرِ وأُسُّه» فقد شمل أربعةَ مباحثَ، أوّلُها «أهمّيّةُ العُدولِ»، وثانيها «مفهومُ العُدولِ ووظيفتُه"، وثالثُها "العُدولُ بين قانونيّةِ اللُّغة ومطلبَي الدّلالةِ والجمالِ»، وتطرّقَ لجدليّةِ المعنى والقاعدةِ والأصلِ والفرعِ، أمّا رابعُ المباحثِ فهو «دواعِي العُدولِ وضوابطُه»، وجاء الفصلُ الثّاني بعنوانِ: حضورُ (العُدول) في التّراث، تناول المبحثُ الأوّلُ منه «العدولُ بين أُحاديةِ المفهومِ وتعدّدِ المصطلح»، والمبحثُ الثّاني تناولَ «حضورُ



د.سعيد بكور

العُدول في كُتبِ التّراث»، أمّا المبحثُ الثّالثُ فتناولَ «حضورُ العُدولِ في كُتبِ النّقدِ والبلاغةِ واللّغة»، وقد حمل الفصلُ الثّالثُ عنوانَ «بين الانزياحِ والعُدول»، تعرّض المبحثُ الأوّلُ منه إلى «الانزياحُ: المفهومُ والخصوصيّةُ»، والمبحثُ الثّاني تناولَ «معيارُ العُدول» والمبحثُ الثّالثُ تناول العلاقةَ «بين العُدول والانزياح».

لقد تناول كتابُ مفهوم العُدول كلَّ ما يتعلّقُ بمصطلح العُدول قديمًا وحديثًا – تقريبًا – على نحوٍ مُوجزٍ، إضافةً إلى قراءةِ بعضِ الأعمالِ التّحليليّةِ التي تعرّضت للعُدول، واتّخذ الكتابُ من مصطلحَي المعسولِ والمغسولِ معيارًا لدراسةِ اللّغةِ الأدبيّةِ، فالنّصُّ المعسولُ هو النّصُّ المتشبّعُ بالجماليات، أمّا المغسولُ فهو العاري عنها، كما مرّر الكتابُ الكثيرَ منَ الأفكارِ والرُّؤى، ومنها:

1 - الدّفاعُ عن النّقدِ العربيِّ القديم:

في معرضِ حديثِ المؤلّفِ عن حضورِ العُدولِ في كُتبِ التُّراثِ النّقديِّ يُشيدُ بالطّبيعةِ التّطبيقيّةِ للنّقدِ العربيِّ القديمِ، حيث «يحضرُ العُدولُ في كُتبِ التّراثِ على اختلافِها حضورًا بارزًا على صعيدَي التّطبيقِ والتّنظيرِ، وإن كان الجانبُ الأوّلُ أغلبَ على الثّاني، نظرًا إلى طبيعةِ النّقدِ العربيّ القديم الذي كان يُولي تتبُّعَ الظّواهرِ وتلمُّسَها في النّصوصِ اهتمامًا، وهو ما جعلَه نقدًا تطبيقيًّا يُعلي منَ الممارسةِ الفعليّةِ النّصّيةِ عِوضَ الاكتفاءِ بالتّنظيرِ والوصفِ المبْتورِ عنِ التّجربةِ النّصّيةِ» إنَّ التّنظيرَ لا يُغني عنِ التّطبيق، لكنَّ التّطبيقَ يحملُ في أَطْوائِه التّنظيرَ بالضّرورةِ .

2 - الاحتفاءُ بالبلاغةِ العربيّةِ التّقليديّة:

يُثبتُ المؤلّفُ أنّ البلاغةَ العربيّةَ بشكْلِها التّقليديِّ قادرةٌ على احتواءِ العُدول بأنماطِه المختلفة، «ويحضرُ العُدولُ في التّأليفاتِ البلاغيّةِ بمختلف أنواعِه، مُشكِّلًا قُطبَ الرّحَى ومدارَ الأمرِ سواءٌ في البيانِ أوِ المعاني أوِ البديع؛ فالأسلوبُ الإنشائيُّ يقومُ في أُسّه على خرقٍ وتجاوُزِ الدّلالةِ التّحقيقيّةِ إلى المعنَى الاستلزاميِّ، أمّا في علم المعاني فلا حصْرَ للتّغيُّرات التي تخضعُ لها التّراكيبُ، أمّا في علم البيانِ فيغدُو الخروجُ منَ الحقيقةِ إلى المجازِ ضروريًّا لخلْقِ المتعةِ وإيصالِ المعنى، أمَّا البديعُ فيكونُ الحرصُ على تغذيةِ الجانبِ الصّوتيِّ وتحسينِ الكلامِ سببًا في العُدولِ إلى الظّواهرِ الصّوتيّةِ والمعنويّةِ التي تخرجُ بالكلامِ إلى إحداثِ الأثرِ الجماليِّ والمعنويِّ»، وبذلك تستطيعُ البلاغةُ العربيّةُ أن تَستوعبَ أنماطَ العُدولِ المختلفةَ، بل هي التي

اللّغةُ هذا الكائنُ القويُّ العَصيُّ، الذي لا يسمحُ بالخطأ، ويقفُ بالمرصادِ لك إذا أردتَ أن تتجاوزَه، أن تعدلَ من صيغةٍ إلى صيغةٍ أُخرى لم يتّفقْ عليها العُرفُ اللّغويُّ.

لقد عُنيَ محلّلو الخطابِ بدراسةِ أنماطِ العُدولِ وأنواعِه وأشكالِه في النّصوصِ الأدبيّةِ، وكيفيةِ اختيارِ المبدعِ لِصيغةٍ دونَ الأُخرى، ومنَ البحوثِ التي عُنيت بذلك كتابُ الدّكتور سعيد بكّور الموسومُ بـ«مفهومُ العُدولِ».

تشكّلُه وتمنحُه القُدرةَ على التّكوين والاختلافِ بين صِيغةٍ وأُخرى.

3 - انتقادُ النّقلِ غيرِ الواعِي منَ الغرب:

ينتقدُ المؤلّفُ النُّقّادَ الذين نقلُوا وترجمُوا المعرفةَ النّقديّةَ الغربيّةَ دون تمحيصِها على نحوٍ واعٍ ودونَ مُراعاةِ السّياقاتِ الثّقافيّةِ بين البيئتَين العربيّةِ والغربيّةِ ما أثّرَ سلْبًا في التّراثِ النّقديّ العربيّ بكلِّ مُنجزاتِه «فلقد عُرفَ عنِ النّقدِ العربيِّ في فترة انفتاحِه الثّقافيِّ تأثّرُه بالنّقدِ الغربيِّ الحديث، محقّقًا أكبرَ نسبةِ استيرادٍ ثقافيٍّ في تاريخ الحضارةِ العربيّةِ، ووصلَ الأمرُ حدَّ الانبهارِ التّامِّ بالمُنجزِ النّقديِّ الغربيِّ، ليعقبَ ذلك نقلٌ لكلِّ فتْحٍ نقديٍّ جديدٍ إلى العربيّةِ، واستيرادٌ مسلوخٌ لكلِّ منهجٍ أو مفهومٍ أو مصطلحٍ، واتّخذ الأمرُ ما يُشبهُ السّباقَ المحمومَ نحوَ من يستوردُ أوّلًا ومن يُوظّفُ بعد ذلك أوّلًا دون مراعاةٍ للبيئةِ الثّقافيّةِ التي اسْتُنبت فيها المفهومُ الجديدُ أوِ المنهجُ الجديدُ. لقد كان الانبهارُ بالغرب عاملًا رئيسيًّا في تهميشِ المُنجزِ النّقديِّ والبلاغيِّ العربيِّ بتراكُماتِه الكثيرةِ، إلى درجةِ أن بقيتْ كثيرٌ منَ المصطلحاتِ والمفاهيمِ النّقديّةِ مُستقرّةً في بطونِ الكُتب، وزاد من حدّة هذا التّهميشِ انصرافُ نُقّادِنا إلى ترجمةِ كلِّ مُصطلحٍ يطفُو على سطحِ النّقدِ الغربيّ». إنّ التّرجمةَ عنِ الغربِ ودراسةَ مُنجزاتِهم المعرفيّةِ ومنها النّقدُ الأدبيُّ يُعدُّ أمرًا بالغَ الضّرورةِ والأهمّية، لكنْ دونَ أن نقبلَ كلَّ شيءٍ على عِلاّتِه مِنْ غَيْرِ نقدٍ أو تمحيصٍ وكأنّه أمرٌ مُسلّمٌ به لا ينبغي لَنا مناقشتُه.

> **ينتقدُ المؤلّفُ النُّقّادَ الذين نقلُوا وترجمُوا المعرفةَ النّقديّةَ الغربيّةَ دون تمحيصِها على نحوٍ واعٍ ودونَ مُراعاةِ السّياقاتِ الثّقافيّةِ بين البيئتَين العربيّةِ والغربيّةِ.**

4 - إمكانيةُ وجودِ العُدولِ في النّصوص النّثريّةِ الفنّية:

قدِ انتقدَ المؤلّفُ ظاهرةَ جعْلِ النّثرِ معيارًا للانزياحِ الشّعريّ، حيث «زادَ الأمرَ إشكالًا اعتبارُ النّثرِ معيارًا ينزاحُ عنه الشّعرُ أيضًا، دون أن يُؤخذَ في الحُسبان النّثرُ الفنّيُ الذي يرتقِي أحيانًا ليتجاوزَ بعضَ الشِّعرِ في لُغتِه وأسلوبِه وخَرقِه للمألوف»، ومن هذا المنطلقِ أُنادي - وقد يتّفقُ معي المؤلّفُ أو يختلفُ - باستثمارِ دراسةِ العُدولِ لدراسةِ المُنجزِ النّثريِّ المعاصرِ من روايةٍ وقصّةٍ قصيرةٍ ومسرحٍ طِبقًا لِشعريّات هذه النّصوصِ وخصائصِها الفنّية، بل ومنَ المُمكن أن تمتدَّ دراساتُ العُدولِ لتشملَ الفنونَ التّشكيليّةَ وفنَّ السِّينمَا.

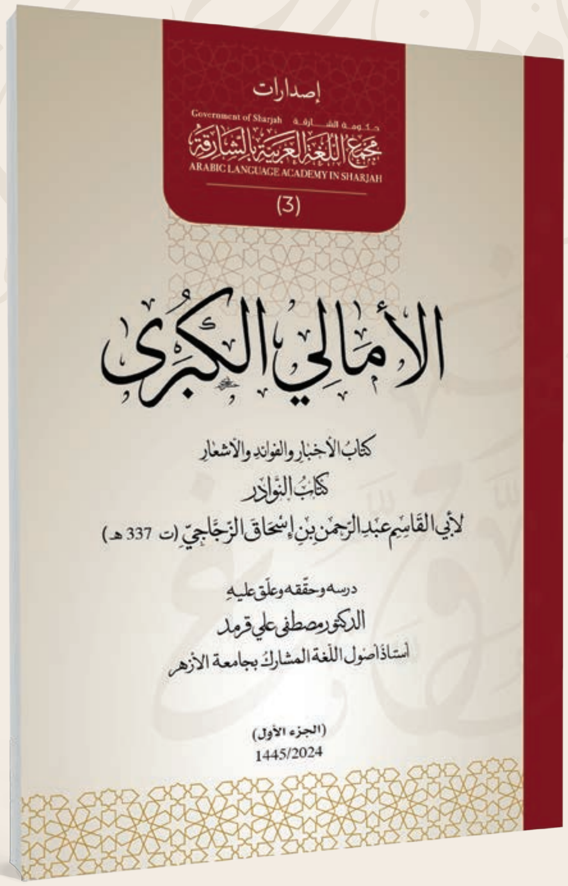
5 - العُدولُ لا يَعني أن يَنسلخَ الشّاعرُ من كلِّ الضّوابط:

العدولُ لا يَعني أن يَهدمَ الشّاعرُ كلَّ القواعدِ الجماليّةِ، والعُدولُ "لا يُرخّصُ للشّاعر بأيِّ حالٍ منَ الأحوال خروجًا يَبتعدُ به عنِ القصديّةِ الجماليّةِ التي تُعدُّ أسمَى ما يرنُو إليه الشّعرُ. لكنَّ ذلك لا يَعني إطلاقًا أن يتصرّفَ الشّاعرُ بجهْلٍ؛ فللّغةِ ضوابطُ، وللشّعرِ سَننٌ، وللنّسقِ أعرافٌ جماليّةٌ ينبغِي أن تُراعَى، ويُؤيّدُ ذلك أنَّ الشّاعرَ يُبدعُ لِمتلقٍّ ينتمِي إلى بيئةٍ معيّنةٍ لها أعرافُها الجماليّةُ"

يُعدُّ كتابُ «مفهومُ العُدول» مرجعًا مُهمًّا لمن أراد أن يُلِمَّ بمفهومِ العُدولِ وخصائصِه، وأشكالِه في التّراثِ وتعامُلِ النّقّادِ معه على نحوٍ شاملٍ ومُوجَزٍ في آنٍ واحدٍ.

---

(1) مفهوم العدول، د. سعيد بكور، كتاب المجلة العربية، العدد (284) الرياض، 1441هـ، 2020م.
(2) السابق، (ص47)
(3) السابق، (ص64) باختصار
(4)السابق (ص71)
(5)السابق، (ص77)
(6)السابق، (ص66)



الإصْـــدار الثّـــالــث

لمجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة

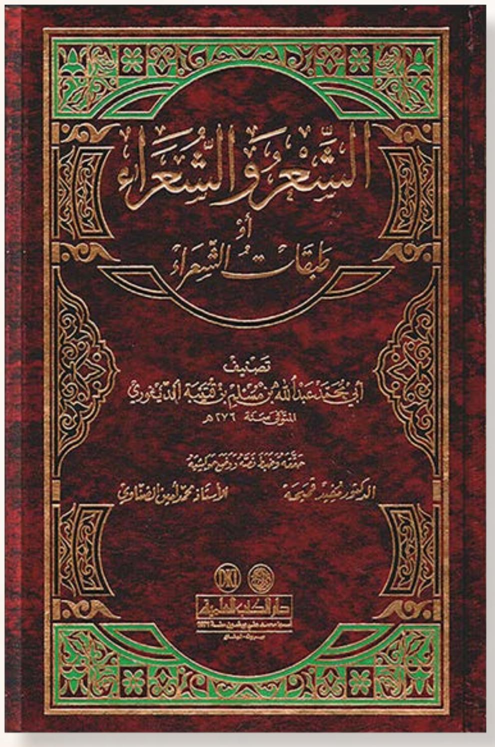
كتابُ الأمالي الكبرى

تأليفُ أبي القاسم الزّجّاجيّ

تحقيق الدكتور مصطفى علي قرمد

لقد أحدث هذا السفر النفيس أثرًا عظيمًا في كثير من المؤلفات اللاحقة به بالنقل عنه والاستشهاد به في المعاجم اللغوية وكثير من المصنّفات اللغويّة والأدبيّة، وورد اسمه فيها بالعناوين الثلاثة الموضحة بالخلاف، والتي أثبتت الدراسة أنها عناوين مختلفة لذات كتاب واحد أملاه أبو القاسم الزجّاجي (ت: ٣٣٧ هـ) -طيّب الله ثراه- وهو كتابٌ موسوعيٌ يحوي كثيرًا من الروايات اللغوية والأدبية عن المتقدمين في مناهج مختلفة كتناولٍ لآيات من الذكر الحكيم وتوضيح لألفاظه وتراكيبه، وتوجيه لقراءاته المتواترة والشاذّة، وشرح لبعض الألفاظ الحديث النبوي الشريف، وأخبار مختلفة ماتعة وأشعار متنوعة، ومفارد -لم ترد في كتاب غيره- لفتوح الشعر في العصور المتتابعة حتى عصر أبي القاسم، وخطب نادرة، ونكات لغوية متفرقة، مذيلة بفوائد لغوية في عقب جل الأخبار والأشعار.

ووضحت الدراسة العلاقة بين كتابنا والمطبوعات الثلاثة (أمالي الزجاجي، وأخبار أبي القاسم، ومجالس العلماء للزجاجي) وإحصاء بالأخبار الواردة في كتابنا مقارنة بها، وجملة ما انفرد به كتابنا عن غيره، وما امتاز به الكتاب من استدراكات لغوية من فائت المعاجم اللغوية، وحواشٍ لغوية قيمة. ولذا يقدم مجمع اللغة العربية بالشارقة هذا الأثر الراسخ من تراث الأمة المجيد بين يدي القراء الكرام مشاركة منه في إحياء التراث، وسعيًا لإغناء المكتبة العربية بهذا السفر التراثي المتميز.



كِتَـــــابُ «الشِّعْرِ والشُّعَرَاءِ»

لابنِ قُتَيْبَةَ مَنْهَجُ التَّأْلِيفِ والحُكْمِ النَّقْدِيِّ



د. رشيد الخديري
باحث

عرفَ النّقدُ العربيُّ انْعطافةً نوعيّةً في القرنِ الرّابعِ الهجريِّ، وازدهرتْ حركةُ التّأليفِ والكتابةِ، ومعها تَحَوّلَ سؤالُ النّقدِ من مجرّدِ انطباعٍ ذاتيٍّ خاضعٍ لمنطقِ الأهواءِ والولاءاتِ القبَليّةِ والفكريّةِ إلى نقْدٍ مبْنيٍّ على أسُسٍ علميّةٍ رصينةٍ، وهو ما يُشَكِّلُ نقلةً على مستوَى التّصوُّراتِ والرُّؤى بخصوصِ تطوّرِ الشِّعريّةِ العربيّةِ وسَيرورتِها، إنْ في شكلِها الأوّلِ المرتبطِ بالشّفاهةِ والإنشادِ وشعريّةِ الغناءِ والإيقاعِ، وإنْ في شكْلِها الكتابيِّ المنذورِ لروحِ العصْرِ وتموُّجاتِ التّاريخِ، ويُعَدُّ ابنُ قُتيبةَ أحدَ أهمِّ النُّقادِ العربِ القُدامَى الذين حاولُوا التّأصيلَ للنّقدِ العربيِّ والعملِ على تطويرِه بما يُناسبُ القصيدةَ العربيّةَ. منَ المعلومِ، أنّ ابنَ قُتيبةَ في مُعظمِ دراساتِه، انكبَّ على التّأمُّلِ في الشِّعريّةِ العربيّةِ مفهومًا ومُنجزًا، ومآلاتٍ ومُرجآتٍ .

وانتهَى إلى حقيقةٍ مُفادها أنَّ الأدبَ العربيَّ وحدةٌ فنّيةٌ متّصلةٌ دائمةُ الامتدادِ في الزّمانِ والمكانِ، وأنَّ معيارَ تحقُّقِ الشِّعريّةِ في هذه القصيدةِ أو تلك مرتبطٌ بالجودةِ الفنّيةِ والتّعبيريّةِ وليست لها صلةٌ بالزّمنيّةِ.

وقد نالَ ابنُ قُتَيْبَةَ شهرةً واسعةً بفضلِ أفكارِه النّقديّةِ الرّصينةِ التي ضمَّنَها في مقدّمةِ كتابِه الذّائعِ الصّيتِ «الشّعرُ والشُّعراء»، خاصّةً فيما يَتَعَلَّقُ بقضيّةِ بناءِ القصيدةِ العربيّةِ القديمةِ وضـرورةِ التزامِ الشّاعرِ بـها و إلا أُخْرِجَ من دائرةِ الشّعرِ إلى دائرةِ الفلسفةِ أوِ التّصوّفِ أو علْمِ الكلامِ والفونولوجيَا ، لا سيمَا في ظلِّ الصّراعاتِ الثّقافيّةِ والنّقديّةِ والمعرفيّةِ الذي كان سائدًا في هذه الحِقْبةِ، فقد برزَ تيّارٌ شِعريٌّ جديدٌ في الشّعرِ لفظًا ومعنًى، وانقسمَ النُّقّادُ حِيالَ هذه الثّورةِ الشِّعريّةِ التّجديديّةِ مع بشارِ بنِ بُرد، ومسلم بنِ الوليد وغيرِهما إلى قسْمَين: قسمٌ ينتصرُ للقديمِ من عمودِ الشِّعر، ثمّ

قسمٌ جديدٌ مُتحرِّرٌ يرى أنَّ الشّعر فنٌّ وصَنعةٌ. وهكذا بدأتِ الخصوماتُ النّقديّةُ تطفُو على السّطح، وتُعكِّرُ صفوَ النُّقَّاد وتؤثّرُ في سَيرورةِ القصيدةِ العربيّةِ، فقد سلكَ ابنُ قُتيبةَ في عرْضِ أفكارِه النّقديّةِ منهجًا توفيقيًّا، أي: إنّه تبنَّى موقفًا معتدلاً في الحُكمِ بين القديمِ في الشّعرِ والمـُحدَثِ منه، عملاً بالقاعدةِ النّقديّةِ: «كلُّ قديمٍ كان جديدًا في عصرِه»، وهو بذلك لا يَودُّ الدّخولَ في جدالٍ بين القُدامَى والمـُحدَثين، بل يُوثِرُ النّظرَ بعين النّاقدِ العادلِ، الفاحصِ لكلِّ عملٍ أدبيٍّ كيفما كان زمنُه، إذن فمنهجُ ابنِ قُتَيْبَةَ هو منهجُ القاضِي العادلِ، يقول: «ولم أسلُكْ فيما ذكرتُ من شِعْرِ كلِّ شاعرٍ مختارًا له سبيلَ مَن قلَّد أوِ استحْسنَ باستحسانِ غيرِه، ولا نظرتُ إلى المتقدّمِ منهم بعين الجلالةِ لتقدُّمِه، ولا المتأخِّرِ بعين الاحتقارِ لتأخُّرِه – بل نظرتُ بعينِ العدلِ إلى الفريقَين وأَعطَيْتُ كُلًّا حظَّه»، وهذا يؤكّدُ أنَّ قيمةَ الشّاعرِ في شعرِه، وليس في عصرِه، ورغمَ هذه النّظرةِ المتحرِّرةِ من سُلطةِ النّقدِ القديم، فإنَّ ابنَ قُتَيْبةَ لم يخرجْ عن منهجِ القُدامَى في نقدِ الشُّعراء، خاصَّةً من ناحيةِ القِيَمِ البنائيّةِ للقصيدةِ العربيّةِ، أو حين يَسخَرُ منَ الشّاعرِ الذي يُوظِّفُ الفكرَ الفلسفيَّ داخلَ نسيجِ القصيدةِ، فذلك فسادٌ للذّوقِ وانْسدادُ أُفُقِ المخيلةِ، بلِ الشّاعرُ هو نِتاجٌ للذَّوق العامِّ الذي ترعرعَ فيه، فهو يحاولُ التّمييزَ بين النّقدِ الذّوقيِّ والرّوحِ العلميّةِ في نقدِ الأعمالِ وإصدارِ الأحكامِ الفنّيّةِ عليها.

لقد حاول ابنُ قُتَيْبَةَ تحقيق ثلاثةِ أهـدافٍ من خلال تأليفه لكتابِ (الشّعرُ والشّعراءُ)، وهي:

عرفَ النّقدُ العربيُّ انْعِطافةً نوعيّةً في القرنِ الرّابعِ الهجريِّ، وازدهرتْ حركةُ التّأليفِ والكتابةِ، ومعها تَحوَّلَ سؤالُ النّقدِ من مجرّدِ انطباعٍ ذاتيٍّ خاضعٍ لمنطقِ الأهواءِ والولاءاتِ القبَليّةِ والفكريّةِ إلى نقْدٍ مبْنيٍّ على أُسُسٍ علميّةٍ رصينةٍ.

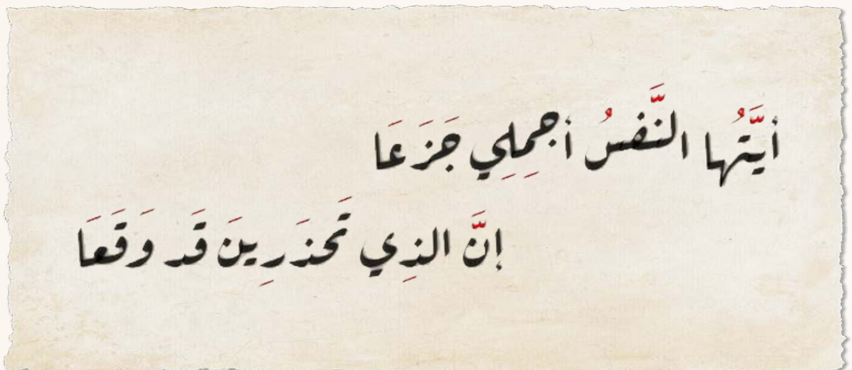


بشار بن برد



أوس بن حجر

1- – هدفٌ فنيٌّ: وهذا ما أشارَ إليه وفصَّله تفصيلاً في المقدّمة، فهو يَرفُضُ رفْضًا قاطعًا دراسةَ القصيدةِ على أساسِ الزّمنِ حيث - بحسبِه - لا يوجدُ قديمٌ مطلقٌ ولا حديثٌ مطلقٌ، فالقديمُ كان حديثًا، والحديثُ سيكون قديمًا، فـ (لم يُقصِرِ اللهُ العلمَ والشّعرَ والبلاغةَ على زمنٍ دونَ زمن، ولا خصَّ به قومًا دونَ قوم، بل جعل ذلك مُشتركًا مقسومًا بين عبادِه في كلِّ دهرٍ، وجعلَ كلَّ قديم حديثًا في عصره..)، و إنّما الجودةُ الفنّيةُ هي المِعيارُ الوحيدُ في دراسةِ العملِ الأدبيِّ ونقدِه، ويَبني ابنُ قُتَيبةَ هذا التّصوّرَ من مُنطلقِ لا شيءَ مقدّسٌ في الأدبِ، ثمّ إنَّ العبقريّةَ ليست حِكْرًا على الشُّعراءِ القُدامَى دون غيرِهم، بل هي سُنّةُ الله في خلقه، ولكلِّ زمنٍ أدباؤه وشُعراؤه، فالعبقريّةُ لا عَلاقةَ لها بالزّمن، وأمامَ هذا الرّفضِ "المنطقيِّ" لمقياسِ الزّمنِ والطّبقةِ؛ لكونِ فنِّ الشّعرِ هو امتدادًا في



الحاضرِ والمستقبلِ، كان منَ الـمُتوقَّع أن يضعَ معاييرَ أخرى في نقْدِ الشّعرِ وتقسيمِ الشُّعراء إلى طبقاتٍ، وهكذا قسَّم الشِّعرَ إلى أربعةِ أَضرُبٍ:

– 1 – 1 – ضَرْبٌ حَسُنَ لفظُه وجادَ معناه: وهذا النّوعُ يميلُ إلى الألفاظِ البسيطةِ المفهومةِ والتي تتقاربُ مَخرجًا ونُطقًا، أمّا فيما يتعلّقُ بالمعنى الجيّدِ فهو في رأيه: ما كان في مديحٍ أو رِثاءٍ أو زُهدٍ أو حكمةٍ، وبهذا المعنَى يكونُ الذّوقُ عاملاً مهمًّا في عمليّةِ النّقدِ، ثمّ يأتي من بعده التّكوينُ اللُّغويُّ والثّقافيُّ الذي يُغذّي الإحساسَ بالجمالِ والاحترامِ، مثلَ قولِ أوسِ بنِ حجر:

أيَّتُها النَّفسُ أَجْمِلي جَزَعَا
إنَّ الذي تَحْذرِينَ قَدْ وَقَعَا

– 1 – 2 – ضرْبٌ حسُنَ لفظُه وحلا، فإذا أنت فتّشتَه لم تجدْ فائدةً في المعنى: يتّضحُ أنَّ ابنَ قُتَيْبةَ يبحثُ في أغراضِ الشِّعرِ عن الفائدةِ الفكريّةِ، أو مَدلولٍ تربويٍّ أو حِكمةٍ أو معنًى أخلاقيٍّ، لذلك نراه يُخرجُ الغزلَ الرّقيقَ والوصْفَ البديعَ من نِطاقِ الشِّعرِ الجيّدِ،



فهو رفضٌ مُعلَّلٌ بِخُلوِّ الفائدة، وكم من قصائدَ جميلةٍ كان مآلُها عندَ ابنِ قُتَيْبةَ التّهميش، مادامَتْ لم تَرْقَ إلى ذوقِه الفنّي، ومن أمثلةِ ذلك قولُ جريرٍ:

إنَّ العُيونَ التي في طَرْفِها حَوَرٌ
قتَلْنَنَا ثمَّ لم يُحْيِينَ قتلانا
يَصرعْنَ ذا اللُّبِّ حتى لا حراكَ بِهِ
وهـنَّ أضْـعـفُ خـلْـقِ الـلـهِ أركـانـا

إنَّ العُيونَ الَّتي في طَرفِها حَوَرٌ
قَتَلننا ثُمَّ لَم يُحيينَ قَتلانا
يَصرَعنَ ذا اللُبِّ حَتّى لا حَراكَ بِهِ
وَهُنَّ أَضعَفُ خَلقِ اللَهِ أَركانا

- 1 - 3 - ضربٌ منه جادَ معناه وقصُرتْ ألفاظُه عنه: في هذا الضَّرْبِ تُطرَحُ إشكاليّةُ التّعبيرِ الفنّي، ففي بعضِ الأحيانِ لا يستطيعُ الشّاعرُ إخراجَ كلِّ ما في صدْرِه من شِحْناتٍ شِعريّة، ومِنْ ثَـمَّ حين تقرأُ قصيدةً ما تُحسُّ بأنَّ هناك شيئًا مفقودًا داخلَ نسيجِها العامِّ. وعمومًا فَإنَّ هذا المعيارَ ليس ثابتًا أو محدَّدًا للقيمةِ الفنّيةِ مادامَ أنَّ ابنَ قُتيبةَ يتمتّعُ بحسٍّ ذوقيٍّ عالٍ وثقافةٍ واسعةٍ تُمكِّنانِه من استِكْناه العملِ الأدبيِّ.

- 1 - 4 - ضربٌ مَن تأخّرَ معناه وتأخّرَ لفظُه: وهذا الضَّرْبُ يراه ابنُ قتيبةَ في منزلةٍ أقلَّ؛ حيث لا وجودَ للّفظِ الجميلِ ولا المعنَى المبتكرِ، الحاملِ للفائدةِ، مثلِ قولِ الأعشى يصِفُ امرأةً:

وفـــوهـــا كـــأقــــاحـــيَّ
غَـــذاه دائـــمُ الـــهَـــطـــلِ
كـــمـــا شـــيـــبَ بـــراحٍ بـا
رِدٍ مـــن عـــسَـــلِ الـــنَّـــحـــلِ

-2 - هدفٌ تاريخيٌّ: يقولُ ابنُ قتيبةَ: «ولا أحسَبُ أحدًا من علمائنا استغرق

يُعَدُّ ابنُ قُتيبةَ أحدَ أهمِّ النُّقادِ العربِ القُدامَى الذين حاولُوا التَّأصيلَ للنّقدِ العربيِّ والعملِ على تطويرِه بما يُناسبُ القصيدةَ العربيّةَ.

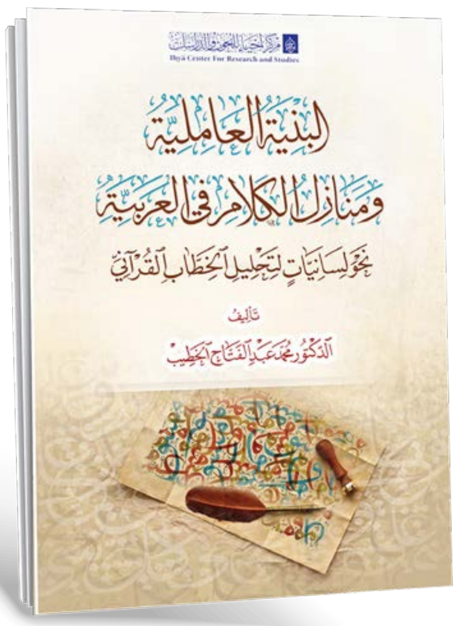
شِعْرَ قبيلةٍ حتى لم يَفُتْه في شِعرِ تلك القبيلةِ شاعرٌ إلّا عرَفَه، ولا قصيدةٌ إلّا رَواها»؛ وهو يعني: إعطاءَ صُورةٍ تاريخيَّةٍ لما يَروي الشّاعرُ في عَلاقاتِه مع المجتمعِ والعصرِ والسُّلطة، فلا يكفِي أن يقولَ الشّاعرُ بيتًا أو بيتَين حتى نُدخلَه في خانةِ شُعراءِ العصرِ، فهو يرفُضُ هذا الموقفَ الإلزاميَّ، ولا يَروِي عن أُناسٍ لا عَلاقةَ لهم بالشِّعرِ إلَّا ما كان في المناسباتِ ثمّ يلوذون بالصّمتِ.

-3 - هدفٌ علميٌّ: وهو يتعلَّقُ بمسألةِ الخطأِ في ألفاظِ الشُّعراءِ ومعانِيهم، ونَقْلِها في أثناءِ الحديثِ من شاعرٍ إلى آخـرَ، ومن جيلٍ إلى جيلٍ، مُنبّهًا في الوقتِ نَفْسِهِ بأثرِ السّرقاتِ الأدبيّةِ في شِعرِ المتأخّرين. وهكذا، فــإنَّ هذه النّظرةَ الخاطفةَ في كتابِ "الشّعرُ والشّعراءُ" للنّاقدِ العربيِّ القديمِ ابنِ قُتيبةَ تُعطينا لمحةً تاريخيّةً ونقديّةً عن تطوُّرِ النّقدِ العربيِّ وسَيرورةِ الأفكارِ تبعًا لتطوُّرِ الشِّعريّةِ العربيّةِ ومحاولاتِ مُجاوزةِ مُعضلاتِ النّقدِ الانطباعيِّ/ التّسجيليِّ الذي مَيَّزَ النّقدَ العربيَّ للشِّعرِ في بداياتِه الأُولى نحوَ تَشَكُّلِ وِجهاتِ نظرٍ نقديّةٍ قمينةٍ بوضْعِ سؤالِ النّقدِ في خِضمِّ المُساءَلاتِ العديدةِ للشِّعريّةِ العربيّةِ في اختلافِ حَساسياتِها الجماليّةِ والتّعبيريّةِ والفنّيّةِ.

جائزة الشّارقة للدّراسات اللّغويّة والمُعجميّة
Sharjah Linguistic and Lexical Studies Award

وقفةٌ معَ الأعْمالِ الفائِزةِ في جائِزَةِ الشّارقَة للدّراساتِ اللّغَويّة والمُعجَميّة

فَرع الدِّراسات المعجميَّة (الدَّورة الخامسة- 2022)



كتاب:
البِنيَة العامليَّة ومنازل الكلام في العربيَّة

للدُّكتور: محمّد عبد الفتّاح الخطيب



هبة هشام
باحث لغويّ في مجمع اللّغة العربيّة بالشارقة

مِنْ بَينِ عَدَدٍ مِنَ الدِّراساتِ اللُّغويَّةِ الجادَّة، حَازَتْ دِراسَةُ الدُّكتور محمَّد عبد الفتّاح الخطيب بعنوان: (البِنيَة العامليَّة ومنازل الكلام في العربيَّة -نحو لسانيّات لتحليل الخطاب القرآنيّ) المَرْكَزَ الأوَّلَ ضِمْنَ فِئَةِ الدِّراسات اللُّغَويَّةِ في جائِزَةِ الشّارقَةِ للدِّراسات اللُّغويَّة والمُعْجَميَّة خلالَ دَوْرَتِها الخامسة للعام 2022م، وتحتَ مِحْوَرِ الدّراساتِ الأسلوبيَّة في تحليلِ الخطابِ القرآنيّ، وذلكَ لما تَمَيَّزَتْ بِهِ مِنْ أصالَةٍ في استنطاقِ تراثِ عُلمائنا الأوائل بحثًا عن أصول النَّظريَّةِ النَّحويَّة العربيَّة، انْطِلاقًا مِنْ غَرَضٍ رئيسٍ تمثَّلَ في محاولةِ فتح باب نحوَ لسانيّاتٍ لتحليلِ النَّصّ أو الخطاب، متَّخِذَةً التُّراثَ البيانيَّ العربيَّ رافِدًا لها، لاسيما دراساته المختصَّة في الخطابِ القرآنيّ.

جاءَت هذه الدِّراسة لتُثبِتَ أنَّ تُراثَنا الإسلامــيَّ العربيّ عامَّةً والنَّحويَّ خاصَّة، وامتداداته في العلوم المُتَّصِلَة بالخطابِ القرآني يملِكُ في أنساقِهِ المعرفيَّة جُملةً من المفاهيم الإجرائيَّة المتحكِّمَة في النَّصّ أو الخطاب بناءً وتحليلاً، كما يتوافرُ فيه جهازٌ إجرائيٌّ لتشكيلِ النَّصِّ أو الخطاب، وضبطِ معاقِد المعاني أصلاً وعدولاً، وبيانِ منازلِ الكلام اتّصالاً وانقطاعًا، يَعِزُّ إيجادُ نظيرٍ له أو بديلٍ عنه، فانطلَقَت من داخِـل النَّحوِ العربيِّ أصولاً ومفاهيم، ومعطياتٍ وأدواتٍ، وقضايا وتنظيرات ضمن الخِطابِ القرآنيّ، تُحلِّلُ مجموعةً من الآيات وتراكيبها لتُعيدَ للنَّحوِ العربيَّ حقوقَه، وتَنفي عنهُ ما نُسِبَ إليه من اتِّهام بأنَّه نحوُ جُملةٍ لا يتجاوَزُ المُفردةَ والتَّركيب، فلا معالِمَ فيه لنحوِ النَّصِّ أو تحليل الخِطابِ مصطلحًا أو مفهومًا؛ ذلكَ أنَّ عددًا غير يسير من قراءات النَّحو

العربيّ السّابقة إنّما كانت معنيَّة كلَّ العناية بالتَّفتيش عمّا يُوافِقُ الدَّرس اللُّغويَّ الغربيَّ في تُراثِنا النَّحويّ، فأخذت تُسقِطُ عليهِ كثيرًا من المفاهيم اللِّسانيَّة الحديثة، فجاءت القراءةُ مسكونةً بهاجِسِ البحثِ عن تجلِّياتِ فكرِ الآخرينَ في تُراثِنا، مُعامِلَةً تُراثَنا النَّحويَّ العربيّ بمنطقِ الدَّرسِ اللُّغويِّ الغربيّ وبمفاهيمِه هو، لا بمنطِقِ الفكرِ الّذي أنتجَ ذلكَ النَّحوَ، وبمفاهيمه النّابِعةِ من نَسَقِهِ المعرفيِّ.

وقد انْتَظَمَ عِقْدُ هذه الدِّراسَة في مقدِّمَةٍ وثلاثَةِ فصول، ومسردٍ لأهمِّ المقولاتِ اللّسانيَّة في تحليلِ الخطابِ القرآنيّ، جاءَتْ كُلُّها مُرَتَّبَةً على النَّحوِ الآتي:

الفصلُ الأوَّل: البنيَة العامليَّة: بناء المفهوم ومحاولة التّأصيل، تناول فيه الباحث مفهوم البنية العامليَّة في الفكر النَّحويّ، والأصول الّتي تقوم عليها؛ ذلكَ أنَّها السَّبيل الأوحد إلى معرفة العلاقات والرَّوابط بينَ كلمات النَّصِّ أو الخطاب من جهة، وجُمَلِهِ المكوَّنةِ له من جهة ثانية، وما يترتَّبُ على هذا الأصل من: تحديد مفهومِ الكلامِ ومفهوم النَّصّ أو الخِطاب، وما يمنَحُهُ هذا المفهوم من قدرةٍ على تقطيعِ الخطاب، وبيان منازل الكلام وما يكون من حيّزه وتوابعه فيتنزّلُ منه منزلةَ القَيد، وما يتفلَّتُ منه ويخرجُ عن حيّزه فيُعطَفُ عليهِ أو يُفصَلُ عنه، والعِلم الواعي بمقامات الـكلامِ والعلاقات الّتي يتمثَّلُها، و"عقد الإخبار وفقه الحركَةِ الإعرابيَّة" وهو من الأصولِ الحاكِمَةِ في التَّحليلِ النَّحويّ، ويعني أنَّ كُلَّ تحوُّلٍ في الحركَةِ الإعرابيَّة نجِدُ فيه -غالبًا- مدخلاً جديدًا لمعنًى جديد، كما ناقش الباحث في هذا الفصل مفهومَ الارتباطِ والانقطاعِ العامليّ ومظاهره في الخطابِ القرآنيّ، لافتًا الأذهان إلى أنَّ الترخُّص في تحليلِ البنيَةِ العامليَّة وما كان من توابِعِها وما ينقطعُ عنها بعيدًا عن مرادِ الكلامِ وما عُقِدَ عليه الإخبارُ يُحدِثُ هدمًا للمعاني الّتي وجَبَ صَونُها من الفَسادِ، إلى جانبِ ما قد يُسبِّبُه هذا التَّرخُّص في تحليلِ تلك البنيَةِ من تفكيكٍ في نظمِ الخطابِ القرآنيّ.

الفصل الثّاني: البنيَة العامليَّة وظواهر الاستعمال، وهي ظواهرُ تتجاوزُ الأصـولُ المتحكِّمَةُ فيها الاعتباراتِ الرَّاجِعَةَ إلى الجُملَةِ في بنائها، إلى ظواهر(تداوليَّة) يقوم عليها الجانب الأكبر المُحقِّقُ لترابط النَّصِّ أو الخطاب أصلاً وعدولاً، وأثر ذلك في تشكيلِ معاقِدِ المعاني في القرآنِ الكريمِ جمعًا وتفريقًا، وقد اجتهدَ الباحث في إظهار ذلك كُلِّه في معرِضِ حديثِه عن: نقضِ المراتبِ، والحذف، والزيادة، وتلاعب المعاني بالألفاظ، واعتدال الكلام، ومخالفة مقتضى الظّاهر، مُبَيِّنًا أنَّ البدائلَ الواسعة في العدول عن الأصلِ في بناء معاقِدِ المعاني في الخطاب القرآنيّ ليسَتْ ضربًا من التَّنوُّعِ في اللَّفظِ بقدرِ ما هي ضربٌ من اقتضاءاتِ المعنى، ومتطلَّباتِ الدّلالة، بل هي من مرتكزاتِه ووسائلِه الّتي لا يستغني عنها كُلُّ كلامٍ شريف.

الفصل الثّالث: فقه منازل الكلام في النّصّ أو الخطاب، وقد بيَّنَ فيه الباحث أنَّ للكلام في النَّصِّ أو الخطابِ منزلتَين، ارتباطًا وانقطاعًا، وأنَّ الرَّوابطَ الإعرابيَّة الجارية مع الارتباطِ لا يُمكِنُ لها الجريانُ مع

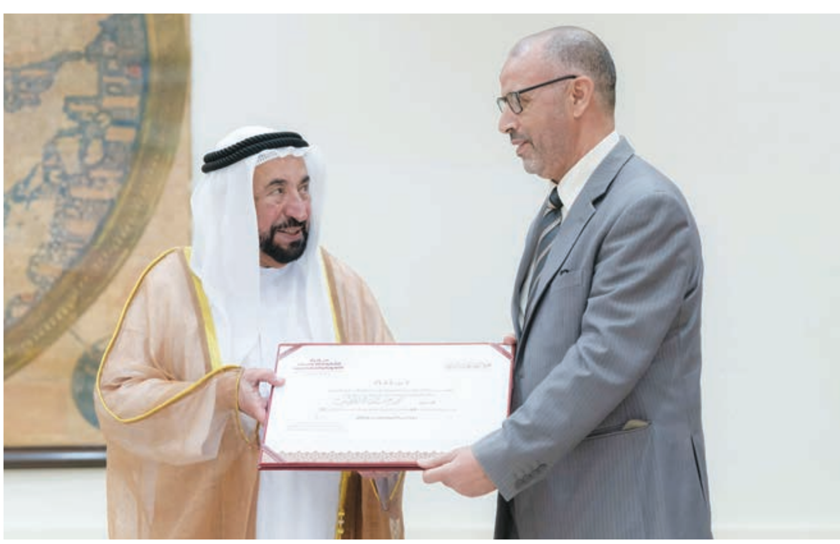


جـائـزة الشَّارقة للدّراسات اللّغويّة والمُعجميَّة
Sharjah Linguistic and Lexical Studies Award

الانقطاعِ، مشيرًا إلى ظهورِ ذلك عند عُلمائنا ظهورًا جلِيًّا في بابَين، أوَّلُهما: الحديث عن منازل القرآن الكريمِ في الوقوفِ، وهو حديثٌ قائمٌ على بيانِ العلاقاتِ المعنويَّة الّتي يتنزَّلُ فيها الكلام، فيلتبِسُ بعضُهُ ببعض، أو ينقطعُ بعضُه عن بعض، وثانيهما: الحديث عن المناسبة بين الآيات وعِلَلِ تجاورِها، ومجيء بعضِها في إثرِ بعض، ومظاهرِ الرَّبطِ بين البنى العامليَّة في الخطابِ القرآنيّ، دلالَةً على وحدَتِه وتناسُبِ أجزائه، فكانَ الحديثُ عن تلكَ العِلَلِ قائمًا على بيانِ الأصول المعنويَّة بين الآيات في الخطاب القرآنيّ، متجاوزينَ ذلكَ إلى بيانِ العلاقات النَّصيَّة الّتي تتعالَقُ بها سُــوَرُ القرآنِ الكريم ويأخذُ بعضها بأعناقِ بعض، حتّى بدا عندهم الخطاب القرآنيّ –على اختلاف منازله وأماكنه ومناسباته– بناءً واحدًا، متلاحِمَ الأجـزاءِ، يشدُّ بعضُهُ بعضًا.

وقد خَلُصَت الدِّراسَةُ إلى مجموعة من النَّتائج أهمُّها: أنَّ الضَّميرَ يُعدُّ من أهم الرَّوابط النَّسقيَّة في وصل الكَلِم بعضه ببعضٍ داخل الجُملة من جِهَة، وبينَ الجُمَلِ المُكوِّنَة لنصِّ الخطابِ من جهة ثانية، حينها عُنِيَت العربيَّة أيَّما عناية بوضعِ القواعِدِ والضَّوابط المُنظِّمَة لاستعماله، وعليه حَرِصَ المفسِّرون وهُم يُحَلِّلون آيات القرآن الكريم على المحافظة في إحالةِ الضَّميرِ على اتِّساقِ النَّظم ورفضِ كُلِّ تفكيك أو تشتيت للضَّمائرِ يُفضي القولُ به إلى تفكيكِ النَّظمِ القرآنيّ أو التباسِ مقاصِده، كما انتهوا كذلك إلى صحَّة الإحالة في الضَّمائر؛ ذلكَ أنَّ المحافظة على المعنى والإفهام تقتضي أن يُحالَ الضَّميرُ على ما يَصِحُّ به المعنى ويتَّفقُ ومقتضياتِ الخطاب، فإذا لم ينتبِه المفسِّرُ إلى صحَّةِ المعنى الّذي تَعودُ عليه تلك الضَّمائر آلَ الأمرُ إمّا إلى الاختلالِ في فهم المقصودِ من الكلام، وإمّا إلى الإلباس في فهمِ المُراد، وهُما حالان يُخرجانِ الكَلامَ عن سُنَنه فلا يُبينُ كما أُريدَ له، كما خَلُصَ الباحثُ إلى أنَّ "البنية العامليَّة" بجميع مفاهيمها الإجرائيَّة تُعَدُّ من أكثر المفاهيم دقَّةً وطرافةً في التَّفكير النَّحويّ، إذ ندركُ من خلالها أنَّ العلاقَة بين الكلماتِ داخلَ الجُملَةِ من جهة، وبين الجُمَلِ داخلَ النَّصِّ أو الخطاب من جهة ثانية ليست مُطلَقَة، بل هي علاقَةٌ منضبطةٌ –في بنيَةِ النَّظريَّة النَّحويَّة– بجُملَةٍ من المفاهيم الإجرائيَّة في التَّحليل أطلقَ عليها الإمامُ الشّاطبيُّ "الأصولَ الاستعماليَّة" وهي أصولٌ تُجسِّدُ منطقَ العلاقة بين أجزاءِ التَّركيب، وضـــرورةَ التَّقيُّد بهذا المنطقِ في ضبطِ حركَةِ الكَلِمِ ومراتِبِها ومدارِجِها، فلا يَتيهُ الاستعمالُ بعيدًا عنها بشكلٍ يُفْقِدُ كُلَّ عنصرٍ ما يطلُبه من العناصِر الأخرى، وفي كلِّ ما سبَق تأكيدٌ من الباحث على أنَّ علَماءَنا –رحِمَهُم الله– قد خلَّفوا لنا في ظلِّ وعيهِم العميق بالعلاقة بين المعنى وتشكُّلِه تُراثًا حافِلًا في قراءَةِ البيانِ العربيّ، وضبطِ قوانينِ فهمِهِ وإفهامِه على نحوٍ لا نَظيرَ له في تُراثِ أُمَّةٍ حولَ بيانِها اللُّغويّ.

"عُنِيَت العربيَّة أيَّما عناية بوضعِ القواعِدِ والضَّوابطِ المُنظِّمَةِ لاستعمالِ الضمائر.





مِن أعْلامِ العَرَبِيّة

- أَمِيْرُ الشُّعَــرَاءِ أَحْمَــدُ شَــوْقــي

- عَبْقَــرِيُّ العــربيَّــةِ أبو الفَتْحِ ابْنُ جِنّي

أَمِيْرُ الشُّعَرَاءِ أَحْمَدُ شَوْقي

(1285هـ- 1351هـ=1868م=1932م)



د. ياسين بوراس
خبير لغوي في المعجم التاريخي

بين يدي التّرجمة:

في عصر أفل فيه نجم الشّعر العربيّ ظهر إلى الوجود شعراء أفذاذ يلوّحون من بعيد بميلاد عصر جديد، عُرف بعصر النّهضة أو مدرسة البعث والإحياء، كان رائدها محمود سامي البارودي، وأحمد شوقي، وأحمد محرم، وعلي الجارم، وهي المدرسة التي أعادت بثّ الروح في القصيدة العربيّة من خلال إحيائها لما يسمّى بعمود الشعر العربيّ أو القافية، ليتوالى بعدها شعراء ساروا على نفس الدّرب واستطاعوا أن يضعوا بصمة في تاريخ الشّعر العربيّ الحديث. ويعد أحمد شوقي الذي شارك غيره من شعراء النّهضة وحدة الوطن وغربة المنفى، أحد أعمدة الشّعر في العصر الحديث بعد أن صدحت قريحته بمئات القصائد الشعريّة، في المدح، والرّثاء، والغزل، والوصف، والحكمة، وغيرها من أغراض الشّعر، كما كتب في الرّواية والمسرح، واستطاع من خلالها أن يفتكّ إمارة الشّعر بلا منازع.



الاسْمُ الكامِلُ:

أمير الشّعراء أحمد شوقي بِكْ بن علي بن أحمد شوقي. لُقِّب بشاعر القصر، وشاعر البلاط، وشاعر السّلام، وشاعر الشَّرق والغرب، وشاعر العرب والعجم، وأمير الشّعراء، وهذا الأخير هو ما اشتُهر به. لقَّبه بذلك صديقه الأمير شكيب أرسلان الملقّب بأمير البيان، وذلك في قصيدته التي ألقاها في الحفلة التي أقامها أدباء السوريّين ووجهاؤهم بمصر لمحمّد حافظ إبراهيم، يُخاطب حافظًا: [مجلَّة المنار، محمّد رشيد رضا. 32/ص719]:

فأَنْتَ أَميرُ النَّثْرِ غيرُ مُنازِعٍ
وأَنْتَ أَميرُ الشِّعرِ بعْدَ أَحْمدِ

وذكرت بعض المصادر أنّ الذي لقّبه بذلك حافظ إبراهيم في مهرجان التكريم الذي أُقيم لأحمد شوقي سنة 1927م، في دار الأوبرا بالقاهرة، حين وقف وسط جموع الوفود التي حضرت من البلاد العربيّة، وبايعه بإمارة الشّعر، قائلا: [عبد المجيد الحر، أحمد شوقي أمير الشّعراء ونغم اللّحن والغناء، ص68]

أميرَ القوافي قَدْ أَتَيْتُ مُبايِعًا
وهذي وُفودُ الشَّرْقِ قَدْ بايَعَتْ معي

[الزِّرِكلي، الأعلام. 1/ص136، فوزي عطوي، أحمد شوقي أمير الشعراء. ص9].

النِّسْبَةُ:

ينتهي نسب أحمد شوقي إلى الأكراد العرب، فجدّه (أحمد شوقي) الذي سميَّ باسمه، كرديّ عربيّ شركسيّ الأصل، ومنه ينحدر إلى شوقي الدّم الكرديّ العربيّ الشّركسيّ، وأبوه هو علي شوقي، وأمّه من أصول يونانيّة تركيّة، فآباؤه وأجداده ليسوا مصريين، أمّا هو فمصري الموطن. وسبب نشأته بمصر، أنّ جدّه لأبيه الذي سميّ باسمه نزل بها في عهد (محمّد علي) وتقلّد العديد من المناصب، وخلّف ثروة واسعة عاش في كنفها عليٌّ والد شوقي، وشوقي نفسه.

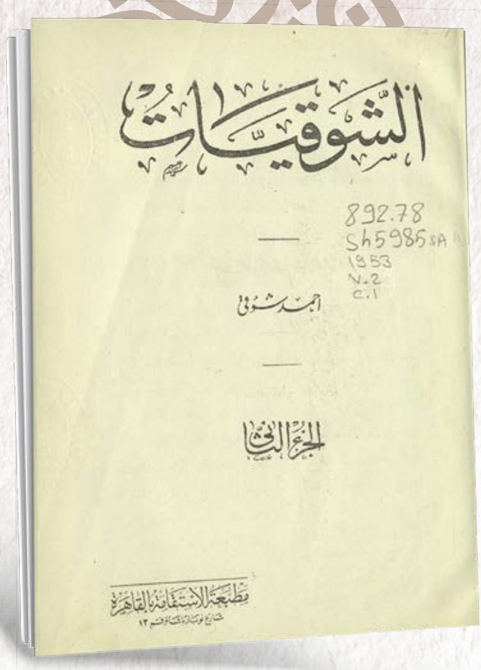


شكيب أرسلان

وقد تكفلَّت بتربيته جدّته لأمّه، بعد أن تبدّدت ثروة والده، وكانت منذ عهد إبراهيم على علاقة وطيدة بالقصر وتعمل وصيفة فيه، وكان جدّه لأمه أيضا من الوافدين الأتراك على مصر، وعليه اجتمعت في شوقي أصول مختلفة. [شوقي ضيف، شوقي شاعر العصر الحديث. ص9-10، فوزي عطوي، أحمد شوقي أمير الشعراء. ص 11-12، الأمير شكيب أرسلان، شوقي أو صداقة أربعين سنة. ص32]

المَوْلِدُ والوَفاةُ:

وُلِد أحمد شوقي ثلاثاء (29/06/1285هـ) اليوم



التاسع والعشرين، جمادى الآخرة، سنة ألف ومئتين وخمسة وثمانين، الموافق لـ (1868/10/16م) للسّادس عشر (أكتوبر / تشرين الأوّل) سنة ألف وثماني مئة وثمانية وستّين، في حيّ الحنفيّ بالقاهرة القديمة من أسرة مختلطة الأصول. ووافته المنيّة جمعة (1351/06/14هـ) اليوم الرابع عشر، جمادى الآخرة، سنة ألف وثلاث مئة وإحدى وخمسين، الموافق لـ (1932/10/14م) اليوم الرابع عشر (أكتوبر/تشرين الأوّل) سنة ألف وتسع مئة واثنتين وثلاثين، نتيجة تصلّب شرايينه، يقول عبد المجيد الحرّ: «إنَّ شرايينه أصيبت بالتّصلب، واضطر سنة 1932م إلى ملازمة الفراش مدّة أربعة أشهر بسبب مرض مُفاجئ، أوْهَن عزيمته، وأضعف قواه». [عبد المجيد الحر، أحمد شوقي أمير الشّعراء ونغم اللّحن والغناء، ص76]

ينتهي نسب أحمد شوقي إلى الأكراد العرب، فجدّه (أحمد شوقي) الذي سميَّ باسمه، كرديّ عربيّ شركسيّ الأصل، ومنه ينحدر إلى شوقي الدّم الكرديّ العربيّ الشّركسيّ، وأبوه هو علي شوقي، وأمّه من أصول يونانيّة تركيّة، فآباؤه وأجداده ليسوا مصريين، أمّا هو فمصري الموطن.

النِّسبَةُ إلى المذهب الأدبيّ:

يُحسب أحمد شوقي في مذهبه الأدبيّ على مدرسة البعث والإحياء التي أسّسها محمود سامي البارودي مع مجموعة من رفاقه، ولئن كان يجمعه مع البارودي وحدة المذهب والمنشأ، باعتبار أنّ كليهما نشأ في بيت مترف بحكم القرابة من بلاط الحكم أو السّلطان، أو غربة المنفى بحكم أنّ كليهما نُفي خارج وطنه سبب توجّههما السياسي، إلّا أنّ شوقي استطاع أن يشقّ لنفسه طريقا مختلفا في الشّعر جعله يفوق به معاصريه ممن يحسبون على هذه المدرسة أو المذهب، فقد ساعدته حياة التّرف، واطلاعه على تراث الأقدمين من شعر ونثر، وتحكّمه في اللغات الأجنبيّة التّركيّة والفرنسيّة، إلى جانب حياة المنفى التي عاشها في إسبانيا، بعيدا عن وطنه، مما جعله يتوقّد شوقا وحنينا إلى هذا الوطن، على صقل موهبته الشّعريّة التي استطاع أن يجاري بها كبار شعراء العصر العباسيّ، أمثال أبي فراس الحمداني (ت: 357هـ) وأبي العلاء المعريّ (ت: 449هـ) وأبي العتاهية (210هـ) والعباس بن الأحنف (ت: 192هـ) والبهاء زهير (ت: 656هـ). ومن الذين تأثر بهم أشدّ التأثر في شعره أبو الطّيب المتنبي (ت: 354هـ). وإلى جانب الشّعر درس النثر وتعمق في كتب أعلامه الكبار أمثال الجاحظ (ت: 255هـ) الذي أكبّ على دراسة (الحيوان) عنده، والمبرد (ت: 386هـ) في كتابه (الكامل) والقالي (ت: 356هـ) في كتابه (الأمالي) والأصفهاني (ت: 356هـ) في كتابه (الأغاني) وعمد إلى حفظ الكثير مما في المعاجم من الألفاظ ومعانيها واشتقاقها وأوزانها وأصولها، ولم يترك شيئا يتعلق به إلا واطّلع عليه. وإلى جانب هذا كان شوقي مولعا أشدّ الولع بكتب التاريخ التي أمدّته بماضي مصر والبلاد العربيّة، وحضارة الإسلام وشرعه الحنيف، وكذلك حضارة الفراعنة، وما تتسم به من سمات فريدة الأثر، وإلى جانب ثروته العربيّة في مجمع علومه، استطاع أن يجمع له ثقافة أجنبيّة من خلال اللغات التي أتقنها، وهي التركية التي أحسن استعمالها في مدرسة الترجمة بمصر، ثمّ اللغة الفرنسيّة التي حصّل عليها في (باريس). [عبد المجيد الحر، أحمد شوقي أمير الشّعراء ونغم اللّحن والغناء، ص56-57]

مَراتِبُ العِلْمِ والسِّيادَة في بَيْتِ العَلَم:

ممّا هو معروف أنَّ شوقي كبر وشبَّ في بيئة مثقّفة، بين حكّام وشعراء القصر الذي كانت تعمل فيه جدّته، وكان أبوه وأجداده أيضا من أصحاب المناصب العُليا آنذاك، فلم يكن لهم اشتغال بالشّعر والآداب، إلا ما ورد منه قوله عن أبيه نقله عنه صديقه الأمير أرسلان: «كانت وفاة والدي من نحو ثلاثة سنوات، فكان لي عجبًا أن وجدت بين أوراقه شيْئًا كثيرًا من مشتّت منظومي ومنثوري، وما نشر منهما وما لم يُنشر، قد كُتِب بعضه

بالحبر والبعض الآخر بالرّصاص، والكلّ خطّ يد المرحوم، وقد لفَّه في ورقة كُتب عليها، هذا ما تيسر لي جمعه من أقوال والدي أحمد شوقي، وهو يطلب العلم في أوروبّا». [الأمير شكيب أرسلان، شوقي أو صداقة أربعين سنة. ص32]

المُؤَلّفاتُ:

كـان شوقي من أخصب الشُّعراء المحدثين إنتاجًا، وقد تنوّعت إنتاجاته بين الشِّعرِ والمسرحِ والنّثرِ، وتنوّعت طُرق نشرها بين الكتبِ والصُّحفِ والمجلّاتِ، ومن أشهر مؤلفاته ما يلي:

الدَّوَاوِينُ:

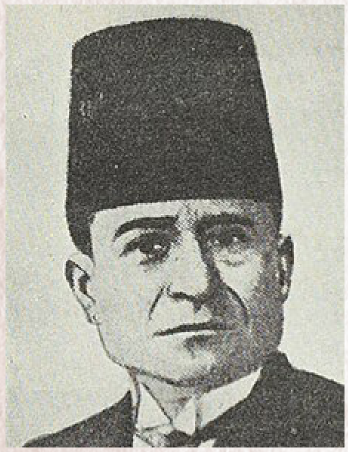
1 – ديوانُ الشَّوقيَّات: يقع هذا الصَّرح الشّعريّ في أربع مجلّدات، يحوي كلّ منها آثارًا شعريّة مختلفة الأغراض والموضوعات، تراوحت بين السّياسة، والتّاريخ، والاجتماع، والمراثي، والقصص، وحكايات الأطفال، وفي هامش الكتاب تفسير بعض الكلمات الغامضة في قصائده.

2 – الشَّوقيّات المجهولةُ: يحوي الكتاب على آثار شوقي الشّعريّة التي لم يسبق له أن نشرها أو ذكرها، بل اكتُشِفت بعد وفاته، وقام الدّكتور محمد صبري السّربوني بجمعها، وهي أكثر من مئة وثلاث عشرة قصيدة.

الرِّواياتُ:

كتبَ الشاعر أحمد شوقي عدّة أعمال روائيّة، وهي:

1 – عذراء الهندِ: تُعتبر هذه الرّواية من أبرز الأعمال الرّوائيّة للشّاعر أحمد شوقي، كتبها سنة 1897م، تدور أحداث



محمد إسعاف النشاشيبي

هذه القصّة في العهد الفرعوني، أيام (رعمسيس الثّاني) وهي رواية غراميّة غريبّة السَّرد. [محمّد صبري، الشّوقيات المجهولة. ص113]

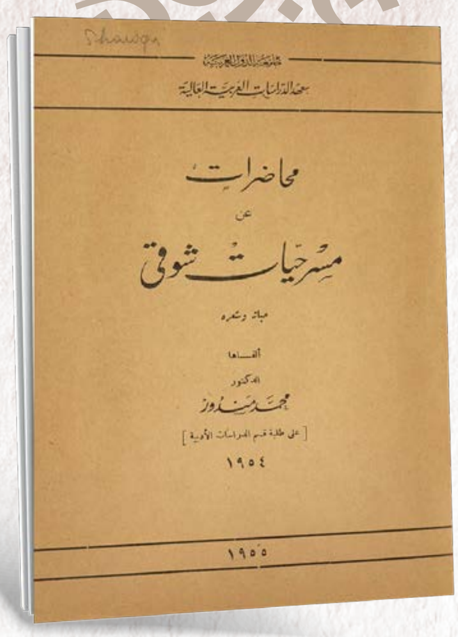
2 – ورقة الآس: قصة تاريخيّة كتبها أحمد شوقي عام 1905م، وهي الرّوايّة العربيّة الوحيدة من بين رواياته.

3 – لادياس الفتنة أو آخر الفراعنة: قصة تاريخيّة كتبها أحمد شوقي عام 1898م، يرجع زمن أحداثها إلى زمن الملك (أبرياس) إذ صوّرت العنصر المصريّ في البلاد الغربيّة.

- المسرحيّات:

لأحمد شوقي ثماني مسرحيَّات، استمدّ موضوعاتها من السّيّاسة والتّاريخ والمجتمع الذي كان يُعايشه آنذاك، ومن الحضارة الأوروبيّة خاصّة، وهي:

1 – **مسرحيّة قمبيز**: كتبها أحمد شوقي سنة 1931م، وهي مسرحيّة تروي قصّة الملك الفارسي قمبيز الذي خاض حربًا ضدَّ فرعون مصر؛ لاعتقاده أنّ فرعون مصر



خدعه وزوّجه امرأة أخرى بدل ابنته.

2 - مسرحيّة مصرع كليوباترا: تُعدّ هذه المسرحيّة واحدة من أهم المسرحيّات التي خلّدت اسم شوقي، نشرها سنة 1929م، وتدور أحداث المسرحيّة حول شخصيّة الملكة كليوباترا، التي كانت تستغلُّ حب الملوك لها لصالح بلدها.

3 - مسرحيّة عنترة: أخرجها شوقي سنة 1932م، وهي تروي قصة الشّاعر عنترة بن شدّاد وابنة عمه عبلة.

4 - مسرحيّة مجنون ليلى: تحفة أدبيّة خالدة، تحكي المسرحيّة قصة قيس بن الملوّح الذي عشق ليلى حدّ الجنون، ولم تكن من نصيبه، فسميّ مجنون ليلى.

5 -مسرحيّة علي بيك الكبير: كتب شوقي هذه المسرحيّة سنة 1892م، وهي مسرحيّة تروي قصّة والي مصر المملوكي علي بيك الكبير، وصراعاته السياسيّة.

6 - مسرحيّة أميرة الأندلس: مسرحيّة نثريّة كتبها شوقي أثناء نفيه إلى إسبانيا، وهي مسرحيّة تصوّر الحياة السيّاسيّة والاجتماعيّة في الأندلس.

7 - مسرحيّة السَّت هدى: مسرحيّة اجتماعيّة كوميديّة، سخّر فيها أحمد شوقي من بعض العادات الاجتماعيّة السَّائدة في عصره آنذاك، مثل الزّواج من أجل الثّروة والمال، وتروي المسرحيّة قصة امرأة ثريّة (السّت هدى) التي تزوّجها تسعة رجال طمعًا في مالها.

8 - البخيلة: مسرحيّة اجتماعيّة كوميديّة، تدور أحداثها حول امرأة شديدة البُخل، وكان حفيدها طامعًا في ثروتها، وينتظر موتها حتى يرثها، ولكنها في النّهاية أورثت خادمتها حُسنَى بدلاً منه.

التَّلاميذُ ومَجالِسُ التَّدْريسِ:

لم يُعرفْ لشوقي تلاميذٌ بمعنى الكلمة لهذا المصطلح، إذ لم يكن مدرسًا بالمعنى الحرفي، بل شغل وظائف أخرى تتعلّق بالسّياسة وغيرها، وذلك أمر طبيعيّ؛ لأنّ شوقي عاش حياة التّرف والنّعيم في قصر حكّام مصر آنذاك، وكان غير متّصل بالعالم الخارجي، وقد نذر وقته لوصف حكّام القصر آنذاك، فلم يكن له وقت للتّدريس والتّلمذة، ورغم هذا يمكن ذكر بعض الأسماء الذين تأثروا به من خِلالِ شِعرِه بشكل واضح؛ من أمثال حافظ إبراهيم، وعلي الجارم، وأحمد محرم وغيرهم من الأجيال اللّاحقة؛ إذ قد يتأثّر شاعر بشاعر آخر دون أن يكون تلميذًا بالمعنى التّقليديّ.

امتاز شوقي منذ صغره بموهبة الشّعر، فقد قال فيه عبد الوهاب أبو العزّ: «كان رحمه الله ينظم الشِّعر في أي وقت شاء، وفي أيّ مكان أراد، فكان ينظمه جالسًا وماشيًا ومُسافِرًا، ومقيمًا..» وعمل شوقي على إكمال مهمّة الشّاعر محمود سامي البارودي في إحياء الشّعر العربيّ وبعثه من جديد.

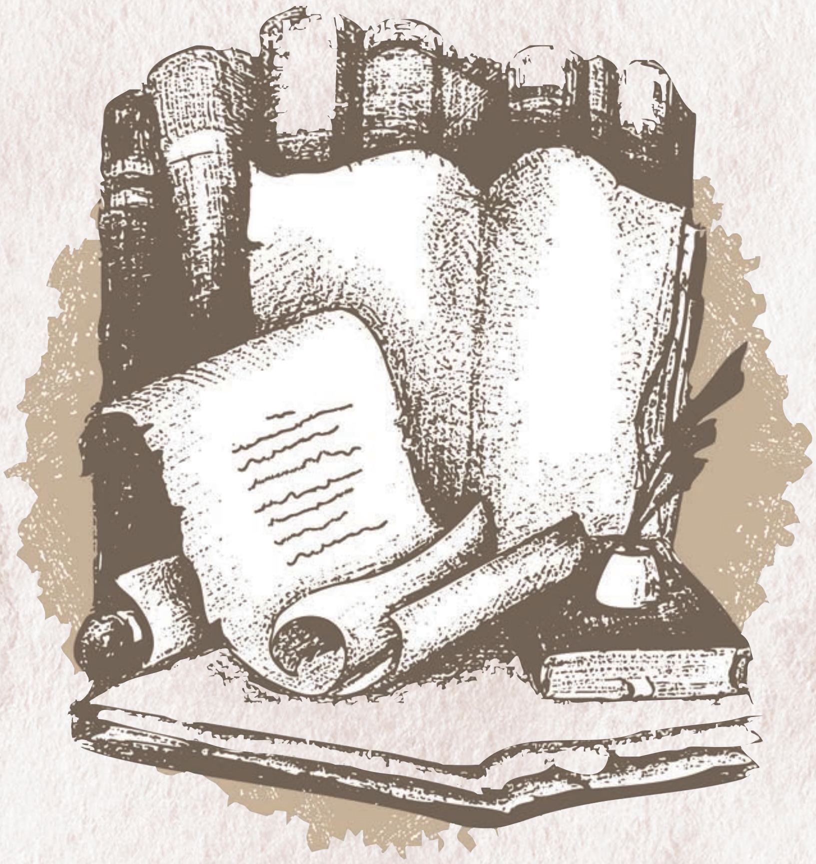
المَناهِجُ الَّتي تُبْرِزُ شَخْصِيَّتَهُ العِلْمِيَّة:

امتاز شوقي منذ صغره بموهبة الشّعر، فقد قال فيه عبد الوهاب أبو العزّ: «كان رحمه الله ينظم الشِّعر في أي وقت شاء، وفي أيّ مكان أراد، فكان ينظمه جالسًا وماشيًا ومُسافِرًا، ومقيمًا..» [أحمد عبد الوهاب أبو العز، اثنا عشرة عامًا في صُحبةِ أمير الشُّعراء. ص18]. عمل شوقي على إكمال مهمّة الشّاعر محمود سامي البارودي في إحياء الشّعر العربيّ وبعثه من جديد، فحرص على اقتناص روائع الشّعر العربيّ ودُرره، وكان بذلك شاعرا مقتدرًا يُحبّ أن يُلقّب بأمير الشّعراء. أتقن شوقي العديد من اللّغات كالتركيّة، والفرنسيّة إلى جانب العربيّة الفصحى، كما كان أوّل من أدخل الشِّعر التّمثيليّ إلى الأدب العربيّ. [ميشال خليل جحا، أعلام الشّعر العربي الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش. ص94]

- مَصادِرِ ثَقَافَتِهِ الشِّعْرِيَّة:

المزيج الثقافيّ المتنوّع

لا يخفى على أحدٍ ذلك المزيج الثّقافيّ الذي يسري في عروق الشّاعر، فقد وُلد شوقي من دماء كرديّة ويونانيّة وتركيّة وشركسيّة، نظرًا للرّوابط التي جمعت بين



والديه وأجداده «وحسب ما هو متّفق عليه في علميّ الاجتماع والأخلاق، أنّ الوراثة ذات أثرٍ كبيرٍ في تكوين النّفسيّة الإنسانيّة، وفي مدى اختلاف العبقريَّات، فقد اتّفق العلماء أيضًا أنّ النفسيّة الإنسانيّة تصبح أكثر تقبُّلًا للتّطوّر والتّجديد، وأنّ العبقريّة تغدو أكثر قابليّة للانفجار، كلمّا تمازجت دماء العناصر المتباعدة ... فلم يكن من المستغرب في شيء، أن تنعكس آثار قابليّة التّجديد والتّطوّر في نفسيّة أحمد شوقي الذي اكتسب ذكاء في الطّبع» [ميشال خليل جحا، أعلام الشّعر العربيّ الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش. ص9] كما تربَّى شوقي في حضن جدّته اليونانيّة، وكانت هي من شجعته، حتّى تهيَّأت له شاعريَّته، نظرًا لمعرفتها بالثّقافة اليونانيّة. ولا يخفى على أحد شُهرة اليونان قديمًا بالشّعر.

يقول شوقي في جَدّتِه:

لي جَدَّةٌ تَرأَفُ بي*أحنى عَلَيَّ مِن أَبي**
وَكُلُّ شَيءٍ سَرَّني*تَذهَبُ فيهِ مَذهَبي**
إِن غَضِبَ الأَهلُ عَلَـ*ـيَ كُلُّهُم لَم تَغضَبِ**
مَشى أَبي يَوماً إِلَـ*ـيَ مِشيَةَ المُؤَدِّبِ**
غَضبانَ قَد هَدَّدَ بِالضَرْ*بِ وَإِن لَم يَضرِبِ**
فَلَم أَجِد لِيَ مِنهُ غَيـ*ـرَ جَدَّتي مِن مَهرَبِ**
فَجَعَلَتني خَلفَها*أَنجو بِها وَأَختَبي**
وَهيَ تَقولُ لِأَبي*بِلَهجَةِ المُؤَنِّبِ:**
وَيحٌ لَهُ! وَيحٌ لِهَـ*ـذا الوَلَدِ المُعَذَّبِ!**
أَلَم تَكُن تَصنَعُ ما*يَصنَعُ إِذ أَنتَ صَبي!**

[**ديوان أحمد شوقي**، 298/2]

وقال في رثائها:

صَلاةُ اللَهِ يا تَمزارُ تَجزي
ثَراكِ عَنِ التِلاوَةِ وَالصَلاةِ
وَعَن تِسعينَ عاماً كُنتِ فيها
مِثالَ المُحسِناتِ الفُضلَياتِ
بَرَرتِ المُؤمِناتِ فَقالَ كُلٌّ
لَعَلَّكِ أَنتِ أُمُّ المُؤمِناتِ
وَكانَت في الفَضائِلِ باقِياتٌ
وَأَنتِ اليَومَ كُلُّ الباقِياتِ

[**ديوان أحمد شوقي**، 39/2]

التأثّر بالعوامل البيئيّة والسّياسيّة والاجتماعيّة المختلفة

عاش شوقي في وسط ظروف سيّاسية واجتماعيّة وحضاريّة مختلفة، فكان من الطبيعي أن ينعكس ذلك على شعره، فقد كان شعره خليطًا بين الحياة العربيّة بحضارتها الإسلاميّة بما فيها من قدم وإيمان، وبين الحياة الغربيّة التي عاش في أحضانها مدّة دراسته في أوروبا، فقد تأثَّر شوقي بالحياة الأوروبيّة وبخاصّة الأدب الفرنسيّ ويظهر ذلك جليًا في شعره ومسرحياته وحياته عامّة. [محمّد حسن هيكل، الأدب والحياة المصريّة: دراسات في شعر البارودي وشوقي، وحافظ. ص126، أحمد شوقي، الشّوقيّات. 15/1]

أصالة الثقافة ونبوغ الموهبة

ويظهر أثر الثّقافة العربيّة في شعر شوقي أكثر من أيِّ ثقافة أخرى، فقد انصبّ منذ صغره على حفظ دواوين فحول شعراء العرب واستظهارها، وأثّر ذلك التّأثر بادٍ في قصائده "فمن يستعرض ديوانه يدرك الصّلة بينه وبين البارودي، وبين الشّعراء العباسيين، أمثال: المتنبي، وابن الرّومي، والبحتري، وأبي نوّاس، وأبي فِراس، وابن زيدون، والبهاء زهير" [ميشال خليل جحا،

أعلام الشّعر العربيّ الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش. ص42] بل إنّ موهبته الطّبيعيّة، وذاكرته الفريد، وخياله الفسيح، وحسّه المرهف، ونفسه الطّموحة، دفعته إلى مجاراة الكبار من الشّعراء أمثال أبي الطّيب المتنبّي الذي جمع في شعره الدرّ والحصى، بينما هو جمع الدّر النّضيد، كما يقول عن نفسه:

ولي دُرَرُ الأَخْلاقِ في المَدْحِ والهوى
ولِلْمُتَنَبّي دُرَّةٌ وحَصاةُ

[ديوان أحمد شوقي، 81/1]

وتكثر مجاراة شوقي للمتنبي في الكثير من شعر الحكمة والمدح، حيث لا تكاد تقف على قصيدة إلا وتتضمّن بعضا من أبيات الحكمة، تعكس تجربته مع الحياة، أو قراءة لم ورد في شعر الأقدمين، ففي قصيدته (نكبة دمشق) يقول:

وَلِلمُستَعمِرينَ وَإِن أَلانوا
قُلوبٌ كَالحِجارَةِ لا تَرِقُّ
وَلِلأَوطانِ في دَمِ كُلِّ حُرٍّ
يَدٌ سَلَفَت وَدَينٌ مُستَحِقُّ
وَمَن يَسقى وَيَشرَبُ بِالمَنايا
إِذا الأَحرارُ لَم يُسقوا وَيَسقوا
وَلا يَبني المَمالِكَ كَالضَحايا
وَلا يُدني الحُقوقَ وَلا يُحِقُّ
فَفي القَتلى لِأَجيالٍ حَياةٌ
وَفي الأَسرى فِدًى لَهُمُ وَعِتقُ
وَلِلحُرِّيَّةِ الحَمراءِ بابٌ
بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ

[ديوان أحمد شوقي، 2/365-366]

وفي قصيدة له في (ذكرى كانارفون) يصوّر شوقي حتميّة الموت على نهج الأقدمين والمعاصرين له من أمثال

عاش شوقي في وسط ظروف سيّاسية واجتماعيّة وحضاريّة مختلفة، فكان من الطبيعي أن ينعكس ذلك على شعره، فقد كان شعره خليطًا بين الحياة العربيّة بحضارتها الإسلاميّة بما فيها من قدم وإيمان، وبين الحياة الغربيّة التي عاش في أحضانها مدّة دراسته في أوروبا.

البارودي، ويجعل فعال الإنسان سرًّا للخلود في هذه الدّار:

في المَوتِ ما أَعيا وَفي أَسبابِهِ
كُلُّ امرِئٍ رَهنٌ بِطَيِّ كِتابِهِ
أَسَدٌ لَعَمرُكَ مَن يَموتُ بِظُفرِهِ
عِندَ اللِقاءِ كَمَن يَموتُ بِنابِهِ
النَفسُ حَربُ المَوتِ إِلّا أَنَّها
أَتَتِ الحَياةَ وَشُغلَها مِن بابِهِ
تَسَعُ الحَياةَ عَلى طَويلِ بَلائِها
وَتَضيقُ عَنهُ عَلى قَصيرِ عَذابِهِ
هُوَ مَنزِلُ الساري وَراحَةُ رائِحٍ
كَثُرَ النَهارُ عَلَيهِ في إِتعابِهِ
وَشِفاءُ هَذي الروحِ مِن آلامِها
وَدَواءُ هَذا الجِسمِ مِن أَوصابِهِ
مَن سَرَّهُ أَلّا يَموتَ فَبِالعُلا
خَلُدَ الرِجالُ وَبِالفَعالِ النابِهِ
ما ماتَ مَن حازَ الثَرى آثارَهُ
وَاستَولَتِ الدُنيا عَلى آدابِهِ

[ديوان أحمد شوقي، 73/1]

وكما يجارى شوقي المتنبي وغيره من شعراء الحكمة، يجاري غيره من شعراء اللهو والمجون، ففي حياته المترفة، يصور لنا ليلة راقصة أقيمت في قصر العابدين، ويصف الخمر على طريقة أبي نواس، قائلا:

حفَّ كأسَها الحَبَبُ
فهيَ فضّةٌ ذهَبُ
أو دوائرٌ دُرَرٌ
مائجٌ بها لَبَبُ
أو فمُ الحبيبِ، جَلا
عَنْ جُمانِهِ الشَّنَبُ

[ديوان أحمد شوقي، 300/2]

ويقول عنها في موضع آخر:

رَمَضانُ وَلّى هاتِها يا ساقي
مُشتاقَةً تَسعى إِلى مُشتاقِ
ما كانَ أَكثَرَهُ عَلى أُلّافِها
وَأَقَلَّهُ في طاعَةِ الخَلّاقِ
اللَهُ غَفّارُ الذُنوبِ جَميعِها
إِن كانَ ثَمَّ مِنَ الذُنوبِ بَواقي

[ديوان أحمد شوقي، 367/2]

الإبداع والابتكار

ولم يكن شوقي في إظهار قدرته على مجاراة الأقدمين ليقف عند حدود الاتّباع أو التّقليد، بل تجاوزه إلى الإبداع، مظهرا براعة لا مثيل لها في معارضة كبار شعراء العصر العبّاسي، فأظهر في إبداع لا نظير

له قدرته على مجاراة البحتريّ في سينيّته المشهورة الّتي يصوّر لنا فيها إيوان كسرى، والتي مطلعها:

صُنْتُ نَفْسي عمّا يُدنِّسُ نَفْسي
وتَرَفَّعْتُ عَنْ جَدا كُلِّ جِبْسِ

وتظهر براعة شوقي بشكل أكبر في مجاراة شعراء المديح النّبويّ، في معارضته لقصيدة (البردة) للإمام البوصيري (696هـ) والتي نظمها في مئة وسبعة ستين بيتا، فنسج على منوالها قصيدته (نهج البردة) في مئة وتسعين بيتا، مفتتحاً إياها بالغزل:

ريمٌ على القاعِ بَينَ البانِ وَالعَلَمِ
أَحَلَّ سَفكَ دَمي في الأَشهُرِ الحُرُمِ
رَمى القَضاءُ بِعَينَي جُؤذَرٍ أَسَداً
يا ساكِنَ القاعِ أَدرِك ساكِنَ الأَجَمِ
لَمّا رَنا حَدَّثَتني النَفسُ قائِلَةً
يا وَيحَ جَنبِكَ بِالسَهمِ المُصيبِ رُمي
جَحَدتُها وَكَتَمتُ السَهمَ في كَبِدي
جُرحُ الأَحِبَّةِ عِندي غَيرُ ذي أَلَمِ

[ديوان أحمد شوقي، 201/1]

إلى أن يقول:

مُحَمَّدٌ صَفوَةُ الباري وَرَحمَتُهُ
وَبُغيَةُ اللَهِ مِن خَلقٍ وَمِن نَسَمِ
وَصاحِبُ الحَوضِ يَومَ الرُسلِ سائِلَةٌ
مَتى الوُرودُ؟ وَجِبريلُ الأَمينُ ظَمي
سَناؤُهُ وَسَناهُ الشَمسُ طالِعَةً
فَالجِرمُ في فَلَكٍ وَالضَوءُ في عَلَمِ
قَد أَخطَأَ النَجمَ ما نالَت أُبُوَّتُهُ
مِن سُؤدُدٍ باذِخٍ في مَظهَرٍ سَنِمِ
نُموا إِلَيهِ فَزادوا في الوَرى شَرَفاً
وَرُبَّ أَصلٍ لِفَرعٍ في الفَخارِ نُمي



[ديوان أحمد شوقي، 203/1]

شوقي والأندلس

وإلى جانب ما سبق فقد اطّلع شوقي على الأدب العربي ومظاهر الحضارة الإسلاميّة في الأندلس، فنظم الكثير من الدّرر إشادة بها، وببلده مصر، وأشهر ما نظمه عن حياه في الأندلس معارضته لـ (نونيّة ابن زيدون) التي مطلعها:

أَضْحى التَّنائي بَديلاً مِنْ تَدانِيْنا
ونابَ عَنْ طيبِ لُقْيانا تَجافِيْنا

والتي يقول فيها أحمد شوقي:

يا نائِحَ الطَلحِ أَشباهٌ عَوادينا
نَشجى لِواديكَ أَم نَأسى لِوادينا؟
ماذا تَقُصُّ عَلَينا غَيرَ أَنَّ يَداً
قَصَّت جَناحَكَ جالَت في حَواشينا؟
رَمى بِنا البَينُ أَيكاً غَيرَ سامِرِنا
أَخا الغَريبِ وَظِلّاً غَيرَ نادينا
كُلٌّ رَمَتهُ النَوى: ريشَ الفِراقُ لَنا
سَهماً وَسُلَّ عَلَيكَ البَينُ سِكّينا
إِذا دَعا الشَوقُ لَم نَبرَح بِمُنصَدِعٍ
مِنَ الجَناحَينِ عَيٍّ لا يُلَبّينا
فَإِن يَكُ الجِنسُ يا اِبنَ الطَلحِ فَرَّقَنا
إِنَّ المَصائِبَ يَجمَعنَ المُصابينا
لَم تَألُ ماءَكَ تَحناناً وَلا ظَمَأً
وَلا اِدِّكاراً وَلا شَجواً أَفانينا
تَجُرُّ مِن فَنَنٍ ساقاً إِلى فَنَنٍ
وَتَسحَبُ الذَيلَ تَرتادُ المُؤاسينا

[ديوان أحمد شوقي، 2/393-395]

خَصَائِصُ شِعْرِه:

- جمع شوقي في شعره بين التقليد والتّجديد، فقد كان من المحافظين على شكل القصيدة العمودية والقاموس اللّغويّ القديم، وجدّد في الكثير من مواضيع شعره نتيجة تلاحقه بالأدب الفرنسيّ. [ميشال خليل جحا، أعلام الشّعر العربيّ الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش. ص44]
- امتاز شعره بجزالة اللّفظ، وقوّة المعاني.
- كما امتاز شعر شوقي بصدق العاطفة، وقوّة التّصوير، وسعة الخيال.
- لم يكن شعر شوقي شعرًا ذاتيًا، فقلّما نجد أثرًا لذاته في شعره، بل كان شاعر (غيري) يكتب لغيره. [ميشال خليل جحا، أعلام الشّعر العربيّ الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش. ص48-49]

- عُرف شوقي أيضًا بشعره الغنائيّ، فكان شعره يُشبه السّمفونيّة، فغنّاه كل من عبد الوهاب وأم كلثوم، وفيروز وغيرهم. [ميشال خليل جحا، أعلام الشّعر العربيّ الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش. ص46]
- طرق شوقي جميع الأغراض الشعريّة التي عُرفت واشتهرت في عصره وقبله، كالشّعر الدّينيّ، والشّعر الوطنيّ، والشّعر السّياسيّ، ونظم في المدح والوصف والرّثاء والغزل... وهلمّ جرًّا.

شَوقي فِي ميزانِ النَّقدِ:

أُخذ على شوقي أنّه شاعر غيريّ فهو لا يعبر عن نفسه في شعره، ولا يصوّر ذاته بأهوائها وخواطرها، وإنّما كان شعره خالصًا للأسرة الحاكمة فكان يمدح حكّامها في كلّ المناسبات والأعياد، فعُرف بشاعر المناسبات، وكان ممّن أسرف في نقمه وتهجّمه عليه مدرسة العقاد. [ميشال خليل جحا، أعلام الشّعر العربيّ الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش، ص 48، جامعة المدينة العالميّة، أصول البحث الأدبي ومصادره. ص262]

ويقول صاحب كتاب أعلام الشّعر العربيّ الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش، ميشال خليل جحا: «غير أنّ الذين ينقصون من قدر الشّاعر، يأخذون عليه أنّه كان شاعر بلاط، وليس شاعر الشَّعب. شيء آخر ناتج من كونه شاعرًا رسميًا هو كثرة شعر المناسبات عنده ... ممّا جعل شعره ينحطّ ويسفّ» [ميشال خليل جحا، أعلام الشّعر العربيّ الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش. ص41] كمّا اتهم الكثير من النّقاد والأدباء شوقي بالسَّطو على أشعار العرب القدماء والسّرقة منها، وحاول ميشال خليل جحا ردّ هذه الادّعاءات، ونفيها من أساسها، وذلك في قوله: «قد تأثّر بفحول الشّعراء، الذين سبقوه وعاصروه، لكنَّه ما كان يقف وقفه السّارق المعدم، بل كان يُضيف من عنده إلى هذا الشّعر، ويقول شعرًا يعدله أو يفوقه» [ميشال خليل جحا، أعلام الشّعر العربيّ الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش. ص42]

> **"أُخذ على شوقي أنّه شاعر غيريّ فهو لا يعبر عن نفسه في شعره، ولا يصوّر ذاته بأهوائها وخواطرها، وإنّما كان شعره خالصًا للأسرة الحاكمة فكان يمدح حكّامها في كلّ المناسبات والأعياد، فعُرف بشاعر المناسبات، وكان ممّن أسرف في نقمه وتهجّمه عليه مدرسة العقاد.**

الوِلاياتُ والمَقاليدُ:

كان أحمد شوقي شاعرًا رسميًّا في بلاط حكّام مصر آنذاك، يثني عليهم ويمدحهم في جميع المناسبات والأعياد الدينيّة والوطنيّة، فعُرف عنه أنّه شاعر المناسبات. [ميشال خليل جحا، الشّعر العربي الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش. ص41]. كما عُيِّن شوقي بعد عودته من الدّراسة في فرنسا سنة 1892م إلى مصر رئيسًا لقلم التّرجمة في ديوان الخديوي عبّاس حلمي، وقرّبه إليه وقدّمه على جميع رجال حاشيته، حتى صار صاحب أمر ونهي في القصر يقصده الجميع. [شوقي ضيف، شوقي شاعر العصر الحديث. ص16].

واختير شوقي بعد عودته من المنفى بسنوات عضوًا في مجلس الشُّيوخ. [شوقي ضيف، شوقي شاعر العصر الحديث. ص37]

ومثّل سنة 1896م الحكومة المصريّة في مؤتمر المستشرقين المنعقد بجنيف بسويسرا.

الأَثَرُ العامُ والبَصْمَةُ:

ترك أحمد شوقي بصمة عميقة في تاريخ الشّعر العربيّ الحديث وفي شعراء عصره، ما يزال تأثيره إلى اليوم، ومن آثاره:
- تأسيسه للمدرسة الأدبيّة مدرسة الإحياء والبعث الشّعريّة إلى جانب كلّ من البارودي وحافظ إبراهيم.
- تجديده للعشر العربي وأغراضه، وجمعه بين الأصالة والمعاصرة.
- كان لشوقي دور بارز في الحياة السّياسيّة والاجتماعيّة في مصر آنذاك، ممّا جعل الكثيرين يعدّونه رمزًا للوطنيّة والقوميّة.

- ترك شوقي ما يزيد عن ثلاثة وعشرين ألف بيتٍ، ومجموعة من الرّوايات والمسرحيّات، وأدب الأطفال، ما تزال تُدَرَّس إلى اليوم.

- لحَّن وغنّى كل من عبد الوهاب، وأمّ كلثوم، وفيروز عددًا من قصائد شوقي، نظرًا لما تميَّز به شعره من جزالة اللّفظ وقوّة العاطفة، ورقّة حسِّه.

لَطائِفُ مِنْ حَياتِهِ:

ذكرت الكثير من المصادر التي روت سيرة أحمد شوقي، أنّ شوقي عندما كان في الثّالثة من عمره دخلت به جدّته على ديوان الخديوي إسماعيل، وكان بصره لا يفَارِق السّماء، فطلب الخديوي بَدْرَةً من الذّهب، ثمّ نثرها على البساط عند قدميه، فوقع شوقي على الذَهب يجمعه ويلعبُ به، وقال لجدّته: افعلي معه مثل هذا؛ حتى يعتاد النّظر إلى الأرض، فقالت: هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك، قال لها جيئي به إليّ متى شئتِ، إنِّي آخر من ينثر الذّهب في مصر. [فوزي عطوي، أحمد شوقي أميرة الشّعراء. ص12، الأمير شكيب أرسلان، شوقي أو صداقة أربعين سنة. ص32، شوقي ضيف، شوقي شاعر العصر الحديث. ص10]

وقد وصفه أحمد زكي أثناء التحاقه بمدرسة الحقوق سنة 1878م بقوله: "كان هزيلا، ضئيلا، قصير القامة، وسيم الطّلعة تقريبًا، فتى بعيون متألّقة، ولكنّها متنقّلة كثيرًا؛ فإذا نظر إلى الأرض دقيقة واحدة، فللسّماء منه دقائق متمادية، وإذا تلفّت صوب اليمين، فما ذاك إلا لكي يرمي ببصره نحو الشّمال، وهو مع هذه الحركات الهادئة المتنافرة، هادئ ساكن، كأنّما يتحدّث لنفسه، أو يتلاغى مع عالم الأرواح، وما كان يُلابسنا فيما نأخذ فيه من اللّهو والمزاح..." [فوزي عطوي، أحمد شوقي أمير الشّعراء. ص14، شوقي ضيف، شوقي شاعر العصر الحديث. ص12] ووَرد عن أحمد شوقي أنّه كان بشوش الوجه، يُقابل زائره بابتسامة، وكان كريمًا معطاء يتصدّق كثيرًا. [أحمد عبد الوهاب أبو العز، اثنا عشرة عامًا في صُحبةِ أمير الشُّعراء. ص75]

أَقْوالُ العُلَماءِ فيهِ:

يقول عنه صديقه الأمير شكيب أرسلان: «إنّي رأيتُ فيه الشّاعريّة بجميع شروطها: النّسج الرّقيق المتين والأسلوب الرّشيق الرّصين، وحكمت بأنَّ هذا الشّاعر سيكون من شعراء العصر، وإن لم أصل في الحكم إلى أنّه سيكون أمير شعراء العصر». [الأمير شكيب أرسلان، شوقي أو صداقة أربعين سنة. ص8]

> **يقول عنه صديقه الأمير شكيب أرسلان: «إنّي رأيتُ فيه الشّاعريّة بجميع شروطها: النّسج الرّقيق المتين والأسلوب الرّشيق الرّصين، وحكمت بأنَّ هذا الشّاعر سيكون من شعراء العصر، وإن لم أصل في الحكم إلى أنّه سيكون أمير شعراء العصر.**

وقال عنه ردًا على أعدائه: «إنّه وإن كان أسرف في المديح، وفي مديح أمير بلاده خاصّة، فلم يلوِّث شعره بالهجاء، ولم أسمع له قصيدة يهجو بها أحد ... فعفّة لسان شوقي ... دليلًا على زكاء طبعه، وفرط حيائه، وأيضًا على رجاحة عقله، وأصالة رأيه» [الأمير شكيب أرسلان، شوقي أو صداقة أربعين سنة. ص27، فوزي عطوي، أحمد شوقي أمير الشعراء. ص10]

وأثنى عليه إسعاف النّشاشيبي في حفلة تكريم له في القاهرة بحضور جميع غفير، في خطبة عنونها (العربيّة وشاعرها الأكبر أحمد شوقي)، فقال: «وأنّي أُقسم بالقرآنِ وبلاغته وإعجازه وعبقريته وعجائبه التي لن تُحصى، أنْ لو يَكرُم لفظ شوقي في الشِّعر كما كَرُم معناه، لو لم تُشرق هذه الدِّيباجة الشّوقيّة المليحة ذات الحفلة ذلك الإشراق، ما كان أحمد شوقي شاعر العربيّة الأكبر، وما كان ملك الشَّعر، وما كنتم أظفرتموه بهذا اليوم. ولكنَّه عاقل حكيم عرف كيف يقول، وكيّف يبني قصيدته، ويُشيِّد أهرامه ليخلد فيها». [إسعاف النشاشيبي، العربيّة وشاعرها الأكبر أحمد شوقي. ص29]

ووصفه شوقي ضيف في مطلع مقدمة كتابه بقوله: «شوقي ألمع شاعر في تاريخ الأدب الحديث، لتعدّد نواحيه الفنيّة، وتشعّب آثاره الأدبيّة». [شوقي ضيف، شوقي شاعر العصر الحديث. ص5]



عَبْقَرِيُّ العربيَّةِ
أبو الفَتْحِ ابْنُ جِنّي

(322هـ - 392هـ = 933م - 1002م)

للعربية منزلةٌ لا ترقى إليها لغة أخرى، وكفى بها شرفًا أن الله ختارها ليُنزل بها أعظم كتبه، وهو القرآن الكريم، فحباها بخصائص ليست في غيرها، وقيّض لها عُلماءَ كشفوا النِّقاب عن أسرارها وسماتها، وأبانوا عن قواعدها وأصولها، وكان من أبرز هؤلاء العلماء العالمُ الفذُّ الألمعيُّ أبو الفتح ابن جنّي، الذي عاش في القرن الرابع الهجريّ، بعد أن اكتملت معالم المدرستين النَّحْويَّتين البَصْريَّة والكوفيَّة، وبدأت المدرسةُ البغداديَّةُ بشقِّ طريقها إلى الظُّهور، فأفاد ابنُ جِنّي من هذه المدارس النَّحْويَّة، وأخذ عن كبار علماء العربية في عصره، ونأى بنفسه عن أن يكون مجرَّد تابع في العلم أو مقلِّد، وأرد أن يضرب بسهم وافر في خدمة العربيَّة، فدرسها دراسة تمحيص، وتأمَّلها ببصيرته النّافذة، وعبقريته الفريدة، واستخرج من كنوزها ما لم يُسبَق إليه، فأسهم في خدمة العربيَّة وطُلّابها إسهاماتٍ جليلةً، وخلَّف تراثًا علميًا فريدًا، خاصَّةً في علم التصريف وفقه اللُّغة، ولا يزال علمه منهلاً عَذْبًا لمن دراسة العربيَّة وفهمها فهمًا دقيقًا، فعُدَّ أحد الأقطاب الَّذين قامت عليهم علوم العربية.



د. معتز وسام المحتسب
خبير لغوي في المعجم التاريخي

الاسْمُ الكامِلُ:

الإمام، النَّحْويُّ، اللُّغويُّ، أبو الفتح، عثمان بنُ جِنّي، الأَزْديُّ بالوَلاء، الـمَوْصِليُّ، البَغداديُّ. ولا يُعرف مِن نَسَبه غيرُ أبيه، فلم يُذكَر في المصادر اسمُ جدِّه فمَن فوقَه. وأكثر كُتبه مُفْتَتَحة بعبارة: «قال أبو الفَتْح عثمان بن جِنّي». دون الزِّيادة على ذلك في ذِكر نَسَبه. [الفهرست. النديم، 268/1، معجم الأدباء. ياقوت الحموي، 1585/4]

وكان ابن جِنّي يُقِرُّ أنَّه غير معروف النَّسب، فأبوه كان روميَّ الأصل مملوكًا لسليمان بن فهد بن أحمد الأَزْديِّ وزير شرف الدَّولة قِرواش بن مُقلَّد صاحِب الـمَوْصِل، وقد قال ابن جِنّي أبياتًا من الشِّعر ذكر فيها أنه غير معروف النَّسَب وأنَّ الله عوَّضه بذلك علمًا، إليه يُنسَب وبه يشرُف، ومن هذه الأبيات:

فإنْ أُصْبِحْ بلا نَسَبِ
فَعِلْمي في الوَرى نَسَبي
على أنّي أؤولُ إلى
قُرومٍ سادةٍ نُجُبِ
قياصرةٍ إذا نَطَقوا
أرَمَّ الدَّهْرُ في الخُطَبِ

[تاريخ مدينة السلام. الخطيب البغدادي، 205/13، نزهة الألِبّاء.

أبو البركات الأنباري، 244]

وجِنّي -بإسكان الياء، وليس منسوبًا إلى الجِنِّ- معرَّب كني (چني؛ بين الكاف والجيم)، وهو في الأصل لفظ لاتينيٌّ (gennaius)، ويقابله في الإنجليزية لفظ (genius)، ومعناه في العربية: فاضل، كريم، نبيل، جيد التَّفكير، عبقري. [الإكمال. ابن ماكولا، 585/2، وفَيات الأعيان، ابن خلكان، 248/3، بغية الوعاة. السيوطي، 132/2، المدارس النحوية. شوقي ضيف، 265]

ولقَّبه بعضُ المعاصرين بفيلسوف العربيَّة. [تاريخ آداب العرب. الرافعي، 117/1، آثار البشير الإبراهيمي. البشير الإبراهيمي، 44/2]

مَراتِبُ العِلْمِ والسِّيادَة في بَيْتِ العَلَم:

المعلومات عن أسرة ابن جِنّي من جهة أصوله شحيحةٌ، فوالدُه كان عبدًا مملوكًا، ولم يُعرف شيء عن جَدّه فمن فوقه، ولم يُنقل عنهم الاشتغال بالعلم أو غير ذلك، بل ذُكر أن والد ابن جِنّي لم يكن صاحب علم، وقد استعاض ابن جِنّي عن ذلك بأن صنع مجدَه بنفسه، فاشغل بالعلم وأكبَّ عليه

> **للعربية منزلةٌ لا ترقى إليها لغة أخرى، وكفى بها شرفًا أن الله اختارها ليُنزل بها أعظم كتبه، وهو القرآن الكريم، فحباها بخصائص ليست في غيرها، وقيَّض لها عُلماءَ كشفوا النِّقاب عن أسرارها وسماتها.**

وغرسَ حُبَّه والرَّغبة فيه في أبنائه، فقد كان له من الولد ثلاثةٌ: عليٌّ وعالٍ وعلاء، وكلُّهم أدباءُ فضلاءُ قد خرَّجهم والدُهم وأجلسهم في مجالس العلم وحسَّن خطوطهم، فهم معدودون من ذوي الخطِّ الحسَن والضَّبط الصحيح. [فهرسة ابن خير. ابن خير الإشبيلي، 395، معجم الأدباء. ياقوت الحموي، 1589/4، الوافي بالوفيات. الصفدي، 311/19]

الأَشْياخُ والأساتيذُ ومجالس التَّحْصيل:

أقبل ابن جِنّي على طلب العلم منذ صِغَره وهو دون العشرين من عُمُره، وقرأ على علماء بلده المَوْصِل ورحل في الطلب إلى بغداد والشَّام، وأخذ عن كبار علماء تلك البلاد، كما ذكر في إجازته لأحد طلابه، وكان أكثر اهتمامه بعلوم اللُّغة حتى برَع فيها، ومن أبرز شيوخه:

1 - أحمد بن محمد أبو العباس



الـمَوْصِلي النَّحْويُّ، عُرِفَ بالأخفش، كان إمامًا في النَّحو، فقيهًا فاضلًا، عارفًا بمذهب الشّافعيِّ، أخذ عنه ابنُ جِنّي بعض علوم اللُّغة في أوَّل طلبه للعلم، فغرس فيه حب تعلُّم العربيَّة. [بغية الوعاة. السيوطي، 1/389، سلم الوصول. حاجي خليفة، 1/244]

2 - أبو بكر محمد بن الحسن بن يعقوب المعروف بابن مِقْسَم (ت: 354هـ)، أحد القراء ببغداد، وكان عالِمًا باللُّغة والشِّعر، ومن أحفظ الناس لنَّحْو الكوفيِّين، أخذ اللُّغة عن أبي العبّاس ثعلب، وقد أفاد منه ابن جِنّي في معرفة مذهب الكوفيّين في النَّحْو. [المنصف. ابن جنّي، 1/277، 347]

3 - أبو الفَرَج عليُّ بن الحسين الأصفهانيُّ (ت: 356هـ) الأديب المشهور صاحب كتاب الأغاني، روى ابن جِنّي عنه الشعر وأخذ عنه الأدَب، فكان من أسباب تكوين الملكة الأدبية عند ابن جِنّي. [المبهج في تفسير أسماء شعراء ديوان الحماسة. ابن جنّي، 229، سر صناعة الإعراب. ابن جني، 84، 88]

4 - أبو عليٍّ الحسن بن أحمد بن عبد الغفّار الفارسيُّ (ت: 377هـ)، أحد أعلام العربيَّة الكبار، انتهت إليه الرِّياسة في النَّحو والصَّرف في زمنه، وكان شيخ المدرسة البصريَّة في النَّحو، وعدَّه بعض الباحثين رائد المدرسة البغدادية في النَّحْو، كان أول لقاء لابن جنّي به حين قدم أبو علي إلى المَوْصِل سنة (337هـ)، ثم رحل ابنُ جِنّي إلى بغداد للأخذ عنه، وصحبه أربعين سنة ولازمَه سفَرًا وحضَرًا، وقرأ عليه بعض الكتب في العربية ككتاب سيبويه، فأخذ عنه مذهب البصريّين في النَّحْو والصَّرْف. وقد كان أبو علي الفارسيُّ أجلَّ شيوخ ابن جِنّي، وأعظمَهم مِنَّةً عليه، وأكثرهم تأثيرًا فيه، وكان الملهِم الأوَّل له في آرائه الدَّقيقة ونظرِيَّاته العميقة، في الكشف عن أسرار اللُّغة العربيَّة وخصائصها، وكان ابن جِنّي يفخر به، ويعرض عليه مصنَّفاته، ويعتدُّ بآرائه، ويُكثر في مؤلَّفاتِه من إيراد أقواله، حتَّى قيل: «ابنُ جِنّي صنيعةُ الفارسيِّ، وناشرُ عِلمه». [تاريخ العلماء النحويين. أبو المحاسن التنوخي، 24، نزهة الألِبّاء. أبو بكر الأنباري، 245، إنباه الرواة. القفطي، 2/335، المقاصد الشافية. الشاطبي، 3/133]



أقبل ابن جِنّي على طلب العلم منذ صِغَره وهو دون العشرين من عُمُره، وقرأ على علماء بلده المَوْصِل ورحل في الطلب إلى بغداد والشَّام، وأخذ عن كبار علماء تلك البلاد، كما ذكر في إجازته لأحد طلابه، وكان أكثر اهتمامه بعلوم اللُّغة حتى برَع فيها.

المُؤَلَّفاتُ:

صَنَّف ابن جِنّي في علوم اللُّغة كُتبًا فريدةً أبدع فيها وأبهر العقول، خاصَّة في أصول اللُّغة وفِقهها والنَّحْو والتَّصريف، وحاز في كثير منها قصَب السَّبق، وأتى فيها بقضايا لغوية لم يُسبَق إليها، ظهرت له من خلال التأمُّل في اللُّغة وأسرارها، فتفوَّق فيها على المتقدِّمين وأعجزَ عن مثلها المتأخِّرين، ومصنَّفاتُه معَ كثرتها في غاية الإتقان، لذا لَقِيَت ذيوعًا وانتشارًا وقَبولاً واستحسانًا منذ ألَّفها إلى يومنا، وهي متفاوتة في حجمها، تربو على الخمسين مصنَّفًا، وأكثرها وصل إلينا، فمن هذه المصنَّفات:

صَنَّف ابن جِنّي في علوم اللُّغة كُتبًا فريدةً أبدع فيها وأبهر العقول، خاصَّة في أصول اللُّغة وفِقهها والنَّحْو والتَّصريف، وحاز في كثير منها قصَب السَّبق، وأتى فيها بقضايا لغوية لم يُسبَق إليها.

- في فقه اللغة وأصولها:

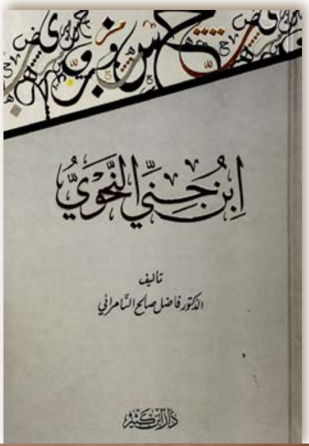
- الخصائص، وهو أعظم كتب ابن جنّي وأنفسها، وأغزرها علمًا، وأكثرها نفعًا، موضوعه فقه اللغة وأسرارها ونظامها وأصول النحو وقواعده العامَّة على غِرار أصول الفقه، وقد عرض فيه مباحث خطيرةً تتعلَّق باللُّغة، فلقي هذا الكتاب عناية كبيرة من قِبَل اللغويّين والباحثين.

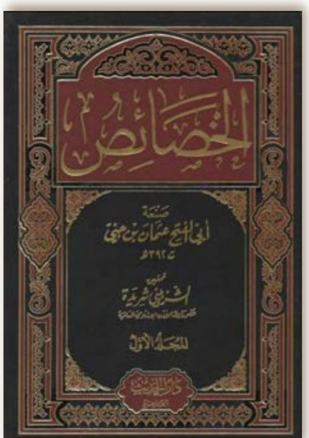
وقد وصف ابن جِنّي كتابه هذا في مقدّمته بأنه: «من أشرفِ ما صُنِّف في عِلم العرب، وأذْهَبِه في طريق القياس والنَّظْر، وأَعْوَدِه عليه بالحيطة والصَّون، وآخَذِه له من حِصَّة التَّوقير والأَوْن، وأجمَعِه للأدلَّة على ما أودِعَتْه هذه اللُّغة الشَّريفةُ من خصائص الحِكمة، ونيطت به من علائق الإتقان والصَّنْعة». [الخصائص. ابن جِنّي، 1/1]

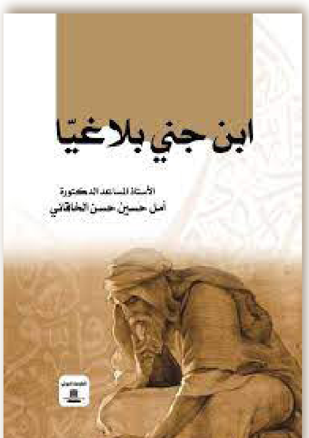
وتحدَّث ابن جِنّي في هذا الكتاب عن قضايا كلِّيَّة تتعلَّق بالعربيَّة أو اللُّغة عمومًا، كبيان ماهيَّة اللُّغة وأصلها، والاطِّراد والشُّذوذ فيها، وما كان فيها مبنيًّا على السَّماع أو القياس، وما يصحُّ فيه الاستحسان، وتحدَّث عن أحكامها وعللها، وعرض لقضايا لغويَّة كالاشتقاق والحقيقة والمجاز وتداخل الأصول واختلاف لغات العرب، إلى غير ذلك من القضايا اللُّغويَّة.

- في علمَي التَّصريف والأصوات:

- سرُّ صِناعة الإعراب، ويُعرَف اختِصارًا بسرِّ الصِّناعة. وهو من الكتب الفريدة الَّتي أبدع فيها ابن جِنّي، وأتى فيها بما لم يُسبق إليه، وقد صرَّح في غير موضع من كتابه



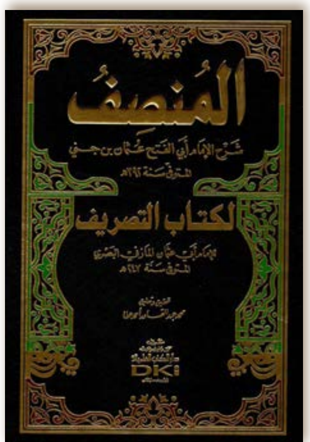




هذا بأن بعض المسائل والقضايا لم يجد أحدًا قبله عرض لها أو بحثها بحثًا يليق بها.

وقد أبان ابن جِنّي في مقدِّمة كتابه عن مقصده من تأليفه، فذكره أنَّه أراد به أن يضع «كتابًا يشتمل على جميع أحكام حروف المعجم، وأحوال كلِّ حرف منها، وكيف مواقعه في كلام العرب"، وأن يذكر "أحوال هذه الحروف في مخارجها ومدارجها، وانقسام أصنافها، وأحكام مجهورها، ومهموسها، وشديدها ورخوها، وصحيحها ومعتلها، ومطبقها ومنفتحها، ...، إلى غير ذلك من أجناسها» وأن يذكر «فرق ما بين الحرف والحركة، وأين محلُّ الحركة من الحرف» وأن يذكر أيضًا "الحروف التي هي فروع مستحسَنة، والحروف التي هي فروع مستقبحة، والحركات التي هي فروع متولدة عن الحركات" وأن يذكر أيضًا «أحوال هذه الحروف في أشكالها، والغرض في وضع واضعها، وكيف ألفاظها ما دامت أصواتًا مقطعة، ثم كيف ألفاظها إذا صارت أسماء معربة، وما الذي يتوالى فيه إعلالان بعد نقله، مما يبقى بعد ذلك من الصحة على قديم حاله» ثم يُفرد بعد ذلك لكل حرف منها بابًا يذكر فيه «أحواله وتصرفه في الكلام، من أصليته وزيادته، وصحته وعلته، وقلبه إلى غيره، وقلب غيره إليه». [سر صناعة الإعراب. ابن جِنّي، 1/3-5]

فالموضوع العامُّ لهذا الكتاب علم الأصوات وعلم التَّصريف، والمراد





بالإعراب في عنوان الكتاب الإبانة والإيضاح، فهو يُعنى ببيان سرِّ وضوح ألفاظ الكلام في العربيَّة، فتحدَّث عن حروف المباني حرفًا حرفًا وبيَّن مخارجها وصفاتها وأحكامها، وذكرَ ما يتعلق بها من قضايا تصريفية، كذكر تصريف أسمائها وجموعها والأفعال المشتقَّة للدلالة على كتابتها، وقد ذكرَ حروف المعاني الأُحادية في أثناء الكلام على حروف بنائها، وذلك من باب الاستطراد واستيفاء الكلام على الحروف المفردَة، وقد وقف ابن جِنّي عند كل قضية من قضايا الكتاب وقفة متأنِّية وأشبعها بحثًا ودراسة وتأصيلاً.

- المنصِف شرح تصريف المازني، وهو كتاب في علم الصرَّف، يعَدُّ من أهمِّ كُتب هذا العلم، شرح فيه ابنُ جنّي كتب التصريف للمازني.

- الملوكيُّ في التَّصريف، وهو كتاب مختصَر في علم التَّصريف، وضعه ابن جِنّي للمبتدئين في علم التَّصريف، بدأه بمقدِّمة عن معنى التَّصريف، ثمَّ تحدَّث عن تصريف الأفعال، ثمَّ تصريف الأسماء، ثمَّ حروف الزيادة، ثمَّ أحكام البدل والحذف والإعلال والقلب، وختم الكتاب بمسائل في التدريب. وهذا الكتاب واحد من متون علم التَّصريف الَّتي حظيت باهتمام العلماء إقراءً وشرحًا. ومن أشهر شروحه: شرح تلميذ ابن جِنّي عمر بن ثابت الثَّمانينيِّ (ت: 442)، وشرح ابن يَعيش النَّحْوي (ت: 643هـ).

- في علم النَّحو:

- اللُّمَع في العربية، وهو كتاب مختصَر في علم النحو وفيه بعض مباحث الصَّرف، وضعه ابن جِنّي للمبتدئين في دراسة النَّحْو، وقيل: إنَّه جمعه من كلام شيخه أبي عليٍّ الفارسيِّ. بدأه بذكر الأحكام النَّحْويَّة كالإعراب والبناء، وبعض أحكام الجملة الاسميَّة والفعليَّة، ثم ذكر مسائل صرفيَّة كجمع التَّكسير والنَّسب والتَّصغير وهمزة الوصل.

وهذا الكتاب واحد من متون علم النَّحْو الَّتي حظيت باهتمام العلماء إقراءً وشرحًا. ومن أشهر شروحه: (الغرَّة في شرح اللُّمع) لابن الدَّهّان البغداديّ (ت: 569هـ)، و(توجيه اللُّمع) لابن الخبّاز المَوصلي (ت: 639هـ).

- الخاطريات، وهو كتاب متوسِّط الحجم، فيه مسائل دقيقة متفرِّقة في النَّحْو والصَّرف، ظهرت لابن جِنّي بعد التأمُّل وإعمال الفِكْر وكدِّ الخاطر، وكأنَّها استدراكات وإكمال لموضوعات طرقها في كتبه الأخرى.

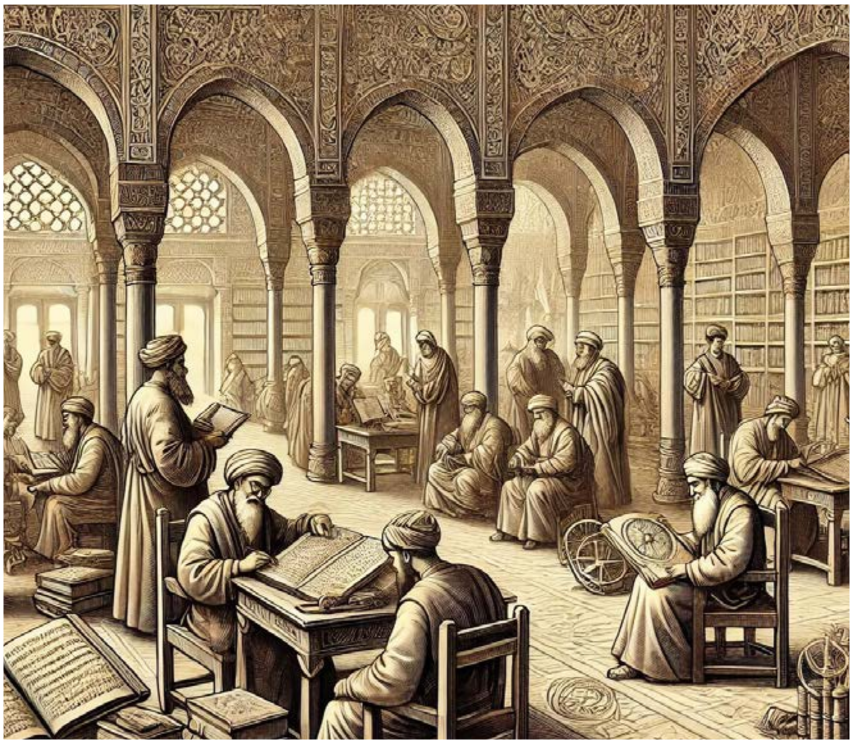
- مختار تذكرة أبي علي الفارسي وتهذيبها. وهو مختصر لكتاب التذكرة لأبي علي الفارسي، الذي جمع فيها مسائل متنوعة في النَّحو والصرف.

- علل التثنية، وهي رسالة صغيرة الحجم، في بيان أحكام أَلِف التَّثنية وأحوالها.

- مسألتان من كتاب الإيمان لمحمد بن الحسن، هدف فيهما ابن جِنّي إلى التَّدليل على أن الفتاوى الفقهيَّة المتعلِّقة بالأيمان مسوقة على كلام النُّحاة في الشَّرط وجوابه من أبواب النَّحو.

- في توجيه القراءات:

- المحتسَب في تبيين وجوه شواذِّ القراءات والإيضاح عنها، قصد ابن جِنّي من تأليفه بيان صِحَّةِ القراءات الشاذَّة من جهة اللُّغة، وهو في أصله توجيه للقراءات الشَّاذَّة في كتاب الشواذِّ في القراءات لابن مجاهد البغداديِّ.



- في الشِّعر وشرحه:

- التنبيه على شرح مشكلات أبيات الحماسة، وموضوعه إيضاح المشكِل أو الغامِض في أبيات حماسة أبي تمام، من جهة إعراب ألفاظها أو تصريفها أو اشتقاقها، أو عروضها وقوافيها، ولم يتطرَّق إلى تفسير معاني الألفاظ إلا ما توقَّف بيان إعرابه عليه. وقد صرَّح ابن جِنّي في مقدِّمة هذا الكتاب أنَّه لم يؤلِّفه للمبتدئين أو المتوسِّطين، وإنَّما ألَّفه لمَن تدرَّب فِكرُه وقَوِي نَظَرُه في علوم اللُّغة.

- الفتح الوَهْبيّ على مشكلات المتنبّي، ويُعرَف بشرح أبيات المعاني عن المتنبي المعروف، وهو شرح مختصر لبعض شعر المتنبي.

- الفَسْر، وهو شرح ابن جنّي الكبير لديوان شعر المتنبي.

- التَّمام في تفسير أشعار هُذيل (مما أغفله أبو سعيد السكري).

- تفسير أرجوزة أبي نُواس، وهو شرح لأرجوزة نظمها الشاعر العبّاسيُّ أبو نواس الحسن بن هانئ يمدح فيها الفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين.

- في العَروض والقافية:

- العَروض، وموضوعه بحور الشعر العربيِّ والدَّوائر العَروضيَّة.

- المعرب في شرح قوافي أبي الحسن، أو الكافي القوافي، وهو شرح لكتاب القوافي لأبي الحسن الأخفش الأوسط، كان يُظنُّ أنَّه مفقود، ثم عُثِر على نسخة خطِّيَّة له.

- في متن اللُّغة وغريبها:

- المبهج في تفسير أسماء شعراء ديوان الحماسة، وهو كتاب طريف

في موضوعه، شرح أسماء شعراء حماسة أبي تمّام شرحًا لغوية، وبيَّن ما كان منها منقولاً وما كان مرتجلاً.

- الألفاظ المهموزة، وهو كتاب جمع فيه ابن جِنِّي الألفاظ المهموزة الكثيرة الاستعمال الَّتي يحتاج الكاتب إليها ويفتقر إلى معرفتها، ويقصد بالألفاظ المهموزة: الأفعال التي لامها حرف همزة، فرتَّبها على حروف المعجم بحسب أوائلها، وذكر بعض تصريفاتها، وبيَّن معنى ما غمُض منها.

- المقتضَب من كلام العرب في اسم المفعول من الثلاثي المعتل العين، وهو معجم صرفي مختصٌّ باسم المفعول من الفعل الثلاثي المعتل العين بالواو والياء، متعدِّيًا كان أو لازمًا، رُتِّبت فيه الألفاظ ترتيبًا هجائيًّا بحسب لام الكلمة ثم فائها، مع بيان معنى ما احتاج إلى ذلك منها.

- المذكَّر والمؤنَّث، وهو كتاب صغير الحجم، أورد فيه ابن جنّي ما كان من الألفاظ يعتمد على السماع في تذكيره أو تأنيثه، بدأ فيه بذكر المؤنَّث الَّذي لا يجوز تذكيره، ثم ذكر المذكَّر الذي لا يجوز تأنيثه، ثم ذكر الألفاظ المذكَّرة والمؤنَّثة وما ورد بالوجهين، مرتَّبةً على حروف الهجاء بحسب أوائلها، وقد يبيِّن معناها إن احتاجت إلى ذلك.

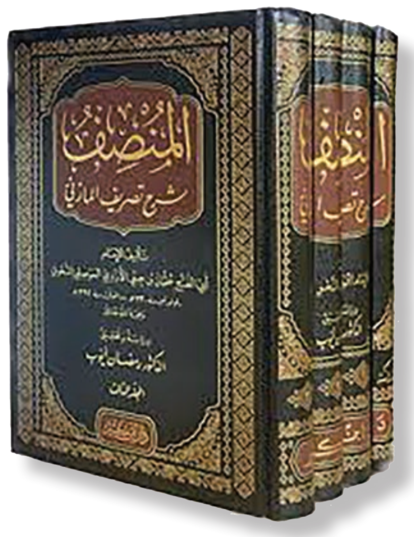
- في الرسم والإملاء:

- عقود الهمز، وهو رسالة صغيرة الحجم في أحكام رسم الهمزة.

- ومن كتبه التي هي في عِداد المفقود:

- محاسن العربية.

- المسائل الواسطية، وهو كتاب جمع فيه



إجابات عن أسئلة في اللُّغة والنَّحو سُئِلَها حين نزلَ بواسِطَ.

- كاب الفَرْق بين الكلام الخاصِّ والعامِّ.

- النقض على ابن وكيع في شعر المتنبي وتخطئته. وابن وكيع هو لحسن بن على التِّنّيسي صاحب كتاب المنصف للسارق والمسروق منه.

- النَّوادر الممتِعة في العربيَّة.

- تفسير العلويّات، وهو شرح لأربع قصائد للشَّريف الرَّضي.

- البشرى والظَّفَر، وهو كتاب صغير الحجم في شرح بيت من الشعر لعضد الدَّولة البُوَيْهيّ.

- شرح كتاب المقصور والممدود لابن السِّكّيت.

- شرح كتاب المذكَّر والمؤنَّث لابن السِّكّيت.

- شرح كتاب الإبدال لابن السِّكّيت.

- شرح كتاب الفصيح لأبي العبّاس ثعلب.

- تعاقب العربية، وهو في أقسام البدل والمبدل منه، والعوض والمعوض منه.

- الوقف والابتداء.

- التلقين في النَّحْو. وقيل: هو كتاب اللُّمَع، وقيل هو غَيْرُهُ..

- التَّذْكرة الأصبهانيَّة.

- المهذَّب.

- التَّبْصرة.

- التَّنْبيه.

[الفهرست. النديم، 1/268، تاريخ بغداد. الخطيب البغدادي، 13/205، فهرسة ابن خير. ابن خير الإشبيلي، 394، نزهة الألبّاء. أبو البركات الأنباري، 244، معجم الأدباء. ياقوت الحموي، 4/1597-1600، الوافي بالوَفيات. الصفدي، 19/314]

- شِعره:

كان ابن جنّي يُجيد الشِّعر، ولكن كان الشِّعْر أقلَّ خلاله لعظم قَدْره وارتفاع حاله، فوُصف شِعره بأنه شعر بارد. ولم يرد عنه شِعر كثير، وقد أورد الباخَرْزيُّ وياقوت الحموي وغيرُهما جملة منه. [يتيمة الدهر. الثعالبي، 1/137، دمية القصر. الباخرزي، 3/1481، الإكمال. ابن ماكولا، 2/585، معجم الأدباء. ياقوت الحموي، 4/1591]

ومن شعره في الغَزَل:

غزالٌ غيرُ وحشيٍّ
حكى الوحشيُّ مُقلتَهُ
رآهُ الوردُ يَجني الورْ
دَ فاستكساهُ حُلَّتَهُ
وشَمَّ بأنْفِهِ الرَّيحا
نَ فاستهداهُ زَهرتَهُ
وذاقَتْ ريحَهُ الصَّهْبا
ءُ فاختلَسَتْهُ نَكْهَتَهُ

التَّلاميذُ ومَجالسُ التَّدْريس:

جلس ابن جِنّي للتَّدريس في وقت مبكّرٍ من حياته، قبل أن يلازم أبا عليٍّ الفارسيِّ، ثم لَمّا توفِّي الفارسيُّ خلفهُ

في التدريس، وكان قد ذاع صيتُهُ وطبَّقت شُهرَتُه الآفاق فأقبل عليه الناس يأخذون عنه وينهلون من مورده، ولازمه وانتفع بِهِ وتفقَّه عليه خلقٌ كثير وعلماءُ أجلّاء؛ منهم:

1 – أبو أحمد عبد السَّلام بن الحسين بن محمد البصريُّ اللُّغويُّ (ت: 405هـ)، قرأ على أبي عليٍّ الفارسي والسيرافي وابن جني وغيرهم، وروى عن ابن جِنِّي كُتُبه وصحَّحها. [نزهة الألِبّاء. أبو البركات الأنباري، 246]

2 – أبو الحسن علي بن عبيد الله بن عبد الغفّار السِّمسمي (ت: 415هـ)، كان لُغَوِيًّا بارِعًا، تصدَّر ببغداد للرِّواية وأقرأ الأدب. [نزهة الألِبّاء. أبو البركات الأنباري، 246]

3 – علي بن زيد القاشانيُّ (ت بعد: 411هـ)، كان معروفًا بجودة الخطِّ والضَّبْط، روى عن ابن جِنّي كتابه المحتسَب في تبيين وجوه شواذِّ القراءات. [معجم الأدباء. ياقوت الحموي، 4/1759]

4 – أبو الفتوح ثابت بن محمد الجُرْجانيُّ الأندلسِيُّ (ت: 431هـ)، كان من أئمة اللغة العربية البارزين، وبعد تمكُّنه من العلوم رحل إلى الأندلس، وروى لهم بها عن ابن جنّي وغيره، فكان من أسباب نشر علم ابن جِنّي في بلاد الأندلس. [إنباه الرُّواة. القفطي، 1/298]

5 – أبو القاسم عمر بن ثابت الثَّمانيني (ت: 442هـ)، أخذ عن ابن جِنّي علوم اللّغة من نَحْوٍ وصرفٍ وغيرهما، وشرح بعض كتبه كاللُّمَع في النَّحو، والملوكي في التَّصريف، وكان من كبار علماء التَّصريف في وقته؛ لإفادته من ابن جِنّي في هذا العلم. [ذيل تاريخ بغداد. ابن النجار البغدادي، 20/35]

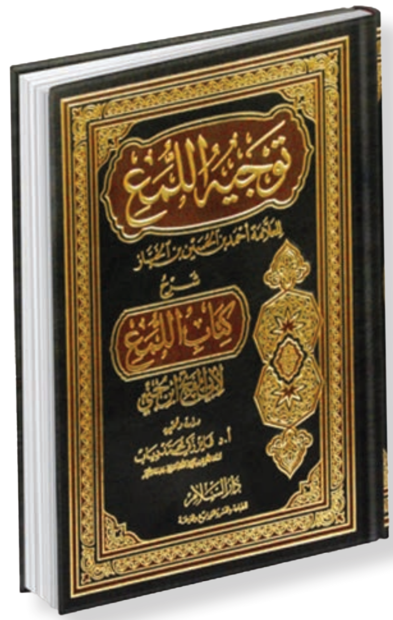
6 – أبو سعد عالي بن عثمان بن جِنّي، ابنُ صاحب الترجمة (ت: 459هـ). أخذ العربية عن أبيه وعن أبي عليّ الفارسيّ، وكتب بخطِّه كثيرًا من كُتب أبيه وكتب غيره. [إنباه الرُّواة. القفطي، 2/385]

7 – أبو غالب محمد بن أحمد بن سهل بن بشران الواسطيُّ (ت: 462هـ)، انتهت إليه الرِّحلةُ في علم الأدب والنَّحْو واللُّغة والحديث. [إنباه الرُّواة. القفطي، 2/340]

8 – عَضُد الدَّولة فَنَّاخِسْرُو بن حسن بن بُوَيْه الدَّيلمي (ت: 372هـ)، قرأ على ابن جِنّي علمَ النَّحوَ. [مرآة الزمان. سبط ابن الجوزي، 18/134]

المَناهِجُ الَّتي تُبْرِزُ شَخصِيَّتَهُ العِلْمِيَّة:

تميَّز ابن جنِي بشخصيَّة علميَّة فريدة، جعلته بتوفيق الله أحد أعمدة علوم



جلس ابن جِنّي للتَّدريس في وقت مبكِّرٍ من حياته، قبل أن يلازم أبا عليٍّ الفارسيِّ، ثم لَمّا توفِّي الفارسيُّ خلفهُ في التدريس، وكان قد ذاع صيتُهُ وطبَّقت شُهرَتُه الآفاق فأقبل عليه الناس يأخذون عنه وينهلون من مورده، ولازمه وانتفع بِهِ وتفقَّه عليه خلقٌ كثير وعلماءُ أجلّاء.

كان ابن جنّي يُجيد الشِّعر، ولكن كان الشِّعْر أقلَّ خلاله لعظم قَدْره وارتفاع حاله، فوُصف شِعره بأنه شعر بارد. ولم يرد عنه شِعر كثير، وقد أورد الباخَرْزِيُّ وياقوت الحموي وغيرُهما جملة منه.

العربيَّة، وتحرير ذلك على أنحاء:

الأوَّل: الذَّكاء الفطريّ وتوقُّد الذّهن

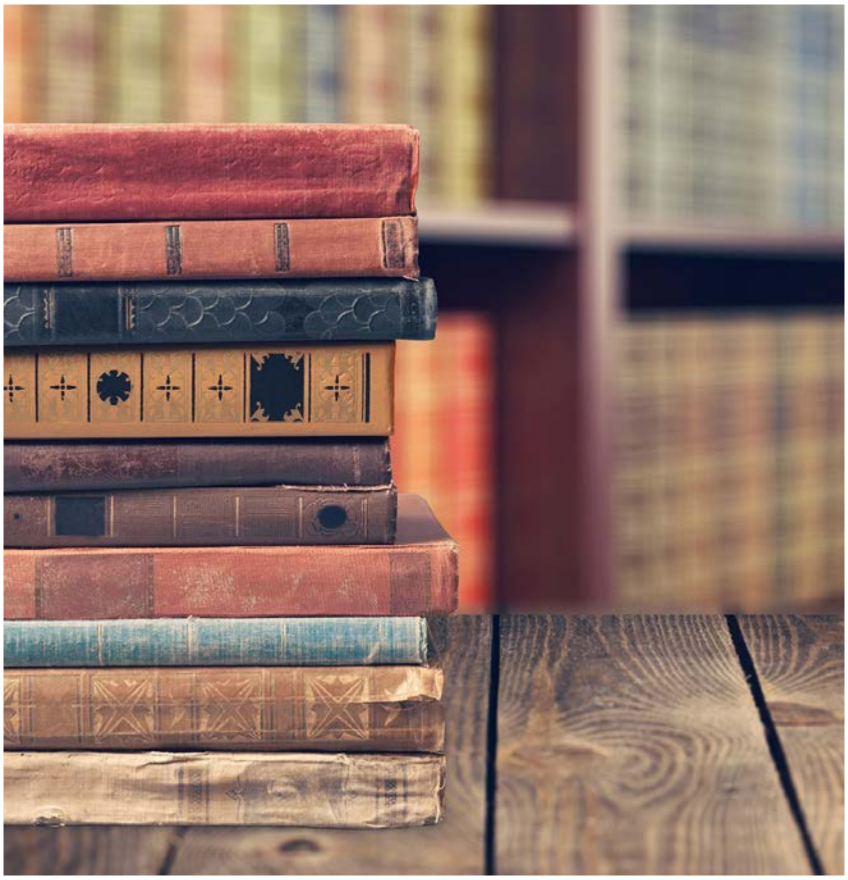
اتَّصف ابن جِنّي بحدَّة الذَّكاء وتوقُّدِ الذِّهن، والقدرة العالية على التَّحليل والاستنباط، وهذا الأمر ساعده على الكشف عن أسرار اللُّغة العربيَّة والوقوف على خصائصها وأسرارها. [مسالك الأبصار. ابن فضل الله العمري، 7/116، دراسات في فقه اللغة. صبحي الصالح، 23]

والثّاني: أخذ العلم عن الأكابر

اعتنى ابن جنِّي بأخذ علوم اللُّغة العربيَّة عن كبار العلماء في عصره، فقد أخذ عن جمع من علماء عصره، لكنه خصَّ واحدًا منهم بطول الصُّحبة والملازمة، لأنه وجد عنده ما لم يجده عند غيره، وهو أبو عليٍّ الفارسيُّ، الذي كان من أنْحى أهل عصره وأعلمهم بالتصَّريف ودقائق العربيَّة، فلزمه ابن جِنّي أربعين سنةً، يستقي من علمه، وينهل من خبرته، ويقرأ عليه بعض الكتب الأصيلة ككتاب سيبويه، وكان يعرض عليه ومؤلَّفاته ليفيد من ملحوظاته واستدراكاته، فأثَّر ذلك فيه تأثيرًا كبيرًا واكتسب منه علمًا غزيرًا. [نزهة الألِبّاء. أبو البركات الأنباري، 245]

والثّالث: سَعةُ الاطِّلاع على كتب المتقدِّمين.

كان ابن جِنّي واسع الاطلاع على كتب المتقدِّمين في علوم اللُّغة، مُلمًّا بمذاهب النَّحويّين البصريّين والكوفيّين، وقد اختصر بعض كتب من تقدَّمه؛ ليسهُل عليه الإحاطة بما فيها؛ لاستحضار ما يريده منها، ويظهر هذا من خلال التأمُّل في مؤلَّفاته. [الفهرست. النديم، 1/268، تاريخ بغداد. الخطيب البغدادي، 13/205، فهرسة ابن خير. ابن خير الإشبيلي، 394، نزهة الألِبّاء. أبو البركات الأنباري، 244، معجم الأدباء. ياقوت الحموي، 4/1597]



والرّابع: تلقّي العربيَّة بمشافهة الأعراب الفصحاء

لم يكتفِ ابن جِنّي بأخذ علوم اللُّغة العربيَّة عن علماء عصره وعمَّن سبقه من خلال الكتب، بل كان يجالس الأعراب الفُصَحاء ويسألهم ويختبرهم ليعلم فصاحتهم وطريقة نطقهم، وكتابه (الخصائص) فيه أمثلة على ذلك. [الخصائص. ابن جنّي، 1/241]

الوِلاياتُ والمَقاليدُ:

لم يتولَّ ابنُ جِنِّي منصبًا سياسيًّا؛ فقد كان يؤثر الاشتغال بالعلم، ولكنه لازم بعض رجال السياسية والحكم في عصره، فقد خدم البيتَ البويهيَّ: عَضُدَ الدَّوْلة البُوَيْهيَّ، وأولاده صَمْصام الدَّوْلة، وشرف الدَّوْلة، وبهاء الدَّوْلة، فكان يُلازمهم في دورهم ويُباتُهم. [إنباه الرواة. القفطي، 2/335]

وقد انتهت إليه الرِّياسة في علم النَّحْو والصَّرف ببغداد بعد وفاة شيخه أبي عليه الفارسيّ. [نزهة الألِبّاء. أبو بكر الأنباري، 245]



أَدَبٌ ونَقدٌ

- صَنعةُ الاقْتِبَاسِ والتَّضْمِينِ في شِعْرِ الأمير أبي الرَّبيعِ المُوَحِّدِيِّ
- المُضْحِكُ فِي إِخْوانيّاتِ عَبْدِ السَّلامِ العُجَيْلِيِّ
- السِّينمَا والأدبُ: حوارُ الصُّـــورةِ والكلِمَــةِ في عالَمِ الإبداعِ
- تَنَاسُبُ الإيقَاعِ والوَاقِعِ النَّفْسِيِّ في نُونِيَّةِ ابنِ زَيْدُون
- الدِّينَامِيّةُ وامْتِدَادَاتُهَا في المجَالِ الأَدَبيِّ
- الرِّوَايَةُ، وجَمَالِيَّاتُ التَّعْبيرِ



صَنعةُ الاقْتِبَاس والتَّضْمِينِ في شِعْرِ الأميرِ أبي الرَّبيعِ المُوَحِّدِيِّ

برعَ الشّعراءُ الموحّدونَ في فنونِ الصّنعةِ الشِّعريّةِ براعةً لافتةً، وذهبُوا فيها كلَّ مذهبٍ، مدفوعينَ بعواملَ عدّةٍ منها: الإرثُ الدّينيُّ، والإرثُ الأدبيُّ؛ فتجدُهم يتّكئُونَ على كلٍّ منهما في المعاني الشِّعريّةِ؛ لخلْقِ مضمونٍ وافٍ متينٍ في نسيجهم منَ الشِّعرِ، ونتيجةً لذلكَ يلحظُ المُتابعُ أشعارَهم بعامّةٍ، وشعْرَ الأميرِ الموحّديِّ منهم بخاصّةٍ أنّ ثمّةَ ظاهرتَينِ: أُولاهُما الاقتباسُ منَ القرآنِ الكريمِ، وثانيهما التّضمينُ من شعرِ القدماءِ، قد برزتَا في شِعرِه بروزًا يدعُو إلى استجلائِهما، ولاسيما أنّهُ كان أميرًا ذا شِعرٍ على درجةٍ منَ الجودةِ، ولذلكَ اتّجهَ هذا البحثُ إلى إبرازِ هاتينِ الصّنعتَينِ في شعرِه، ومدلولاتِهما، ومكامنِ الجمالِ والجودةِ فيهما، وما أضْفَتاه من قيمةٍ عُليا، وما كان لهما من يدٍ طُولى في إرثِه الشّعريِّ.



أ.د.علي إبراهيم كردي
باحثٌ أكاديميٌّ

أوّلًا: صَنْعةُ الاقتباسِ في شعرِ الأميرِ الموحّديِّ:

لا يخفَى على أيِّ دارسٍ للأدبِ المغربيِّ أنَّ دولةَ الموحّدينَ قامَت على أُسسٍ دينيّةٍ مَكينةٍ، وكانت ذاتَ صِبغةٍ إسلاميّةٍ تسرّبتْ إلى مناحِي الفكرِ والثّقافةِ والأدبِ، وقد كان الأميرُ الموحّديُّ أبُو الرّبيع أحدَ رجالاتِها، وشعرائِها، وهو إذْ خلّفَ ديوانًا طريفًا فقد دبّجَه بفنونِ الصّنعةِ المختلفةِ ومنها صَنعةُ الاقتباسِ منَ القرآنِ الكريمِ. والاقتباسُ كما لا يخفَى: هو أن يَعمدَ الشّاعرُ أوِ الأديبُ إلى القرآنِ الكريمِ فيَقبسَ منهُ ما يَدعمُ مُرادَهُ بطريقتَين، فإمّا أن يأخذَ الآيةَ الكريمةَ بالحرفِ، وإمّا أن يَعمدَ إلى معناها فيقبسَهُ.

ولـمّا كانَ القرآنُ الكريمُ بتعاليمِهِ مَوردًا ثرًّا للبشريّةِ فقد أخذَ منهُ كلُّ مُتْقِنٍ صنعةً ما يُعينهُ على تمامِ الإتقانِ، ولذلكَ فإنَّ الاقتباسَ صنعةٌ قلَّما نجدُ شاعرًا في عصرِ الموحّدينَ إلّا تَسرّبتْ في مسَاماتِ شِعرِهِ، غيرَ أنَّ لأبي الرّبيعِ نكهةً فيها مختلفةً عن غيرِهِ؛ فالرّجلُ يَلجأُ إليها في حالاتٍ نفسيّةٍ منَ الانكسارِ والفرحِ والجذَلِ على حدٍّ سواء، ويقتبسُ آنَ ذلكَ منَ القرآنِ الكريمِ بالحرفِ؛ يقولُ في التّعبيرِ عن صدِّ محبوبتِهِ لهُ: (البحر المديد)

فَلِمَنْ أَشْكُو فَقَدْ ضَاقَ ذَرْعِي
حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلْ
إنْ يَكُنْ وَصْلٌ فَنُعْمَى لِعَيْنٍ
أَوْ يَكُنْ هَجْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلْ

تتبدّى لهجةُ اليأسِ والانكسارِ واضحةً في الأبياتِ، حتّى إنّها تُطفئُ المُعتادَ منَ الشّاعرِ بالتّعبيرِ عن حالهِ مُتوسّلًا ببعضِ الصّنعةِ اللّفظيّةِ، والمعنويّةِ، وقدِ اكتفَى هنا بالتّوسُّلِ بالقرآنِ الكريمِ، وأخذِ قبسَين من آياتهِ أوّلُهما في عَجُزِ البيتِ

الأوّلِ فقد اقتبسَهُ من قولهِ جلَّ وعلا: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ ، وهو القولُ الذي لا غنًى عنه في مثلِ هذه الحالاتِ، غيرَ أنّ سَكْبَهُ عَجزًا شعريًّا بعد استفهامٍ عمّن يشكُو إليهِ حالَهُ فيهِ منَ الدّلائلِ على قوّةِ صلةِ الشّاعرِ بربّهِ، فلم يتسلَّ عنها بخمرٍ، ولم يشْكُ صدَّها لصاحبٍ أو أهلٍ، إنّما قالَ بعد أن ضاقَ ذرعُهُ: حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، هذا وقد عرضَ في البيتِ الثّاني حالَيْ أيِّ محبوبَينِ من وصلٍ وهجرٍ، غيرَ أنّهُ عقدَهما بشرطٍ فيه رائحةُ الرّضا والتّسليم بما يكونُ منَ القدَرِ؛ فإنْ يكنْ وصلاً فنُعمى لعينه، أمّا إن كان هجرًا فلا بدَّ منَ التّعبيرِ عنِ الصّبرِ باقتباسٍ حرفيٍّ من قولهِ تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ، ولا بدَّ منَ الالتفاتِ ههنا إلى أنَّ الأميرَ قد تعمّدَ أن يجعلَ خواتيمَ أبياته حيثُ مستقرُّ القافيةِ منَ القرآنِ الكريمِ وهو أثبتُ في الذّهنِ، وأعْلَقُ في النّفسِ، ولا سيما أنّها آخرُ ما يكونُ في البيتِ، ويُسمعُ منهُ.

لنستمعْ إلى الأميرِ الموحديِّ في غيرِ حالٍ بل في حالٍ تكادُ تكونُ مناقضةً لهذهِ، وقد عمدَ إلى الاقتباسِ الحرفيِّ في وصفِ لونِ الخمرةِ؛ فقالَ: (بحر السّريع)

أنْزِلَاهَا دُرَّةً كَاللآلِي
وَارْفَعَاهَا وَرْدَةً كَالدِّهَانِ

يُخاطِبُ اثنينِ على عادةِ العربِ في الخطابِ، ويعقدُ طباقًا في صيغةِ الأمرِ (أنزلاها، وارفعاها) وهي في حالها الأولى عندما تُدنى دُرّةٌ، والمقصودُ صفاؤها ونقاءُ لونها كأنّها الدُّرَّةُ، أمّا في حالها الثّانية عندما تُرفعُ فلا يجدُ الشّاعرُ أجملَ منَ التّدبيجِ والاقتباسِ منَ الألوانِ التي أوردها القرآنُ الكريمُ، فعمدَ إلى قولهِ تعالى:﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ ، يدلُّ هذا على قوّةِ حضورِ القرآنِ الكريمِ في ذهنِ الشّاعرِ، والمقدرةِ على استحضارِ الجُزئياتِ والتّفاصيلِ، ولا سيمَا التّدبيجُ وتوظيفُه في الشّعرِ من ناحيةٍ، ويدلُّ من ناحيةٍ أخرى على أنَّ الشّعرَ يكونُ في كثيرٍ من حالاتهِ تعبيرًا فنّيًّا صِرفًا؛ فأبو الرّبيع أميرٌ ومن كمالِ صَنعتهِ الشّعريّةِ الفنّيّةِ أن يصفَ الخمرَ، أمّا أن يصفَها، ويُدبّجَ بوصفِها منَ القرآنِ الكريمِ فهذا خيرُ دليلٍ على أنّه لمحضِ الصّناعةِ الفنيّةِ، وقد يترفّعُ عن شُربها، والله أعلم.

لم يقتصرِ الاقتباسُ عند أبي الرّبيعِ على القرآنِ الكريمِ، بل تجدُهُ اقتبسَ منَ الحديثِ النّبويِّ الشّريفِ، وبمصطلحٍ أدقَّ عمدَ إلى _ عقدِ الحديثِ _ ونقعُ على ذلكَ في زهديّةٍ فيها يقولُ (البحر السريع) :



﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾

يَـا مَـن غَـدَا مُـؤَمَّـنًا فـي سِـرْبِـهِ
تُـعْـجِـبُـهُ الآمَــالُ مُـغْـتَـرًّا بِـهِ

نلحظُ بيسرٍ أنّهُ يعقدُ منَ الحديثِ الشّريفِ في قولِ الرّسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُم آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا»، ولعلَّ الزّهدَ لا يلائمُه منَ المعاني شيءٌ قدْرَ ما يأتي هذا الحديثُ مُقنِعًا به، ومن إدراكِ أبي الربيعِ العميقِ ملاءمةُ المعاني بعضِها لبعضٍ عُقِدَ الحديثُ في قولِهِ الشّعريِّ، ولكن ماذا عن سَوْقِ غيرِ كلامِ اللهِ ورسولِهِ إلى شعرِه، ألم يكن مثالاً يسوقُ أشعارَ السّابقين إلى شعرِه؟ في الحقيقة بلى، وهذا ما يُدعى بالتّضمينِ.

ثانيًا: التّضمينُ في شعرِ الأميرِ الموحّديِّ:

كـانَ أبو الرّبيعِ يُضمِّنُ أشعارَ السّابقينَ في شعرِهِ، باختلافِ دواعيهِ وأغراضِه، وفي هذا ما يُقوّي النّسيجَ الشّعريَّ، ويزيدُ من لُحمتِهِ، وتماسُكِه، فضلاً على ما يُحدثُهُ من جرسٍ موسيقيٍّ بانصياعِ الشّعرِ غالبًا إلى موسيقى الأبياتِ التي ضمّنَها، وبالتّأكيد إكسابُه الجسارةَ لنقلِ الحالةِ الشّعوريّةِ التي يحياها بالتّوسلِ بحالِ صاحبِ الأبياتِ

قَالَ النَّبِيّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
«مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِـرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ
عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِـيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا»

التي يُضَمِّنُ منهاكقوله في إحدى خمرياته (بحر المديد):

فَـأَنَـا وَهْــيَ شَــجٍ مـا أَرَدْنَــا
فَـهُـمَــانِ بِـالـضّـنَـى عــارِفَـانِ
إِنْ تَـشْـكَّـا فِــي ضَـنَــايَ سَلاهَــا
أو تـشـكَّـا فــي ضَـنَـاهَـا سَلانِــي

ينظرُ إلى الإشبيليّ (بحر الرّمل):

وَلَـقَـدْ تَـشْـكُـو فَـمَـا أَفْـهَـمُـهَـا
وَلَـقَـدْ أَشْـكُـو فَـمَـا تَـفْـهَـمُـنِـي
غَـيْـرَ أَنِّــي بِـالـجَـوَى أَعْـرِفُـهَـا
وَهْــيَ أيـضًـا بِـالـجَـوَى تَـعْـرِفُـنِـي

وكما ساعدَه التّطلّعُ إلى معاني الإشبيليّ، وتضمينِها في وصْفِ حاله مع الخَمرة، كذلكَ أعانه التّطلّعُ إلى أبي صخْرٍ الهذليِّ في الغزلِ، وقوله (البحر الطويل): :

فَما زَالَ يَسْعَى فِي التَّفَرُّقِ بَيْنَنَا
فَلَمَّا نَـأى إلـفِي أَتَـى بِالعَجَائِبِ
أخـذَه من قـولِ أبـي صخْرِ الهُذليّ:
عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَينِي وَبَينَهَا
فَلَمَّا انقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ

وكذلكَ أعانَه امرؤُ القيس على التّنفيس عن مشاعرِ الحُزن وهذا جليٌّ في رثاءِ أخيهِ (البحر الطّويل) :

بِحَيْثُ شَدَا الكِنْدِيُّ قَبْلَكَ إِلْفَهُ
(أَجَارَتَـنَـا إنَّ الـخُـطُـوبَ تَـنُـوبُ)

مِنَ المعلومِ أنَّ العَجُزَ ههنا هو صدرُ بيتٍ لامرئِ القيس كان عجُزهُ: ... وإنِّي مُقِيمٌ مَا أقامَ عسيبُ؛ وهو البيتُ الذي أنشده امرؤُ القيس الكِنديّ حين شعرَ بدُنوِّ أجلِه، وقد ضمّن أبو الرّبيعِ شطرًا منه ههنا وكأنّه يُشاطرُ امرأَ القيسِ شعورَهُ بالعجزِ أمامَ الموتِ؛ ولا غروَ في ذلكَ.

ومن غرضِ الرّثاءِ بتضمينِ امرئِ القيسِ إلى غرضِ المدحِ بتضمينِ المتنبّي، يقولُ أبو الرّبيعِ في مدحةٍ لهُ (البحر البسيط) :

قُلْنَا نُتَرْجِمُ عن إخلاصِ حُبِّكُمُ
(إذا سَلِمتَ فكُلُّ النّاسِ قَدْ سَلِمُوا)

نلحظُ أنّهُ ضمّنَ في عَجُزِ البيتِ عَجُزَ

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.
2. ديوان المتنبي. دار صادر. بيروت. 1377هـ1958-م
3. ديوان امرئ القيس. دار المعارف. القاهرة. تح. محمد أبو الفضل إبراهيم. 1327هـ1958-م.
4. ديوان بشار بن برد، جمع وتحقيق محمد الطّاهر بن عاشور. القاهرة. لجنة التأليف والترجمة والنّشر. 1950هـ1966-.
5. ديوان الأمير الشّاعر سليمان الموحديّ. تح. محمد بن تاويت الطنجي ومحمد بن العباس القباج وسعيد أعراب. و محمد بن تاويت التطواني. كليّة الآداب. جامعة محمد الخامس. د.ت.

بيتٍ مشهورٍ للمتنبي صدرُهُ (ومَا أَخُصُّكَ في بُرْءٍ بتهنِئةٍ). اللّافتُ أنّهُ تشرّبَ ترجمةَ الإخلاصِ في الحبِّ للمدوحِ بإيرادِ عجُزِ بيتٍ للمتنبّي يحملُ معنًى إنسانيًّا جميلاً ولعلهُ موجودٌ في كلِّ قلبٍ مُخلصٍ.

أُعجبَ أبو الرّبيعِ بالمتنبّي إعجابًا جمًّا حالهُ حالُ الشّعراءِ المغاربةِ الذين برزتِ الآثارُ المشرقيّةُ اللّامعةُ في أشعارِهم؛ فنجدُه يقولُ في المديحِ أيضًا (البحر البسيط) :

فَلْيَهْنِنَا وَجَمِيعَ الخَلْقِ رَاحَةُ مَنْ
وِجْدَانُ كُلِّ حَيَاةٍ بَعْدَهُ عَدَمُ

وكأنّهُ ضمّنَ قولَ المتنبّي :

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُمْ
وِجدَانُنَا كُلَّ شَيءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ

وكأنّه يغتنمُ المناسبةَ، ويتخيّرُ من معاني المتنبّي ما يصلحُ أن يضمّنَه.

وفي الحقيقةِ فهذا من قَبيلِ إعجابِ المغاربةِ بالمعاني الشّعريّةِ في المشرقِ ولا سيما معاني الشّعراء العباسيّين، فتجدُ أبا الرّبيع يتطلّعُ إلى معاني بشّار بنِ بُرد أيضًا عندما قالَ في الرّثاء (البحر المتقارب) :



المتنبي



امرؤ القيس



أبو صخر الهذلي

فَمَنْ ذَا يُنَبِّهُ إنْ أَيْقَظَتْ
حُرُوبُ العِدَا الأَعْيُنَ النُّوَّمَا

فكأنّه ينظرُ فيه إلى قولِ بشار (البحر المتقارب) :

إذَا أيْقَظَتْكَ حُرُوبُ العِدَا
فَنَبِّهْ لَهَا عُمَرًا ثُمَّ نَمْ

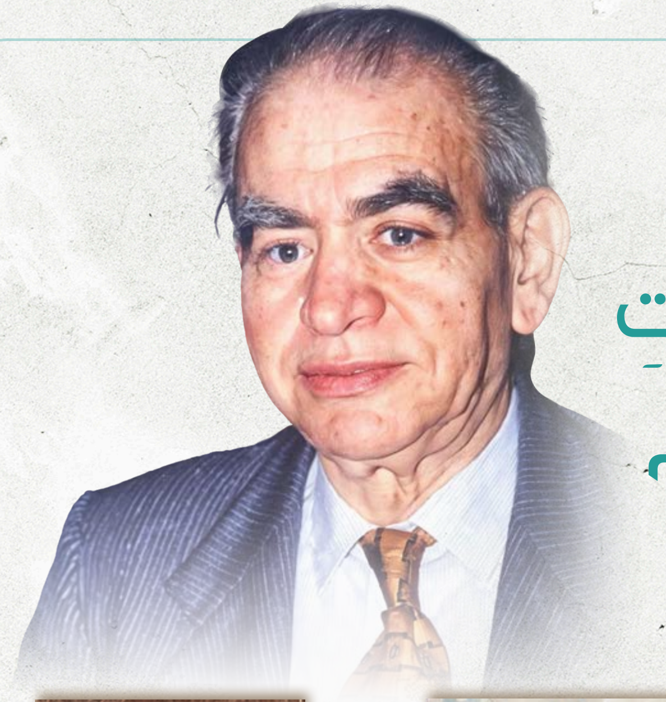
الخاتمة:

يُفضي البحثُ في صَنعتَي الاقتباس والتّضمينِ عند شاعرٍ مغربيٍّ كأبي الرّبيع الموحّديّ إلى نتائجَ عدّةٍ أبرزُها:

1. الشّعر العربيُّ في المشرقِ والمغربِ وفي عصوره جميعِها جسدٌ واحدٌ تتكافلُ أعضاؤه ويساندُ بعضُها الآخرَ عن طريق اقتراض المعاني وتضمينِها.
2. بروزُ ثقافةِ الشّاعرِ الأميرِ الدينيّةِ والأدبيّةِ دليلٌ على أنَّ الشّعرَ العربيَّ في المغربِ كان استمرارًا للشّعرِ العربيّ في المشرقِ يقتبسُ من طرائقه في التّعبيرِ ويجيدُ ذلكَ.
3. براعةُ الأميرِ الموحّديّ في انتقاءِ المعاني التي توافقُ الحالةَ الشّعوريّةَ، ونسْجِها في بُردةِ نصوصِه.
4. انعكاسُ ثقافةِ الأميرِ الموحّديّ الواسعةِ في الجانبَين الدّينيّ والأدبيّ على شعرِه ما دعّمَه، وأكسبَه التّماسكَ النّصيَّ.
5. انعكاسُ الحالةِ النّفسيّةِ التي يحياها الأميرُ الموحّديُّ أبو الرّبيع على معانيهِ الشّعريّةِ، وتأثيرُها الواضحُ في اللّجوءِ إلى الاقتباسِ أوِ التّضمينِ.

المصادر والمراجع:

(1) ديوان الأمير الشّاعر أبي الرّبيع سليمان الموحّديّ. تح. محمد بن تاويت الطنجي ومحمد بن العباس القباج وسعيد أعراب. و محمد بن تاويت التطواني. كلّيّة الآداب. جامعة محمد الخامس. د.ت.ص/64.
(2) آل عمران: 173.
(3) يوسف:18.
(4) ديوان أبي الرّبيع.ص/68.
(5) الرّحمن:37.
(6) ديوان أبي الرّبيع. ص:155.
(7) أدرجَ البُخاريُّ هذا الحديثَ برقم 300 في الأدب المفرد.
(8) ديوان أبي الربيع ص/69.
(9) ديوان أبي الربيع. ص/61.
(10) ديوان امرئ القيس .دار المعارف. القاهرة. تح. محمد أبو الفضل إبراهيم.ط5. 1327_1958م. ص/41.
(11) ديوان أبي الربيع .ص/37.
(12) ديوان أبي الربيع: ص.37.
(13) ديوان المتنبي. دار صادر. بيروت. 1377_1958مص/333.
(14) ديوان أبي الربيع ص/. 42.
(15) ديوان بشار. بن برد. 4/160



المُضْحِكُ فِي إخْوانيّاتِ عَبْدِ السَّلامِ العُجَيْلِيِّ









ضحى شبلي كشور
باحثةٌ أكاديميّةٌ في الأدبِ العربيّ الحديثِ

يَنطوِي الأدبُ على مضامينَ ودلالاتٍ وقيمٍ ترفعُ من رصيدِ قَبولِه، وتشكِّلُ حوافزَ مُلحّةً للإقبالِ عليهِ، وقراءتهِ، وحيازةِ الفائدةِ والمتعةِ منهُ؛ ما يجعلُه نشاطًا إنسانيًّا تفاعليًّا بامتيازٍ. تتأتّى تلكُمُ الدّلالاتُ والقيمُ من مَكنوناتِ الأديبِ النّاتجةِ عن تجارِبِهِ في غِمارِ الحياةِ، فإذا لاقتْ أرضيةً خصبةً لصوْغِها خرجت بقوالبَ وأساليبَ عدّةٍ، وأفشتْ أسرارًا دفينةً تُمكِّنُ من تعرُّفِ الصّبغةِ التي تتّسمُ بها رُوحُ هذا الأديبِ من ذاكَ، ولاسيمَا الأديبُ الطّريفُ المُتَندِّرُ الذي يتشعّبُ إنتاجهُ الأدبيُّ ويتنوّعُ بينَ فنونِ النّثرِ منَ القصِّ بألوانهِ، فالرِّوايةِ بأنماطِها، إلى نظْمِ الشِّعرِ بأضُربِهِ، من أمثالِ الأديبِ السُّوريِّ عبدِ السّلام العُجيليِّ. يَنطوِي الأدبُ على مضامينَ ودلالاتٍ وقيمٍ ترفعُ من رصيدِ قَبولِه، وتشكِّلُ حوافزَ مُلحّةً للإقبالِ عليهِ، وقراءتهِ، وحيازةِ الفائدةِ والمتعةِ منهُ؛ ما يجعلُه نشاطًا إنسانيًّا تفاعليًّا بامتيازٍ.



يستهدفُ هذا البحثُ التّركيزَ على قيمةٍ جماليةٍ من قيمِ أدبِ العُجيليِّ، واستجلائِها في ضربٍ احتواها من ضروبِ أدبِه، وهي قيمةُ الضّحكِ التي تتبدّى جليّةً في قصائِدِه الإخوانيّات

تتأتّى تلكُمُ الـدّلالاتُ والقيمُ من مَكنوناتِ الأديبِ النّاتجةِ عن تجارِبِهِ في غِمارِ الحياةِ، فإذا لاقتْ أرضيةً خصبةً لصوْغِها خرجت بقوالبَ وأساليبَ عدّةٍ، وأفشتْ أسرارًا دفينةً تُمكِّنُ من تعرُّفِ الصّبغةِ التي تتّسمُ بها رُوحُ هذا الأديبِ من ذاكَ، ولاسيمَا الأديبُ الظّريفُ المُتَندِّرُ الذي يتشعّبُ إنتاجُهُ الأدبيُّ ويتنوّعُ بينَ فنونِ النّثرِ منَ القصِّ بألوانه، فالرِّوايةِ بأنماطِها، إلى نظْمِ الشِّعرِ بأضْرِبِهِ، من أمثالِ الأديبِ السُّوريِّ عبدِ السّلام العُجيليِّ.

يستهدفُ هذا البحثُ التّركيزَ على قيمةٍ جماليةٍ من قيمِ أدبِ العُجيليِّ، واستجلائِها في ضربٍ احتواها من ضروبِ أدبِه، وهي قيمةُ الضّحكِ التي تتبدّى جليّةً في قصائِدِه الإخوانيّات؛ فيبدأُ بمقدِّمةٍ تُلمحُ إلى الأديبِ والقصائدِ الإخوانيّات لديهِ، ثمَّ يُعرِّجُ على قيمةِ الضّحكِ وماهيتِها، وينطلقُ إلى منابعِها ودوافعِها، ويدعِّمُ ما يذهبُ إليهِ بشواهدَ حيّةٍ يلمسُ القارئُ فيها الآلياتِ الفنّيّةَ التي أَسهمتْ في تبْئيرِ هذه القيمةِ، وربّما رسمتِ ابتسامةً على وجْهِه، وينتهي بأبرزِ النّتائجِ، وبقائمةٍ للمصَادرِ والمراجعِ.

أوّلًا: عبدُ السَّلامِ العُجَيلِيِّ، وفنُّ الإخوانيّاتِ

خَطَّ العجيليّ في غزيرِ ما خطهُ كتابًا بسطَ فيهِ طرفًا كبيرًا من سيرتهِ الذاتيّةِ، وهو الكتابُ الموسومُ بعنوانِ (أشياءٌ شخصيّةٌ)، وفيه إجاباتٌ عن تساؤلاتٍ أصابتْ مفاصلَ حياتهِ الأدبيّةِ المهمّةِ، وعرضتْ أدقَّ التّفاصيلِ وأبسَطَها، فإنَّ من مَبذولِ القولِ أنَّه وُلد في الرّقة؛ إذ يجيبُ الأستاذَ ياسين رفاعيّة في أَشْيَائِهِ الشَّخْصيّةِ عن سؤالِهِ متى ولدتَ بأنّهُ: (لم يكنْ في الرَّقّةِ في تلك الأيّامِ سجلّاتٌ ثابتةٌ للمواليدِ، ويبدُو أنّني ولدتُ في أواخرِ تمّوز في سنةِ 1918 أو1919 ، وأنا أُصِرُّ دومًا على التّاريخِ الأوّلِ رغمَ

أنَّ الأغلبَ صحّةُ التّاريخِ الثّاني؛ وذلك لضيقٍ منَ الذين يحاولون إنقاصَ مايَقدرون على إنقاصه من أعمارهم كأنّ فرقَ سنةٍ واحدةٍ يهبُ الشّبابَ لمن فارقهُ الشّبابُ)(1) ، وتوفي رحمَه اللهُ عن عمرٍ ناهز سبعةً وثمانينَ عامًا خلّفَ فيها إنتاجًا أدبيًّا غزيرًا جدًّا، ولم يُلتفت إلى شعرِه الذي يقتربُ منَ النّظمِ في جُزءٍ منه، ويُحلّقُ في فضاءاتِ الشّاعريّةِ في شطْرٍ منه إلّا قلةٌ منَ الباحثينَ مع ما يكتنزُه من قِيم. هذا و قد نظمَ الشّعرَ في عمرٍ مبكّرٍ؛ إذ يقولُ في موضعٍ آخرَ من أشيائِه الشّخصيّةِ: (ونظمت مقاطع مقفّاة ظننتُ أنّها الشّعرُ، حتّى أنبأني معلّمي في المدرسةِ الابتدائيةِ الأستاذ ثابت الكيّالي أنَّ الشِّعرَ له وزنٌ لابُدَّ أن يتقيّدَ بهِ النّاظمُ، فجهدتُ حتّى أدركتُ معنى الوزنِ فنظمتُ الشِّعر مُتَقَيِّدًا بهِ قبلَ أن أعرفَ العروضَ، ولكنّي كنتُ أُغنّي الأبياتَ على ألحان بعضِ القصائدِ الدّينيّةِ الّتي أحفظُها حتى أضبطَ أوزانَــها)(2). وأطلقَ على قصائدهِ التي كتبها في مراحلَ دراسيّةٍ متقدّمةٍ مُسمّى«إخوانيّاتٌ ضاحكةٌ» غيرَ أنّهُ لم يُدرجْها في أعمالهِ الكاملةِ كُلِّها؛ إذ صرّحَ بقولِهِ: (لن أُضمِّنَ أعماليَ الكاملةَ بالطّبع كلَّ القصائدِ الحَلَمَنْتِيشيّةِ التي نظمتُها في سِنِي الدّراسةِ الثّانويّةِ، سأكتفي بتسجيلِ نموذجٍ واحدٍ منها مُتمثّلٍ بقصيدةِ البكالوريا التي أفتتحُ بها الإخوانياتِ الضّاحكةَ؛ لأنتقلَ بعدها إلى بعدِ ما نظمتُه على طرازِها في أيّام الدّراسةِ الجامعيّةِ وفي السّنين التي تلتْها...)(3).


هنري برغسون

> يشيرُ هنري برغسون مؤلّفُ كتابِ الضّحكِ إلى دقّةِ وصفِ الإنسانِ بأنّه حيوانٌ ضاحكٌ بقولهِ: (لا شيءَ هَزْليّ خارجَ ما هو بشريٌّ بشكلٍ خاصٍّ) ويتساءلُ بعدها: (لماذا لم تلفتْ هذه الواقعةُ المهمّةُ على بساطتها انتباهَ الفلاسفةِ؟

المُضحكُ في إخوانيّاتِ عبدِ السّلام العُجيليّ:

يُعدُّ الضّحكُ فعاليّةً إنسانيّةً بامتيازٍ، ولَئن كان التّعريفُ الشّهيرُ الذي يُطلقُ على الإنسانِ بأنّهُ حيوانٌ ناطقٌ قد باتَ غيرَ دقيقٍ مع تقدُّمِ العلومِ التي باتت تفسِّرُ لغاتِ الحيواناتِ بصفتِها أممًا أمثالَنا، فإنَّ التّعريفَ الذي يُزاحمُ هذا التّعريفَ للإنسانِ هو أنّهُ: حيوانٌ ضاحكٌ وهذا دقيقٌ إلى حدٍّ بعيدٍ؛ يشيرُ هنري برغسون مؤلّفُ كتابِ الضّحكِ إلى هذا بدقّةٍ بقولِه: (لا شيءَ هَزْليّ خارجَ ما هو بشريٌّ بشكلٍ خاصٍّ)(4) ويتساءلُ بعدها: (لماذا لم تلفتْ هذه الواقعةُ المهمّةُ بهذا المقدارِ - على بساطتها - انتباهَ الفلاسفةِ؟ العديدُ منهم عرّفَ الإنسانَ بأنّه حيوانٌ يعرفُ كيفَ يَضحكُ، وكان بإمكانِهم أيضًا تعريفُهُ بأنّهُ حيوانٌ مضحكٌ) (5).

وهكذا فإنَّ الإضحاكَ مَنوطٌ بالإنسانِ، وبدهيٌّ أن يكونَ مَنوطًا بالأديبِ إذا ما امتلكَ المقوّماتِ التي تُمكّنهُ من إنتاجِ نصٍّ مُضحكٍ في موضوعهِ، وآلياتِ التّعبيرِ فيهِ، وكذلكَ إذا ما كانت لديهِ الرّوحُ الطّريفةُ التي تحرّضُه على ذلكَ فضلًا على المقدرةِ التي تتيحُ لهُ التّصويرَ بطرائقَ كاريكاتوريّةٍ، وفي الحقيقةِ فقدِ امتلكَ العُجَيليُّ مقوّماتِ الإضحاكِ لعواملَ عدّةٍ فضلًا على المذكورةِ ههنا، فإنّهُ يتمتّعُ بقدْرٍ منَ الذّكاءِ والحُنكةِ وظّفَهُما للتّندُّرِ والسُّخريةِ اللّذين ينتجُ عنهما الضّحكُ أمّا بالنّسبةِ إلى إخوانياتِه التي هيَ مجموعُ القصائدِ التي كتبَها في مرحلتَي الثّانويّةِ والجامعةِ، فقد كان الإضحاكُ لدوافعَ منها:

1. الإقْبَالُ علَى الحياةِ بروحٍ منَ المرحِ والتّعاملُ معَ كلِّ مرحلةٍ عُمريّةٍ بما هو ملائمٌ لها؛ للتغلّبِ على المصاعبِ فيها؛ فإنَّ طالبًا في مرحلةِ الثّانويّةِ لا بدّ أن يُعانيَ صعوبةً في المنهجِ فينظمُ قصيدةً

في البكالوريا، والطّريفُ الظّريفُ في جعْلِ البكالوريا فتاةً هو التّوجيهُ بمصطلحاتِ العلوم، فجعلها كأنّها مكانٌ جمَعَهُما في اللّقاءِ الأوّلِ يقولُ (6):

وَ أَوَّلُ عَهْدٍ بَيْنَنا جِسْرُ وطْسطُنْ
بِدارَةِ أُومٍ حَيْثُ قَدْ حَجَزَتْ بَغْلِي (7)

يخطفُ بك البيتُ إلى مجنون ليلى وقد يخطفُ بك إلى امرئ القيس ودارة جلجل؛ إذ حرصَ عددٌ غيرُ قليل من فحولِ الشّعرِ القديمِ على إبرازِ المكان الذي جمعَهم بمحبوباتهم؛ فلئن كانت دارةُ جلجل وقصّتُها الشّهيرةُ معروفةً عن امرئ القيس، فإنّ دارةَ أوم وهي أوّلُ عهدِ العُجيلي بالبكالوريا تُومئُ إلى مراهقٍ إن صحَّ التّعبيرُ يُشبه فرسانَ الشّعرِ القديمِ في هذه المرحلةِ الزّمانيّةِ من عُمره يُقلّدُهم في تقاليدهم مُستثمرًا ألفاظًا علميّةً يُقاربُها إلى المعهودِ بطرائقَ فنيّةٍ كالتّورية؛ فإنّ الدّارةَ اسمُ مكانٍ وهي في الوقتِ نفسهِ الدّارةُ الكهربائيّةُ التي يدرسُها في الفيزياء، وفي قوله حيثُ قَدْ حَجَزَتْ بغلِي تعبيرٌ شِعريٌّ طريفٌ فإنّ ما يحجزُه الشّعراءُ هو الحصانُ أوِ النّاقةُ أوِ المطيّةُ عمومًا وفي واقعةِ دارةِ جلجل عقرَها امرؤ القيس، أما هنا فقد جعلَها بغْلًا عندَ الدّارة إمعانًا في السّخريةِ من هذه المحبوبةِ، ولا ننسَى أنّ البغلَ مفردةٌ تثيرُ الضّحكَ عندَ العوامّ.

1. العلاقةُ الطيّبةُ بالزُّملاءِ والأصدقاء، ما سمحَ للعُجيليِّ باغتنامِ الفُرصِ لتصويرِهم وعرْضِ المواقفِ والحوادثِ بروحٍ فكاهيّةٍ.

عمدَ العُجيليُّ في الإخوانيّاتِ الجامعيّةِ إلى تصويرِ مُعاناةِ الزّملاء في كلّيّةِ الطّبِّ الذين ألقتِ القوّاتُ الفرنسيّةُ القبضَ عليهم في حين أنّهم لم يكونُوا قد تورّطُوا بالمشاركةِ في المظاهراتِ ضدَّها فنظمَ قصيدتَه نحوَ سجنِ المزّة، وضمّنَ مَطلعَها قولَ الملكِ الضِّلّيل امرئِ القيس بنِ حجر(8):



علي محمود طه

خَليلَيَّ مُرّا بي على أمِّ جُندبٍ
لنقضيَ حاجاتِ الفُؤادِ المعذَّبِ

للبيتِ روايةٌ أخرَى؛ إذ يُروَى نُقضّي لُباناتِ الفؤاد، غيرَ أنَّ العُجيليَّ أورده كذا مطلعَ قصيدتِه وَفقًا لمحفوظِه، واستغلَّ الحادثةَ في تراثِنا الشِّعريِّ؛ ليفْتتحَ بها قصيدةً أُخرى ما يُصدّقُ أنّها تُشكّلُ موضوعًا شِعريًّا أساسًا؛ فهو في طريقِ زيارتِه إلى رفاقِه الذين اعتقلُوا يمرُّ بالسّيّدة دوكرو فيقولُ:

كَعابٌ لَها خَمْسٌ وَسَبْعُونَ حِجَّةً
بِوَجْهٍ كَوَجْهِ البُومِ ذاوٍ مُكَرْكَبِ
وَطَقْمٍ مِنَ الأَسْنانِ قَدْ ذابَ واهْترى
وَأَلْقَتْ بِهِ الأَيّامُ في جُحْرِ عَقْرَبِ.
أَقُولُ لَها دُوكْرُو مَضَى العُمْرُ فَارْحَمي
وَجُودي بِوَصْلٍ لِلْفَقيرِ المُهَبَّبِ.

طرافةُ التّقديمِ للوصولِ منَ السّيدة دوكرور التي يصفُها بهذا الوصْفِ إلى الشّيفِ الذي يطلبُ إليه الوصولَ إلى رفقائِه كفيلةٌ بتأكيدِ ما قالَه هيوم من أنَّ الشِّعر يتّسعُ لأيِّ موضوعٍ على أن يتهيّأَ له شاعرٌ عبقريٌّ، فكيفَ إذا اجتمعتِ العبقريّةُ الأدبيّةُ مع الظَّرفِ كالتي يملكُها العُجيليُّ، فقد صوّرَ وجهَها بالبُوم وهذا مألوفٌ؛ إذ يتطيّرُ العَوامُّ منَ المرأة، ويَصفون وجهَها بالبُومةِ، غيرَ أنَّ جعْلَه مُكركبًا -وهي لفظةٌ عامّيّةٌ - لَمْ يَمْنَعْهُ مِنَ التَّجَرُّؤِ وَاسْتِعْمَالِهِ في القافية، ولم يتوانَ عنِ السُّخريّةِ مِنْ طقْمِ أسنانها المهترئ، ولم يَحُلْ هَذا بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوَدُّدِ إليها وهو لاشكَّ من قَبيلِ السّخريّةِ، دوكرو هذه كانت صلةَ الوصْلِ لوصولِه إلى السّجنِ الذي يحوي زملاءَه.

2. المقدرةُ الفنيّةُ على استثمارِ الموضوعِ السّاخرِ، وتكثيفِ النّسجِ حولَهُ:

فما إن رأى حالَ الزّملاءِ المعتقَلينَ حتى أمعنَ في السّخريةِ منهم، ونظمَ قصيدتَه الثّانيةَ بعنوانِ (في السّجن ذاتِه) يعني سجنَ المزّة وفي مطلعها نلحظُ معارضةً واضحةً لقصيدةِ الجندولِ لعليّ محمود طه ففي المطلعِ يقولُ العُجيليُّ: (بحر الرّمل) (9)

أَيْنَ مِنْ عَيْنَيَّ هاتِيكَ المَجالي؟

يَـا لَيَـالِي الـسِّـجْـنِ بَـعْـدَ الاعْـتِـقَـالِ

وهي تتكلّمُ على معاناةِ أولئكَ الرّفاقِ في السّجنِ ذاتِه، ومن تصويرِه معاناتَـهُم، وحالَـهُمْ يقولُ(10):

فَـيْـصَـلٌ يُـصْـغِـي إِلـى عَـلْـكٍ قِـيَـاسَـهْ
وَأديــــبٌ مَلأَ الـقَـمْـلُ لِـبَـاسَـهْ
وَحُـسَـيْـنٌ يَـنْـطِـحُ الـجُـدْرَان رَاسَـهْ
يَـا آغاتي لَـسْـتُ مِـنْ أَهْـلِ السِّيَاسَهْ
فَـاسْـأَلُـوا الـقُـنْـصُـلَ يُـنْـبِـيكُمْ بِـحَالي
مَوْطِنِي الـبَـصْـرَةُ مِـنْ شَـاطِـي اللآَّلـي
أَيْـنَ مِـنْ عَـيْـنَـيَّ هَـاتِـيـكَ الـمَجَالي؟
يَـا لَيَـالِي الـسِّـجْـنِ بَـعْـدَ الاعْـتِـقَـالِ

بين عجُزِ البيتِ الأوّلِ، وصدرِ البيت الثّاني مقدرةٌ على التّصرُّفِ بلوازمِ الأمورِ دفعًا للتّكرارِ، وإمعانًا في الطّرافةِ، فإنَّ القملَ يكونُ في الرّأس وليسَ في اللّباسِ، ومع ذلك جعلَه فيه؛ لأنَّ حسينًا ينطحُ راسه فما كان له أن يقولَ: إنّ أديبًا ملأ القملُ راسه، وحسين ينطحُ راسه، وكذلك فإنّه يصوّرُ فيضَ القملِ من رأسه إلى لباسه، وعلى أيّةِ حالٍ فإنَّ الموضوعَ محفوفٌ بالطّرافةِ في قالَبٍ موسيقيٍّ مأنوسٍ لا يخلُو في القافيةِ منه من سببِ الاعتقالِ فهو سببٌ سياسيٌّ وعليهِ وإليه بنَى العُجيليُّ القصيدةَ برُمّتِها.

تمضِي الإخوانياتُ بعدَ موضوعاتِ السّجنِ؛ لتحملَ موضوعًا أساسًا هو الكرمُ المُتأتّي من إقامةِ الولائمِ والعزائمِ في ثلاثِ قصائدَ؛ تطفّلٌ، وشايُ اللّبابيديّ، وحديثُ الولائم، وكلُّها في عزائمِ أصدقائهِ الدّماشقةِ له في سنيه الجامعيّةِ وَفْقَ ما يشتقُّ لسانُه الوصفَ لهم.



امرؤ القيس

في (تطفّل) طرافةٌ تجعلُك تضحكُ فعلًا، وتتوقّفُ عندَ العُجيليِّ صانعًا للابتسامةِ في شِعرِه، وتجدُ تقاربَ طعْمِ السُّخرية عنده من طعمِ السُّخرية عند ابنِ الرّومي، فيها يسخَرُ من فيصل الذي يطلبُ إليه أن يُولِمَ لهم من مطلعِها (البسيط)(11):

يا فَيْصَلَ الخيرِ شَمَّتَ العدى فينا
طَـالَ الـثّـواءُ عَـلَـيْـنا قُـمْ فَـغَـدِّيـنَـا

يرتبطُ العنوانُ بالمطلع ارتباطًا عُضويًّا طريفًا؛ ففيه حقًّا يُقرُّ بالتّطفُّلِ على صديقِه الدِّمشقيِّ الذي يطلبُ إليه الغداءَ، بعد أيّامٍ من ضيافتِهم لديه:

عِـشْـرُون يَـوْمًـا قَـضَـيْـنـاهَـا بِبابِكُمُ
الـبَـرْدُ يـنـقـعُـنـا والـشّـمـسُ تَـقْـلِـيـنا
كُـنّـا بِـعَـرْضِ مُـنِـيـرٍ يَــوْمَ مَـقْـدَمِـنـا
والآنَ صِرْنَا كَلُطْفِي في النَّحِيفِينَا
فالخبزُ في الشّامِ غالٍ لَيْسَ نشبعُهُ
وَنَـحْـنُ فـي فَـقْـرِنـا بِـعْـنَـا البَنَاطِينا
أُمُّ الـفَـلافِـلِ صَــارَتْ أُمَّــنَـا طَـفَـرًا
وَمَـرْقَـةُ الـلِّـفْـتِ شَـرَّتْ مِـنْ أَوَاعِـيـنَـا

إلى نهايةِ الأبياتِ وما تكتنزُه من سُخريةٍ، وهو حالُ الطّالبِ الفقيرِ في العاصمةِ تلكَ الأيّامَ فالبردُ ينقعُه، والشّمسُ تَقليه، وكذلك لا يكادُ يحوزُ طعامًا غيرَ الفلافل، وفي الحقيقةِ إنّ تشهِّيَ الطّعام حاز نصيبَه منَ الوصْفِ في سالفِ العُصورِ، أمّا أن يأتيَ التّشهّي من طُلّاب جامعيّين يعبّرُ العُجيليُّ بلسانِهم، وبهذا القدْرِ غيرِ اليسيرِ منَ السُّخريّةِ فهو دليلُ مَقدرةٍ فنيّةٍ في التّعبيرِ، تستثمرُ أدقَّ التّفاصيلِ، وتوجّهُها نحوَ السُّخريّةِ وإن كانَ في تحويرِ مثلٍ شعبيٍّ كقولهِ فيها نفسِها:

مُـعَـوَّدُونَ عَـلَـى أَفْـضَـالِ حَـضْـرَتِـكُمْ
لا نَشْتَهِي غَـيْـرَكُـمْ بَـيْـنَ الـمُـحِـبِّـيـنا

وإن كان في هذا تحويرٌ لمسارِ استعمالِ المثلِ؛ فإنّه يقالُ في التّمنّعِ عادةً عنِ الزّيارة، ففي غيرِ موضعٍ يحوّرُ المثلَ نفسَه تحويرًا طريفًا؛ إذ يقولُ :

نُمْسِي وَنُصْبِحُ في ذِكْرَى مَوَائِدِكُمْ
حَتَّى جَمَاجِمُنا صَارَتْ مَصارِينا

ممّا يتداولُه العوامُ أنّه يفكّرُ بكرشِه، فجعلَ مُفادَ المثلِ بيتًا طريفًا؛ إذ أصبحت مصارينُهم مكانَ عقولِهم.

تجدُ لديه قصيدةً عنوانُها (حديثُ الولائم) ولا تستطيعُ معها إخفاءَ دهشتِك ومطلَعُها(13):

قِفي حَدِّثيني مِنْ حَدِيثِ الوَلائِمِ
وَرَوِّي غَلِيلَ القَلْبِ يَا أُمَّ حَاتِـم.
فَإِنِّي سَئِمْتُ الخُبْزَ في السُّوقِ بَائِتًا
وَعَافَتْ مَصَارِينِي صُحُونَ المَطاعِمِ

لا يتحرّجُ البتّةَ من ذكرِ ألفاظٍ ساخرةٍ يموْسِقُها شعريًّا، كالمصارين وهي الأمعاءُ الدّقيقةُ للإنسان.

3. استثمارُ التّفاصيلِ لصالح مشهدِ السُّخريّةِ، والارتقاءُ بالصّورةِ الفنيّةِ:

يُركّزُ العجيليُّ على التّفاصيل في بناءِ مشهدِ السُّخريةِ المُضحك، وإخراجِ الصّورةِ الفنّيّةِ، ولا سيمَا أنّ الموضوعَ الشّعريَّ يفرضُ بحسبِ مُقتضياتِه نوعًا معيّنًا منَ الصُّورِ التي ترقَى بفنّيتِه، وتُكسِبُهُ القَبولَ لدى الشّريحةِ المستهدَفةِ منه فإن كانت بُغيةُ العُجيليِّ منَ الإخوانيّاتِ تصويرَ حوادثَ معيّنةٍ تكلّمَ فيها على أحوالٍ عاشَها مع مجموعةٍ منَ الإخوان، فإنَّ الصّورةَ الفنيّةَ فيها جنحتْ نحو التّندّرِ منهم، كقولِهِ(14):

فَمَا أَنَا خَيْرٌ مِنْ أَدِيبٍ وَفَيْصَلِ
وَنُورِي وَعَاشُورِي وَمَنْصُورِ الصَّبِي
وَفَوْجٍ مِنَ الأَبْطَالِ سَارُوا إِلَى الرَّدَى
أَشِدَّاءَ كَالإِسْمَنْتِ قَبْلَ التَّصَلُّبِ
هُمُ دَرَبُسُوا البَابَ المَنِيعَ وَرَاءَهُمْ
وَأَبْدَوْا إِلَى الخُدَّامِ كُلَّ تَحَبُّبِ
وَقَالَ حُسَيْنٌ: لَيْتَ أَنِّي شَعْرَةٌ
بِإِبْطِ أَبِي يَاسِينَ أَدْفَى، وَأَخْتَبِي

جليٌّ أنّ الصّورةَ تتكلمُ عَنْ بداياتِ اعتقالِ أصدقائه في سجنِ المزّةِ على إثرِ المظاهراتِ ضدَّ الاحتلال الفرنسيِّ،فشَبَّهَهُمْ بالإسمنت قبلَ التّصلّب وهي صورةٌ أعمقُ من ظاهرِها فإنَّ الإسمنتَ تأتي عليه لحظةٌ قبْلَ أن يجمدَ يندلعُ فيها ويسيلُ وربّما يُضربُ ببعضِه كما هي حالُهم إبّانَ الاعتقال. أمّا الصّورةُ الثّانيةُ المُضحكةُ فهي الجاريةُ على لسانِ حُسَين بقوله: ليتَ أنّي شعرةٌ بإبطِ أبي ياسينَ أدفى، وأختبي، وهي من التّفاصيلِ الدّقيقة، فمن يخطرُ له التّمنّي أن يكونَ شعرةً بإبطِ زميلِه؛ ليَختبئَ ويدفأَ.

وإن يكن حسينٌ قد تمنّى أن يكون شعرةً بإبط أحدِ النّاجينَ فإنّ رأسَ إسماعيلَ في أثناء الحلاقةِ كان كرأس البُوليب؛ إذ صوّرهُ بقولِه(15):

تَرَى رَأْسَ إِسْمَاعِيلَ بَعْدَ حِلَاقَةٍ
كَرَأْسٍ مِنَ البُولِيبِ (16) لَمْ يَتَذَبَّبِ

الصّورةُ بلا شكٍّ على ما تنطوي عليه من تندُّرٍ أو تنمُّرٍ منضوحةٌ من عالمِ الطّبِّ الذي ينتمي العُجيليُّ إليه، وهو منِ استثمارِ التّفاصيلِ، وخواصِّ الأشياءِ من حولِه.

الخاتمة:

يرسُو البحثُ المقتضبُ في (المضحكُ بإخوانياتِ العُجيليّ) على عددٍ منَ النّتائج، ويجعلُنا نصلُ إلى استنتاجاتٍ عدّةٍ أبرزُها:

1. المضحكُ قيمةٌ جماليةٌ في بواكيرِ شِعرِ العُجيليّ، تقربُه منَ النّفوس، وتكشفُ عن روحِه المرحةِ.

2. قيمةُ الصّداقةِ في زمن العُجيليّ تنطوي على أرْيَحيّةٍ كبيرةٍ في التّعامُلِ، فلا غضاضةَ في التّندُّرِ وصوغِ التّندُّرِ في قصائدَ وحكاياتٍ.

3. استيفاءُ كلِّ العناصرِ الفنيّةِ اللّازمةِ للتّصويرِ السّاخرِ في إخوانيّاتِ العُجيليِّ، ومن ثمَّ إحرازُ المُتعةِ بالضّحكِ، وملامسةُ الأساليبِ الطّريفةِ.

قائمة المراجع والمصادر:

1. برغسون، هنري: الضحك، تر .د. علي مقلد.
2. العجيلي. عبد السّلام. (1980) أشياء شخصيّة. ط:.2. دار الحقائق مكتبة الكرمل للدراسات.
3. العجيلي. عبد السلام. مقامات عبد السلام العجيلي وأشعاره. دار رياض نجيب الرّيس.

هوامش:

(1)العجيلي. عبد السّلام: أشياء شخصيّة. دار الحقائق مكتبة الكرمل للدراسات. (1980).ط:.2/ص.8.

(2)السّابق.ص:11

(3)العجيلي.(د.ت). ص. 152.

(4)برغسون، هنري: الضحك، تر .د. علي مقلد. ص.10.

(5)المرجع السّابق..ص/10

(6)العجيلي. عبد السّلام. مقامات عبد السلام العجيلي و أشعاره. دار رياض نجيب الرّيس للكتب والنشر. ص/154.

(7)يعرّف العجيلي وطسطن و أوم أنهما عالمانِ في الفيزياء الكهربائيّة.

(8)السّابق.157

(9)العجيلي. 160

(10) السابق نفسه

(11) العجيلي. 165

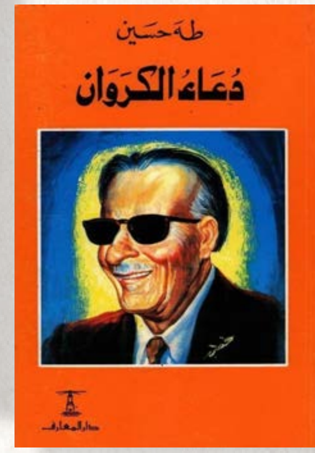
(12) السابق.166.

(13)العجيلي ص/. 170

(14) العجيلي. ص/158

(15) السّابق نفسه.

(16)البوليب: الورم الذي يغشى الأغشية المخاطية في الأنف، وهو غير محدد الشّكل.









السِّينمَا والأدبُ:

حوارُ الصُّورةِ والكلِمَةِ في عالَمِ الإبداعِ

لطالما كانتِ السّينما والأدبُ شريكَين مميّزَين في التّعبيرِ الإنسانيِّ، حيث يَستمدُّ كلٌّ منهما قوّتَه منَ الآخرِ. فالسّينمَا، بفنِّها البصريِّ الآسرِ، تنقلُ النّصوصَ الأدبيّةَ من عالَم الكلماتِ إلى فضاءِ الصُّورِ، ممّا يتيحُ تجربةً غنيّةً ومؤثّرةً تجمعُ بين الخيالِ السّرديِّ والتّجسيدِ البصريِّ. فـ"الفنُّ السّينمائيُّ هو الفنُّ الذي يستخدمُ الصُّورَ المرئيّةَ بشكلٍ مُتتالٍ، وبصيغةٍ احترافيةٍ وبشكلٍ متواصلٍ وراء بعضِها على شكلِ شريطٍ بصريٍّ يعرضُ للمُتلقّي الحكايةَ، ويُترجمُها من صورةٍ كانت مقروءةً ومكتوبةً سابقًا فوق صفحاتِ الورقِ إلى مشهدٍ حيٍّ مرئيٍّ.

الفنُّ السّابعُ نشأتُه وتطوُّرُه:

ويأتي مُصطلحُ «السّينمَا» منِ اختصارِ عبارةِ «التّصوير السّينمائيّ»، وقد أطلقَ الأخوانِ لوميير على اختراعِهما «السّينماتُوغراف».



د. شعبان أحمد بدير
ناقد وأكاديمي بجامعة الإمارات العربية المتحدة

وتكمنُ الصّفةُ المميّزةُ للسّينمَا، التي ترجعُ جذورُها إلى الكلمتَين اليونانيتَين «kinema» (حركة) و«graphein» (كتابة)، في قدرتِها على تصويرِ الحياةِ بأمانةٍ. وقد شكّلَ ظهورُ السّينماتوغراف خطوةً هائلةً، استجابةً لرغبةِ الإنسانِ القديمةِ في مشاهدةِ صُورٍ متحرّكةٍ. وقد أثارَ المشهدُ السّاحرُ للصُّورِ على الشّاشةِ الكبيرةِ مشاعرَ الجمهورِ بصورةٍ مؤثّرةٍ». وتُعدُّ السّينمَا واحدةً من أهمِّ الابتكاراتِ التّكنولوجيّةِ التي ظهرتْ في القرنِ التّاسع عشرَ الميلاديّ؛ «فقد تطوّرتْ من تحسينٍ بسيطٍ للصُّور عاليةِ التّباينُ إلى فيلم يحتوي على حديثٍ وصوتٍ، ومع التّقدّم في العلوم والتّكنولوجيا، أصبحتِ السّينمَا تتمتّعُ بمظهرٍ جديدٍ وعـرْضٍ محسَّنٍ بتأثيراتٍ صوتيّةٍ وبصريّةٍ متقدّمةٍ». وأثّرت تطوّراتُ تقنيةِ

المونتاجِ، وتحريكُ الكاميرَا، وظهورُ الصّوت في العَقدَين الأوّلين منَ القرن العشرين بشكلٍ حتميٍّ في إنشاءِ الأفلامِ وإنتاجِها.

ولقد عرَّفَ المخرجُ المصريُّ صلاحُ أبو سيف الفيلمَ مبيّنًا عناصرَه في قوله: «الفيلمُ هو قصّةٌ تُحكَى على جمهورٍ في سلسلةٍ منَ الصُّور المتحرّكة". ونستطيعُ أن نميّزَ في هذا التّعريف ثلاثةَ عناصرَ:

1) القصّةُ: وهي ما يُحكَى.

2) الجمهورُ: وهو من تُحكَى له القصّةُ.

3) سلسلةٌ منَ الصّور المتحرّكة: وهي الوسيلة التي تُنقلُ بها القصّةُ إلى الجمهور

وقد أُطلقَ على السّينمَا «الفنّ السّابع» وصِيغَ هذا المصطلحُ «من قِبَل المُنظّرِ الإيطاليّ (ريتشيوتو كانودو) في مقالتِه» تأمُّلاتٌ في الفنّ السّابع" (1923)، حيث كانتِ السّينمَا تُعدُّ التّعبيرَ المركّبَ للفنونِ السّتّةِ القديمةِ الأُخرى: العمارةِ، والنّحتِ، والرّسمِ، والرّقصِ،و الموسيقَى، والشّعرِ .

"السّينمَا، بفنِّها البصريِّ الآسِر، تنقلُ النّصوصَ الأدبيّةَ من عالَم الكلماتِ إلى فضاء الصُّورِ، ممّا يتيحُ تجربةً غنيّةً ومؤثّرةً تجمعُ بين الخيالِ السّرديِّ والتّجسيدِ البصريِّ.

التّداخُلُ المبكّرُ بين الأدبِ والسّينمَا:

ومع تطوُّرِ تكنولوجيَا السّينمَا، اتّجه صُنّاعُ الأفلامِ اتجاهًا متزايدًا إلى الأدبِ بِوَصْفِهِ مصدرَ إلهامٍ لحكاياتِهم. فلقد أغرَى هذا التّطوُّرُ التّقنيّ للسّينما الأدبَ إلى التّداخُلِ المبكّرِ والانضمامِ إلى إنتاجِ الإبداعاتِ السّينمائيّةِ "منذ العقودِ الأُولى منَ القرن العشرين، عندما عزّزتِ الأفلامُ مكانتَها تجاريًّا وجماليًّا كتعبيرٍ عنِ «الفنّ السّابع» الجديدِ، فأنشأتِ السّينمَا والأدبُ تاريخًا متبادَلاً منَ الانبهارِ والتّأثيرِ والمواجَهةِ والتّعاوُن.

فَحِيكَتِ الأعمالُ الأدبيّةُ بعمْقٍ في نسيج السّينمَا "منذ ظهورِ جهازِ السّينماتوغراف واعترافِ السّينمَا كأداةٍ سرديّةٍ. وقد لعبَ الأدبُ دورًا جوهريًّا طوالَ تاريخ السّينمَا، من بدايتِها وحتى يومِنا هذا، حيث وفّرتِ التّكييفاتُ الأدبيّةُ مصدرًا موثوقًا للموادّ، خاصّةً في مجال السّينمَا التّجاريّة بهوليوود. استلهمتِ السّينمَا تكييفاتِها منَ الأدبِ والمسرحِ والنّصوصِ الأصليّةِ على حدٍّ سواءٍ". والتي يُخْتَزَلُ من خلالها لحظاتُ السّردِ المحوريّةُ إلى تكوينٍ جديدٍ. حتى ظهرَ ما يُعرفُ بـ «سينمَا الأدبِ».

حيث عُـدَّتِ الكتابةُ الأدبـيّـةُ بأجناسِها المختلفةِ مصدرًا مهمًّا من



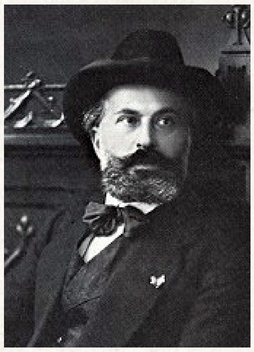
مصادرِ السّينمَا، ويحدّد ديمتريك وديمتريك(Dmytryk and Dmytryk) في نقاشهما ثلاثـةَ مصادرَ رئيسةٍ لمحتوى السّينمَا: (المسرحُ، الرّواياتُ، والسّيناريوهات الأصلية)، وفي التّطبيق العملي، تأتي معظمُ السّرديّاتِ السّينمائيّةِ مِن اقتباساتٍ روائيّةٍ».

فالأدبُ وَفقَ رؤيةِ ديمتريك وزميله يشكّلُ مصدرًا غنيًّا لكتابةِ النّصوصِ السّينمائيّةِ. "فمنذُ بداياتِها، تطلّبت السّينمَا باستمرارٍ قصصًا لترويَها، منَ الماضي وحتّى الحاضرِ. تعملُ السّينما كوسيلةٍ لاستعراضِ القصصِ أمامَ الجمهور وتقديمِ التّرفيه، في حينِ يوفّرُ الأدبُ هذه السّردياتِ للسّينمَا لتستفيدَ منها. في الحقيقة، فإنَّ جُزءًا كبيرًا منَ الأعمالِ المكتوبةِ يحتوي على محتوى جاهزٍ للتّكييفِ السّينمائيّ. وقد شكّلتِ التّكييفاتُ بالفعل ركيزةً أساسيّةً في السّينمَا منذُ نشأتِها».

وقـد أطلقَ المختصّون بمجال السّيمْيولوجيا والـدّلالـةِ، على العلاقةِ بين الأدبِ والسّينمَا "علاقةَ التّناصّ التّصويريّ (la relation d,intertextualite pictuaale) la relation d'intertextualité picturale حيث يرى أنصارُ هذا الطّرحِ أنّ التّحاوُرَ والتّعالقَ الذي يَسمُ ثنائيةَ الرّوايةِ والفيلمِ هو بناءٌ إبداعيٌّ جماليٌّ يطرحُ نفسُه شبكةً منَ العلاقاتِ البصريّةِ التي تنتظرُ إدراكًا جماليًّا خاصًّا حتى في ثنايا اللُّغة" حيث تُطوّعُ السّينمَا الأجناسَ الأدبيّةَ ومحتوياتِها الخياليّةَ لصالحِها، محوِّلةً إيّاها إلى نصٍّ سينمائيٍّ على شريطٍ



علي عشري زايد



ريتشيوتو كانودو



يوسف السباعي

مرئيٍّ مقوّماتُه الحركةُ والتّفاعلُ الحسّيّ والبصريّ لكلّ عنصرٍ من عناصرِها وَفقَ زمنٍ خاصٍّ وهو الزّمنُ الفيلميُّ.

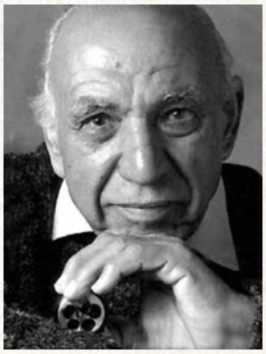
والعلاقةُ بينَ الأدب - وخصوصًا الرّواية – وَ السّينما «هي علاقةٌ تبادُليَّةٌ، فكلاهما يُلهمُ الآخرَ، ترسمُ الأولى فكرتَها بالأحرفِ وتُترجمُها الثّانيةُ بلُغةٍ بصريّةٍ لافتةٍ للنّاظر، مُشكّلةً لغةً مشتركةً بين النّصّ الأدبيّ والسّينمائيّ، سواء قدّمت هذه الرّؤيةُ الفنّيةُ اعتمادًا على رؤيةِ المخرجِ دونَ الارتكازِ على سرْدِ الرّوايةِ، أوِ اعتمادًا تطابُقيًّا يتعادلُ فيه الأدبيُّ في الرّواية مع النّصّ السّينمائيّ، وبالتّالي القاسمُ والهدفُ المشتركُ واحدٌ لكلِّ الفنَّين مهما اختلفتْ طريقةُ المعالِج».

ولقد تعدّدتِ التّقنياتُ السّينمائيّةُ التي جذبتِ الأدباءَ وخصوصًا الشّعراءَ، وأغرتْ شهيّتَهم نحو التّجريبِ والتّجديد، فاستمدُّوا من جمالياتِها وفنّياتِها، يقولُ علي عشري زايد في هذا الصدد: «منَ الفنونِ التي استعارت القصيدةُ الحديثةُ بعضَ تَكنيكاتِها، ووسائلِها في التّعبير فنُّ السّينما، حيث استفادت من بعض تَكنيكاتِه الأساسيّةِ كالمونتاج، والسّيناريو، وسِواها من أساليبِ «صناعةِ الفيلم السّينمائيّ».

التّلاقِي والاختلافُ بين السّينمَا والأدب:

أسْهمَ كلٌّ منَ السّينما والأدبِ في ازدهارِ الآخرِ والتّرويجِ له؛ "فعلى سبيلِ المثال، يمكنُ لتجربةِ مشاهدةِ فيلم أن تدفعَ المشاهِدين لاكتشافِ الرّوايةِ المقابلةِ، ممّا يعزّزُ مبيعاتِ الكُتب. بالإضافةِ إلى ذلك، يقدّمُ الأدبُ محتوًى يَسهلُ تكْييفُه للسّينما، ممّا يُسهِّلُ عمليّةَ الكتابةِ والإنتاجِ، فتحويلُ روايةٍ ناجحةٍ إلى فيلم يضمنُ جمهورًا مُسبقًا.

ومع ذلك فإنَّ فعْلَ القراءةِ قد يكونُ أكثرَ تحرُّرًا من مشاهدةِ العملِ في السّينما؛ حيث تُمثّلُ الأخيرةُ نوعًا منَ الأسرِ المؤقّتِ المحدَّدِ بمدّةٍ معيّنةٍ، ومشاهدةِ صُورٍ بصريّةٍ سواء كانت بصريّةً أم سمعيّةً معدّةً بعنايةٍ وعُرضت بدقّةٍ، أمّا القراءةُ فهي فعلٌ ذاتيٌّ يَستحضرُ القارئُ السّردَ بصريًّا في خيالِه، ويخوضُ العملُ الأدبيُّ رحلةً مُطوّلةً نسبيًّا مقارنةً بنظيرِه السّينمائيِّ. فعند قراءةِ كلِّ صفحةٍ، يُشدُّ القارئُ إلى عوالمَ متنوّعةٍ، حيث يتشابكُ الخيالُ مع كلِّ سطرٍ. وينمُو فضاءُ الإبداعِ بقدْرٍ مُتزايدٍ، ممّا يعزّزُ من حريّةِ التّصوّراتِ المستمدّةِ منَ الفضاء الواسعِ للخيال الدّاخليِّ. وهذا يعني أنَّ قراءةَ



المخرج صلاح أبو سيف



إحسان عبد القدوس



الأخوان لوميير

العملِ الأدبيِّ وخصوصًا قبْلَ مشاهدةِ الاقتباسِ منه على شاشةِ السّينما يكونُ أكثرَ انفتاحًا، ويَنتجُ عنه تصوّراتٌ مختلفةٌ مع كلِّ قارئٍ في خيالِه الدّاخليّ؛ ممّا يوفّرُ له «مساحةً غيرَ محدودةٍ منَ الخيالِ والتّصوّراتِ، ممّا «يمكنُ لكلِّ قارئٍ أن يصنعَ "فيلمًا" مُدهشًا وإبداعيًّا في ذهنِه.

لغةُ السّينمَا وعلاقتُها بالرّواية:

تختلفُ لغةُ السّينمَا عن لُغةِ الأدبِ في السّردِ القَصصيِّ، فحينما يعتمدُ الأدبُ على اللُّغةِ اللّفظيّةِ المطبوعةِ المُفعَمةِ بالخيالِ التي لها أسلوبُها وقواعدُها وبلاغتُها وعناصرُ الجمالِ التي تُميّزُها، فإنَّ لُغةَ السّينما تتمثّلُ في «الوسائلِ التي تنقلُ بها السّينمَا المعلوماتِ» وهي لُغةٌ مباشرةٌ هدفُها صناعةُ المعلومةِ ورسمُ ملامحِ المشهديّةِ المطلوبةِ، ونحن في تقْييمِنا للُغةِ السّينما لا نحكمُ عليها لجمالِها أو بلاغتِها، بل بقُدرتِها على أداءِ مهمّتِها، يقولُ صلاحُ أبو سيف: «ولذلك لا يجبُ أن نحكُمَ على لغةِ السّينمَا منَ النّاحيةِ الجماليّةِ، بل من مقدارِ الخدمةِ التي تُؤدّيها هذه اللُّغةُ للقصّةِ. فليستِ اللّغةُ السّينمائيّةُ هدفًا في حدِّ ذاتِه؛ لأنَّ القصّةَ هي الهدفُ .. وأحسنُ طريقةٍ لاستعمالِ اللّغةِ السّينمائيّةِ لا تكونُ في اللّعبِ فنّيًّا بهذه الوسائلِ، بل باستخدامِ أحسنِ الوسائلِ لحكايةِ القصّةِ» .

ولكن يبدُو أنَّ لُغةَ السّينمَا قد تطوّرت في العقودِ الأخيرةِ متأثّرةً بالسّردِ الأدبيِّ، فلم تعُدْ تكتفِي بالوسائلِ التي أشارَ إليها صلاحُ أبو سيف والتي تنقلُ المعلوماتِ وتُصوّرُ الأشخاصَ والأشياءَ على (شريط السّلولويد) بل «أصبحتِ السّينمَا ببساطةٍ وسيلةً للتّعبير، تمامًا كما كانت جميعُ الفنونِ الأخرى قبْلَها، وخاصّةً الرّسمَ والرّواية...» ولِذَا، يمكنُ القولُ إنَّ الرّوايةَكان لها تأثيرٌ تكوينيٌّ على تطوُّرِ لغةِ السّينما. ومن ثمّ، بقيتِ السّينمَا مُدَّةً طويلةً في ظلّ الكلمةِ المكتوبةِ. ولاتزالُ اللّغةُ السّينمائيّةُ، التي تعتمدُ على جوهرِ السّردِ الأدبيِّ، تحتفظُ بأهمّيتها حتّى في الوقتِ الحالي .

وقَدْ أشارَ بعضُ الباحثين إلى أنّ اللّغةَ السّينمائيّةَ لا تشيرُ فقط «إلى مهمّةِ تحويلِ النّصّ إلى تعبيرٍ بصريٍّ، بل هي اشتغالٌ بِإنتاجِ المعنَى بالدّرجةِ الأُولى، وصنْعِ الدّلالة، من خلال زاويةِ الرّؤيةِ واللّونِ والتّقطيعِ والتّقديمِ والتّأخيرِ والإبطاءِ والإرجاءِ والتّقريبِ، بالإضافةِ

> تختلفُ لغةُ السّينمَا عن لُغةِ الأدبِ في السّردِ القَصصيِّ، فحينما يعتمدُ الأدبُ على اللُّغةِ اللّفظيّةِ المطبوعةِ المُفعَمةِ بالخيالِ التي لها أسلوبُها وقواعدُها وبلاغتُها وعناصرُ الجمالِ التي تُميّزُها، فإنَّ لُغةَ السّينما تتمثّلُ في «الوسائلِ التي تنقلُ بها السّينمَا المعلوماتِ» وهي لُغةٌ مباشرةٌ هدفُها صناعةُ المعلومةِ ورسمُ ملامحِ المشهديّةِ المطلوبةِ.

> أشارَ بعضُ الباحثين إلى أنّ اللّغةَ السّينمائيّةَ لا تشيرُ فقط «إلى مهمّةِ تحويلِ النّصّ إلى تعبيرٍ بصريٍّ، بل هي اشتغالٌ بِإنتاجِ المعنَى بالدّرجةِ الأُولى، وصنْعِ الدّلالة.

إلى المؤثّراتِ البصريّةِ والصّوتيّةِ التي تتعاضدُ لتشكيلِ المعنى، اعتمادًا على الصّورةِ باعتبارِها البُنيةَ الأساسيّةَ لتلك اللُّغة، ليس كعلامةٍ بصريّةٍ فقط، وإنّما كأيقونةٍ وشيفرةٍ ودالٍّ ومرجعيّةٍ، بمعنى أنَّ اللُّغةَ المكتوبةَ وهي تنتقلُ من حاضنِها اللّسانيِّ تتضاعفُ دلالاتُها ضمْنَ فضائِها السّيميولوجيّ، بحيث تتصعّدُ الصّورةُ المبسَّطةُ غيرُ القابلةِ للتّجزئةِ من حدِّ الإبصارِ إلى مُستوى الرّؤيةِ، أي تشكيلِ خطابٍ بصريٍّ بقواعدَ تركيبيّةٍ، تحوّلُها إلى كتلةٍ مُختزنةٍ بالدّلالات».



تَكْييفُ السّينمَا للأعمالِ الأدبيّة:

تُعدُّ التّكييفاتُ أوِ الاقتباساتُ الأدبيّةُ وسيلةً لنقلِ موضوعاتِ الأدبِ إلى جمهورٍ واسعٍ من خلال السّينما والتّلفزيون. بالإضافةِ إلى ذلك، تُؤَدِّي الاقتباساتُ دورًا محوريًّا في إدخالِ الاتّجاهاتِ الأدبيّةِ الجديدةِ بسرعةٍ إلى الجمهورِ العامِّ. وتتقاطعُ السّينمَا بسلاسةٍ مع العديدِ منَ التّخصّصاتِ والفنونِ الأخرى، بما في ذلك الرّسمُ، والموسيقَى والمسرحُ والأدبُ. وقد أغنى هذا التّداخلُ السّينمَا من خلال الاستفادةِ منَ الثّروة الغنيّةِ للمُحتوى الأدبيِّ .

ويسعَى السّيناريو السّينمائيُّ إلى تكييفِ الأعمالِ الأدبيّةِ والاقتباسِ منها، مُستثمرًا روحَ النّصّ الأدبيّ وما يَنطوِي عليه من خصائصَ جماليّةٍ وخياليّةٍ، محوِّلًا إيّاه من لُغةٍ مكتوبةٍ على الورقِ إلى صُورٍ مرئيّةٍ وعلاماتٍ بصريّةٍ متحرّكةٍ. فالأديبُ يتأمّلُ الأحداثَ ثمّ يُصوّرُها على

ياقوت، زينب، ارتحال النص السردي من الرواية إلى السينما عرض بعض النماذج، مجلة قراءات، المجلد: 14/العدد: 01 (2022) ص541.

Arkan, G. N. (2023). Cinema Literary Adaptations as a Narrative Form. Contemporary Issues of Communication, 2(2), P 51.

Alok, N., & HMS, D. (2020). Cinema and Literature and their Role in the Development of India. Journal of Emerging Technologies and Innovative Research, P1787.

أبو سيف، صلاح (1981)، كيف تكتب السيناريو، منشورات دار الجاحظ، بغداد. س الموسوعة الصغيرة 98، ص13.

Bozzi, F. (2015). Literature as Cinematography: Writing Movement in the Modernist Novel (Master's thesis). P3.

Ibid, P3

ومن أمثلة الانخراط المبكر والمتبادل بين الأدب والسينما: في عام 1906، أخرج تشارلز تايت أول فيلم طويل في تاريخ السينما "قصة عصابة كيلي" استنادًا إلى مسرحية "عصابة كيلي" لأرنيولد دينهام، بينما في عام 1913، أصبحت "كوا فاديس؟" لإنريكو غواتزوني أول فيلم طويل مقتبس من رواية، وفي عام 1914 أخرج سيسيل ب. ديميل أول فيلم طويل في هوليوود "رجل السكاو"، والذي استند أيضًا إلى نص أدبي، وهو المسرحية التي تحمل نفس الاسم لإدوين ميلتون رويال.

Ibid, P3

Arkan, G. N. Cinema Literary Adaptations, P50.

Ibid, P54.

Ibid, P52.

الورق، في حين يكونُ السّينمائيُّ مُطالبًا بتحويلِ كلِّ فكرةٍ إلى حركةٍ منظورةٍ. ومن خلال عملَيْهما يبدُو الفرقُ بينهما، فالأديبُ ينقلُ إلى القارئ صورةً ذهنيّةً image mentale أي معنى وهو المعنى الذي يُولِّد في الذّهنِ الصّورةَ.

فالسّينمَا تُضفي طابَعًا تحويليًّا على محتوًى أو هيكلِ المادّةِ الأصليّةِ، وعندَ استعراضِ كيفيةِ تعامُلِ السّينمَا مع الأعمالِ الأدبيّةِ، يتّضحُ أنَّ السّينمَا تستندُ إلى الأدبِ كنموذجٍ. ويمكنُ عزوُ هذا إلى القيودِ الفنّيةِ مثل طولِ الشّريطِ السّينمائيّ، والتّقنياتِ النّاشئةِ في التّوليف والإعداداتِ، وكذلك نقصُ السّيناريوهات المكتملةِ فأيُّ لقطةٍ سرديّةٍ تتحوّلُ إلى مبنًى سينمائيٍّ عندما نُسقطُ الصّورةَ البصريّةَ على الصّورةِ التّخييليّةِ، وهذا بالاعتمادِ على تقنياتِ السّيناريو.

وهناك العديدُ منَ الأمثلةِ على تكييفِ الأعمالِ الرّوائيّةِ وتحويلِها إلى أفلامٍ سينمائيّةٍ، منها ما حافظَ كاتبُ السّيناريو على رُوحِ الرّواية، ومنها ما اقتبسَ منها الكثيرَ، ولكنّه غيّرَ في أحداثِ القصّةِ وشخصياتِها لأسبابٍ دراميّةٍ أو فنّيةٍ.

فمنَ الأعمالِ التي حافظ كاتبُ السّيناريو على أحداث القصّةِ روايةُ (دعاء الكروان) والتي تُعدُّ من أبرزِ أعمالِ عميدِ الأدبِ العربيِّ طه حسين، وقدْ حُوِّلَتْ إلى فيلمٍ سينمائيٍّ عام 1959م من إخراجِ هنري بركات وبطولةِ فاتن حمامة وأحمدَ مَظهر. عالج الفيلمُ - بأسلوبٍ بصريٍّ رقيقٍ - موضوعاتِ الحبّ والصّراعِ الطّبقيّ والانتقام، محافظًا على روحِ الرّواية. كذلك ثلاثيّةُ نجيب محفوظ، والتي تضمُّ رواياتِ «بين القصْرين»، «قصْر الشوق»، و«السّكرية»، وروايةَ «رُدَّ قلبي» ليوسف السّباعي، والتي حافظ كُتّابُ السّيناريو لكلٍّ منها على جوهرِ الرّوايةِ الأصليّةِ وأحداثِها.

ولكنْ منَ الأعمالِ الرّوائيّةِ التي طرأَ عليها التّغييرُ في السّيناريو روايةُ (لن أعيشَ في جِلباب أبي) للكاتب إحسان عبد القدوس، والتي تحوّلتْ إلى مسلسلٍ تلفزيونيٍّ شهيرٍ، حقّقَ نجاحًا جماهيريًّا كبيرًا بفضلِ تناوُلِه قضايَا النّجاحِ والصّراعِ بين الأجيال. قدّم المسلسلُ، بطولةَ نور الشريف وعبلة كامل، معالجةً دراميّةً مختلفةً عنِ النّصّ الأصليِّ، إلاّ أنّه حافظَ على جوهرِ الرّوايةِ ورسالتِها.

وفي ختامِ هذه الأسطُرِ نرى كيف شكّلتِ العلاقةُ بين السّينمَا والأدبِ مزيجًا مُتكاملاً يُعزّزُ من قيمةِ كلٍّ منهما، إذ تمنحُ السّينمَا للنّصوصِ الأدبيّةِ أبعادًا جديدةً منَ الحيويّةِ والإبداعِ، بل منحتِ الكثيرُ منَ الأعمالِ الأدبيّةِ حياةً جديدةً من خلالِ الصّورةِ والصّوتِ، في حين يوفّرُ الأدبُ للسّينمَا عوالِمَ غنيّةً بالقصصِ والشّخصياتِ، وألهمَهَا موضوعاتٍ عميقةً وأفكارًا مبتكَرةً. ومن خلالِ هذا التّفاعلِ المستمرِّ، يظلُّ كلا المجالَين يحتفظُ بجاذبيتِه وتأثيرِه في الجمهورِ.

نقلا عن: يخلف، فايزة، الفيلم السينمائي بين النص الأدبي والكتابة للشاشة، مجلة علوم اللسان، عدد خاص بمؤتمر الأدب والسينما – 6 – 7 مارس 2016 – مخبر علوم اللسان – جامعة الأغواط، ص292.

ياقوت، زينب، ارتحال النص السردي من الرواية إلى السينما عرض بعض النماذج، ص5

علي عشري زايد، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، مكتبة الآداب، ط5، 1429هـ – 2008م، ص 215.

Arkan, G. N. Cinema Literary Adaptations,P50.

Alok, N., & HMS, D. Cinema and Literature, P1787

صلاح أبو سيف، كيف نكتب السيناريو، ص16. يقول صلاح أبو سيف: "وسيلة التعبير في الرواية المكتوبة هي الكلمات المطبوعة، وسيلة المسرحية هي الممثلون على خشبة المسرح، أما وسيلة السينما فهي شريط السلولويد صورنا عليه أشخاصا وأشياء" المرجع نفسه ص16.

المرجع نفسه، ص17.

المرجع نفسه، ص16.

Bozzi, F. Literature as Cinematography, P3.

Arkan, G. N. Cinema Literary Adaptations, P51.

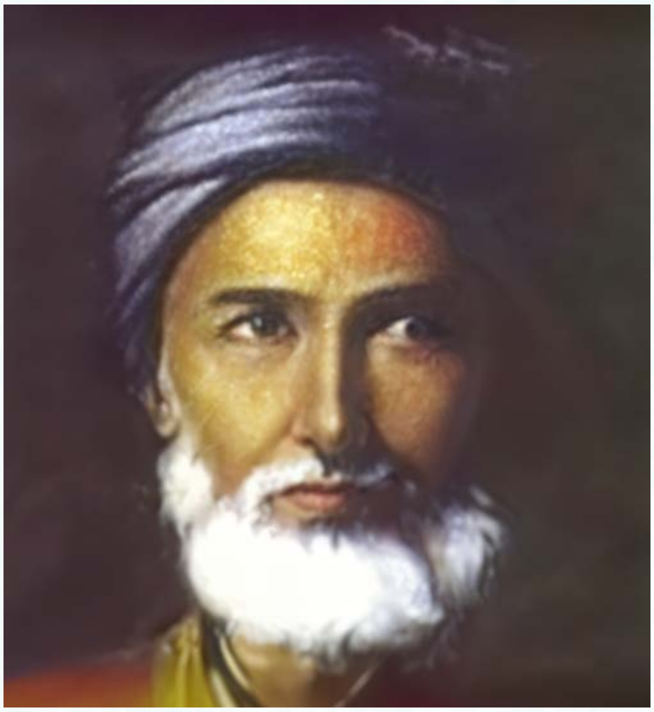
العباس، محمد، اللغة السينمائية وإنتاج المعنى. https://thaqafat.com/2016/09/63931 وانظر: نجيب بخوش، جماليات اللغة السينمائية، مجلة البحوث والدراسات – العدد 24، السنة 14، صيف 2017، ص522.

Arkan, G. N. Cinema Literary Adaptations, P 51.

نقلا عن فايز يخلف، الفيلم السينمائي بين النص الأدبي والكتابة للشاشة، ص291 – 292.

Kayaoğlu, E. (2016). Edebiyat ve film: edebiyat bilimi yaklaşımıyla film çözümlemesine giriş. Hiper-link eğit. ilet. yay. san. tic. ve ltd. sti..

تَنَاسُبُ الإيقَاعِ والوَاقِعِ النَّفْسِيِّ فــي نُونِيَّةِ ابنِ زَيْدُون



نُونيّةُ ابنِ زَيدون قصيدةٌ سائرةٌ ذائعةٌ عابرةٌ للأزمان، عزَف فيها الشّاعرُ معزوفةَ البَين الأخيرةَ مُسْدلاً السّتارَ على تجربةِ عشْقٍ لم يُكتبْ لها أن تكتملَ، وخلّدتِ اسمَه واسمَ ولادةَ في سِجلِّ المحبّين، وهي إحدى أَسْيَرِ قصائدِ الشّعرِ الأندلسيِّ إلى جانبِ قافيَتِه البديعةِ.

يتأرجحُ إيقاعُ القصيدةِ بين الخُفوتِ والحركيّةِ، ويتأثّرُ بالمعاني والواقعِ النّفسيِّ المتحوّلِ للشّاعرِ، ويكتسبُ نبْضَه من توظيفِ الطّباقِ الذي يجعلُ حركيّتَه بين مدٍّ وجزرٍ، صاعدًا حينًا، ونازلاً حينًا آخرَ، ومُتموّجًا حينًا ثالثًا، كما يتأثّرُ بقلبِ مواضعِ الألفاظِ في التّركيبِ، حيث يُحاكِي القلبُ الموضعيُّ حركيّةَ النّفسِ الدّاخليّةِ، وتتقوّى فاعليّتُه بالجناسِ والتّوازي والتّكرارِ والتّصديرِ والتّرصيعِ، وهذه الظّواهرُ كلُّها تجعلُ القصيدةَ لوحةً فُسيفسائيّةً تتلوّنُ بأصباغٍ مُتباينةٍ، وبين انفعالِ النّفسِ ورنينِ الصّوائتِ وتلوُّنِ الصّوامتِ، تتحوّلُ جغرافيَا القصيدةِ إلى ميدانٍ فسيحٍ يعكسُ طبيعةَ التّموُّجِ الذي تحياه الذّاتُ.



د. سعيد بكور
أستاذُ الأدبِ العربيِّ القديمِ
بجامعةِ ابنِ طفيل/ المغرب

إيقاعُ التّماثُلِ والتّنَاسُبِ

اختارَ الشّاعرُ بحرَ البسيطِ لامتدادِه وطُولِ نفَسِه الذي يمنحُ مساحةً للبَوحِ والبَثِّ والشّكوَى والتّأسُّفِ والتّحسُّرِ، والتّحوُّلُ منَ التّفعيلةِ السُّباعيّةِ إلى الخُماسيّةِ يُعطي للشّاعرِ متّسعًا يُمكّنُه مِن احتواءِ التّدفُّقِ الانفعاليِّ الممتدِّ الذي ينطلقُ دونَ حابسٍ يئدُه، ويتّسمُ البسيطُ بكونِه يَصلحُ للمعاني الفخْمةِ الجليلةِ وللمعاني اللّيّنةِ، ممّا يجعلُه ذا مَنزعٍ قَصصيٍّ وإنشائيٍّ في آنٍ ، وقد أبدعَ الشّاعرُ في جعْلِه مُعبّرًا عن واقعِ النّفسِ في انفعالاتِها وتقلّباتِها، ومُحتويًا لهديرِ الذّكرَى الذي تحوّلَ إلى بَوْحٍ سَرديٍّ يقطرُ أسًى.

الوزنُ قالَبٌ إيقاعيٌّ ثابتٌ، لكنَّ الشّاعرَ استطاعَ إخراجَه من حالِ القُوّةِ إلى الفعْلِ، وجعْلَه من خلالِ ما صبَّه فيه معبّرًا عن تلاطُماتِ النّفسِ الشّاعرةِ وتفاعُلاتِها وانفعالاتِها، وكذا تموُّجاتِها ونبْضَها. وهنا نَستحضرُ فاعليّةَ الأصواتِ كالتّضعيفِ والمدودِ وتَكرارِ الصّوائتِ والصّوامتِ ودورِها في إغناءِ الإشعاعِ الإيقاعيِّ المصوِّرِ للنّفسِ وتقلُّباتِها.

أَضحى التَنائي بَديلاً مِن تَدانينا
وَنابَ عَن طيبِ لُقيانا تَجافينا

أَنَّ الزَمانَ الَّذي مازالَ يُضحِكُنا
أُنساً بِقُربِهِمُ قَد عادَ يُبكينا

- ابن زيدون

وللقَافِيةِ بُعدُها الجماليُّ الواضحُ، وتتحدّدُ صَوتيًّا في الصّورةِ الآتيةِ (0-- 0)، وجاءت مُطلقةً مُتواترةً عكستْ من خلالِ تكوينِها الصّوتيِّ البُعدَ النّفسيَّ للشّاعرِ وتأرْجُحَه بين الانكسارِ والجُرحِ الغائرِ وبين الرّغبةِ في الخروجِ منَ المعاناةِ الضّاربةِ في العُمقِ.

إنَّ تواتُرَ القَافيةِ وَسَمها بالسُّرعةِ، وهو ما عكسَ رغبةَ الشّاعرِ الـمُلحّةَ في ختْمِ المعنَى الذي يُثقلُ على نفسِه، ورغمَ أنّه يصطدمُ بحفرةِ الياءِ العميقةِ (يـ) يجاهدُ لكيْ يسحبَ نفسَه منَ الغرقِ ويقاومُ من أجلِ الانفلاتِ وهو ما يمثّلُه ألفُ المدِّ. إنَّ القافيةَ في عُمقِها مصبُّ البيتِ معنًى وإيقاعًا، وقد قطعَ الشّاعرُ من بدايةِ البيتِ إلى نهايتِه مسافةً ممتدّةً وكان طبيعيًّا أن يجعلَها الشّاعرُ سريعةً تُعجّلُ بانتهاءِ البَوْح المُؤلمِ.

زادَ التّصريعُ من فاعليةِ الإيقاعِ في البيتِ الأوّلِ، فالسّرديّةُ الباهتةُ التي افتتحَ بها الشّاعرُ قصيدتَه أمْلَت عليه ضرورةَ ضخٍّ حيويّةٍ إيقاعيّةٍ من خلالِ

اختارَ الشّاعرُ بحرَ البسيطِ لامتدادِه وطُولِ نفَسِه الذي يمنحُ مساحةً للبَوحِ والبَثِّ والشّكوَى والتّأسُّفِ والتّحسُّرِ، والتّحوُّلُ منَ التّفعيلةِ السُّباعيّةِ إلى الخُماسيّةِ يُعطي للشّاعرِ متّسعًا يُمكّنُه من احتواءِ التّدفُّقِ الانفعاليِّ الممتدِّ الذي ينطلقُ دونَ حابسٍ يئدُه، ويتّسمُ البسيطُ بكونِه يَصلحُ للمعاني الفخْمةِ الجليلةِ وللمعاني اللّيّنةِ.

إنَّ تواتُرَ القَافيةِ وَسَمها بالسُّرعةِ، وهو ما عكسَ رغبةَ الشّاعرِ المُلحّةَ في ختْمِ المعنَى الذي يُثقلُ على نفسِه.



خلْقِ التّماثُلِ الصّوتيِّ بين العَروضِ (نِينا: 0--0) والضّربِ (فينا: 0--0)، وعبّرَ هذا الاختيارُ في العمقِ عن نفسٍ هدَّها التّعبُ، فلَجأتْ منذ البدايةِ إلى إسقاطِ بعضِ الحروف عن طريقِ إدخالِ التّغْييرات على التّفعيلاتِ.

إيقاعُ السّردِ والوصْفِ بين الانفعالِ والهدوءِ

يُعوّلُ الشّاعرُ في بثّه على السّردِ الذي يُساعدُه على التّفصيلِ، ويتأثّرُ الإيقاعُ بهذا الاختيارِ التّعبيريِّ، فالشّاعرُ ماضٍ في بَوْحِه لا يَنِي ولا يتوقّفُ ولا يأخذُ نفَسًا، ممّا يجعلُ المعانيَ مُتداعيةً مُنطلقةً، وكأنّها تأتي مِن كلِّ الجوانبِ، ويتّسمُ هذا السّردُ بسِمَتَين يتدخّلُ الطّباقُ في رسْمِ خَطّيْهما، فتارةً يكونُ إيقاعُ المعاني هادئًا معتمِدًا على الإخبارِ، وتارةً يرتفعُ نسقُه متأثّرًا بانفعالِ النّفسِ التي يُحرّكُها إيقاظُ الذّكرَى واستدعاءُ الماضي السّعيدِ، وهنا ينتقلُ الشّاعرُ إلى توظيفِ الإنشاءِ ممّا يَسِمُ إيقاعَ المعاني والجُملِ بالحركيّةِ والتّموّجِ.

وأمامَ شدّةِ الانفعالِ وتداعِي المعاني، يلجأُ الشّاعرُ إلى الوصْفِ ليأخُذَ قسْطًا من راحةٍ بعدَ مراحلَ مِنَ الانتقال السّرديِّ بين الماضي والحاضر، إذ يتوقّفُ مُصوّرًا جمالَ المحبوبةِ وزينتَها وروعةَ قَوامِها، ممّا يَسِمُ المقطعَ الوصْفيَّ بالهدوءِ والثّبات، ويؤكّدُ ذلك خلُوَّه مِنَ الأفعال ومن ثُنائيةِ التّنائي والتّداني التي تُحدثُ التّموّجَ الإيقاعيَّ، وللخيارِ الأسلوبيِّ الوصفيِّ داعيان: أوّلُهما تناسلُ الهمِّ من تذكارِ الماضي، وآخرُهما الاستعدادُ للمُضيِّ قُدمًا في



طريق البَوْحِ والبَثِّ.

إيقاعُ الطّباقِ بين تَشَظّي الذّاتِ وتموُّجِ المعنَى

يقومُ إيقاعُ القصيدةِ الدّاخليُّ على الثّنائياتِ التي يُفرزُها الاعتمادُ الكبيرُ على الطّباقِ الذي يتكرّرُ ما يقاربُ خَمْسَ عَشْرَةَ مَرّةً (15) مُعبّرًا عن تشَظّي الذّاتِ وانقسامِها وشرْخِها، ويُفرزُ بعد ذلك إيقاعًا نفسيًّا ومعنويًّا يتجاذبُه الألمُ والأملُ، وتنشأُ عنه ثنائياتٌ لا حدَّ لها تؤكّدُ حجْمَ الانقسامِ الذي تُعانيه الذّاتُ وانتقالُـها بين شعورَين متناقضَين، وعالَمين بينهما هوةٌ بعيدةٌ: عالَمُ الحاضر وعالَمُ الماضي، وهذه الحركةُ السّريعةُ التي تتمُّ على مستوَى النّفسِ والذّهنِ تُقوّي من فاعليةِ الإيقاعِ العامِّ للقصيدةِ. يُبرزُ الطّباقُ حجْمَ الشّرخِ الحاصلِ على المستوَى النّفسيِّ، وكأنّه يقسمُ الشّاعرَ شطْرَين؛ شطْرٍ يعيشُ في الماضي، وشطْرٍ يعيشُ في الحاضر.

إيقَاعُ المعنى بين التّباطُؤِ والتّسارُعِ

يمكنُ الحديثُ، أيضًا، عن إيقاعِ المعنَى الذي يتأثّرُ بحركيّةِ التّركيبِ تقديمًا وتأخيرًا، ففي البيتِ الأوّلِ يُفاجئُ الشّاعرُ المتلقّيَ بالموضوع دون تمهيدٍ، ويمضِي مُقرّرًا بأسلوبٍ خبريٍّ واقعَ الحالِ وتحوُّلَ الحياةِ مِنَ التّداني إلى التّنائي، ولكي يضخَّ الحيويّةَ في القالَبِ السّرديِّ الباهتِ الهادئِ عمدَ إلى تقديمِ المسلوبِ (طيبُ لُقيانا) وتأخيرِ الواقع (تَجافينا)، ولِوقعِ المؤخَّر فعْلٌ في النّفس إذ ينتصبُ حقيقةً لا مفرَّ منها، لذلك كان وقوعُه في آخرِ البيت ذا فائدةٍ في تقريرِ واقعِ الفراق، من هنا اكتسبَ المعنى حركيّتَه وتدفّقَه، لكنّه انحبسَ في الكلمةِ الأخيرةِ التي أدّت وظيفةً معنويّةً وأخرى إيقاعيّةً، ولربّما يفيدُ تأخيرُه رغبةً في إخراجه من حيّزِ البيت ومن ثمّةَ من دائرةِ التّفكير.

يتحكّمُ التّقديمُ والتّأخيرُ في حركيّةِ المعاني تسريعًا وتبطيئًا، ففي هذا البيت:

نكادُ، حينَ تُناجِيكُم ضمائرُنا
يقضِي علينا الأسَى، لولا تأسِّينا

أصلُ ترتيبِ الكلامِ على هذا النّسق: "نكادُ يَقضي علينا الأسى حين تُناجِيكم ضمائرُنا لولا تأسّينا". والظّاهرُ أنَّ تقديمَ الظّرف وجملتَه (حين تُناجِيكم ضمائرُنا) كان بداعِي تفسيرِ ما سيأتي، فهو الباعثُ على الأسَى والحزنِ، ونلاحظُ كيف أنّ المعنَى يصيرُ بطيئًا عند انتصابِ الجُملةِ الاعتراضيّةِ التي تقدّمت، حيث خفّفتْ منِ انطلاقِه، ويكتسبُ البيتُ إيقاعيتَه أيضًا منَ التّخييل، إذ نتصوّرُ مشهدَ الضّمائرِ وهي تُناجِي المحبوبَ وكأنّها جوقةٌ تُغنِّي نشيدَ الاعتذار، ويأتي الفعلُ (يقضي) ليقرّرَ واقعَ الحزن، الذي نزل بضربتِه القاضية، وهنا يكونُ الشّاعرُ في مواجهةِ عدوٍّ خفيٍّ يملكُ القوّةَ المطلقةَ في الفتكِ بالإنسان، دون أن يملكَ الأخيرُ قُدرةً على الدّفاعِ لخفائه، وتنتصبُ (لولا) مانعةً وقوعَ القضاءِ على الشّاعرِ، وهو ما يمنحُه هدوءًا يخفّفُ منِ انطلاقِ المعنَى المتأثّرِ بالانفعالِ.

إيقاعُ التّوازي؛ وَهْمُ الهُدوءِ وحقيقةُ الانفعالِ

يعتنِي الشّاعرُ عنايةً واضحةً بالتّوازي الذي يمثّلُ ظاهرةً أسلوبيّةً بارزةً في القصيدةِ، إذ يتكرّرُ التّامُّ منه أربعَ مرّاتٍ والنّسبيُّ ثلاثَ مرّاتٍ، فإلى جانبِ وظيفتِه النّغميّةِ في منْحِ الحيويّةِ الإيقاعيّةِ التي تُغطّي على رتابةِ المعنى، فإنّه يلفتُ الانتباهَ إلى المعنَى المصبوبِ؛ فالتّوازي اختيارٌ تعبيريٌّ يحقّقُ التّداعيَ الإيقاعيَّ والتّوقيعَ النّغميَّ ليصرفَ الانتباهَ إليه



دون غيرِه من المعاني الأخرى التي صبَّها في قالَبٍ وزنيٍّ عاديٍّ، ومن نماذجِ التّوازي قولُ الشّاعر:

ولا اسْتَفَدْنا خليلًا عنكِ يُشغِلُنا
ولا اتّخَذْنا بديلًا منكِ يُسْلِينا

يأتي هذا البيتُ بعد ثلاثةِ أبياتٍ يصلُ فيها المدُّ الانفعاليُّ إلى حُمَيّاه، إذ نجدُ الشّاعرَ يدعُو بالسّقيا للعهدِ المتصرّمِ وينفِي تغيّرَه ويُقسمُ على بقاءِ الوُدّ، وهكذا يأتي صبُّ المعنى في قالَبِ التّوازي، وقيامُه على النّفيِ المطلَقِ لاتّهامٍ مفترضٍ، دالًّا على انفعالِ الذّاتِ واضطرامِها، وهو ما جعلَ هذا الخيارَ الإيقاعيَّ يُفصحُ عن تموُّجاتِ النّفس ومدِّها الانفعاليّ، ويأتي تامًّا شاملًا لكلِّ الوحداتِ وكأنَّ الشّاعرَ يريدُ أن يُوهمَنا بأنَّ حالتَه مُستقرّةٌ وبأنَّ نفسَه هادئةٌ.

إيقَاعُ الصَّوائِتِ والتّلْوِينِ النَّغمِيّ:

إنَّ أبرزَ ظاهرةٍ أسلوبيّةٍ في القصيدةِ هي تَكرارُ المدودِ، خاصّةً الألفَ والياءَ والواوَ، إذ تتكرّرُ مجتمعةً 425 مرة، ويأتي ألفُ المدِّ في الصّدارة، فالياءُ ثمّ الواوُ بدرجةٍ أقلَّ، ولا يكادُ يخلُو بيتٌ منَ المدود التي تعبّرُ عنِ الواقعِ النّفسيِّ المتأرجحِ بين عُمقِ المعاناةِ التي تَعكسُها الياءُ، والرّغبةُ في الانعتاقِ والخروجِ منَ الأسَى العميقِ الذي يعكسُه ألفُ المدِّ، وتُعزَى ظاهرةُ تَكرارِ المدود بهذه الحِدّة والبُروزِ إلى ارتباطِ الاختيارِ الإيقاعيِّ بالمعنى والواقعِ النّفسيِّ للشّاعرِ.

منَ الظّواهرِ الأسلوبيّةِ الصّوتيّةِ التي تدخلُ في إطارِ الإيقاعِ الدّاخليِّ التّضعيفُ الذي يتكرّرُ في القصيدة 89 مرّةً، إذ يُفصحُ عن واقعٍ نفسيٍّ يَطبعُه التّوترُ والانفعالُ، ويعاني من ضغْطِ الفراقِ وصَدمتِه، يقولُ الشّاعرُ:

واسألْ هنالكَ: هل عنّى تذكُّرنا
إلْفًا، تذكُّرُه أمسَى يُعنِّينا؟

بعيدًا عنِ التّكرارِ اللّفظيِّ وتَكرارِ الصّوامتِ، يُصوّرُ تَكرارُ صائتِ الشّدّةِ أربعَ مرّاتٍ قوّةَ الانفعالِ الدّاخليِّ وضغطَ الصّدمةِ الممارَسَ على الشّاعرِ، وفي تضعيفِ النّون إحالةٌ صوتيّةٌ على أنينِ النّفس، وفي مجاورتِها للعين تصويرٌ لاجتماعِ المعاناةِ والألم، ويدعمُ تفسيرُ المعاناةِ والتّوتّرِ والضّغطِ والانفعالِ استثمارَ فاعليّةِ الأمرِ والاستفهامِ في تصويرِ الواقعِ النّفسيِّ. يتّضحُ ممّا سبقَ مقدارُ التّناسبِ بين حركيّةِ الإيقاعِ وتموُّجِ المعنَى وانفعالِ الذّاتِ الشّاعرةِ، وهو ما جعلَ القصيدةَ لوحةً نفسيّةً ناطقةً نابضةً متموّجةً متذبذبةً، ونموذجًا لتناسُبِ التّعبيرِ والتّجربةِ الشُّعوريّةِ، فقد حرصَ الشّاعرُ على صبِّ الإيقاعِ النّفسيِّ وتموّجِه بين الصُّعودِ والهبوطِ، وتراوُحِه بين النّبضِ والخُفوت، في قالَبٍ إيقاعيٍّ متعدّدِ الأشكالِ والألوانِ، وهو ما يُبرزُ وعْيَه بانفتاحِ الإيقاعِ على كلِّ مُكوّناتِ النّصِّ التّعبيريّةِ.

الدِّينَامِيّةُ وامْتِدَادَاتُهَا في المجَالِ الأَدَبيِّ



د. محمد فاتي
باحث من المغرب

مفهومُ الدِّينَامِيّةِ منَ المفاهيمِ المتعدّدةِ الدّلالاتِ الغنيّةِ الإيحاءاتِ، والمنفتحةِ على مجموعةٍ منَ المجالاتِ العلميّةِ والمعرفيّةِ والثّقافيّةِ. وهو مصطلحٌ غربيُّ النّشأةِ، اشْتُقيَ من علْمِ الفيزياءِ، ويعني الانتقالَ والتّحوُّلَ من حالةٍ إلى أُخرى سواءٌ كانت في هيئةٍ دوريّةٍ، أو خطّيّةٍ، أو تصاعُديّةٍ، أو تراجُعيّةٍ، ممّا يقتضي مجالاً يتحرّكُ فيه، وزمنًا يُنْجَزُ هذا التّحوّلُ والانتقالُ فيه.

أمّا في العلومِ الإنسانيّةِ فيُمكنُ عَدُّ الدّيناميّةِ سَيرورةً لها بدايةٌ ومراحلُ تتطوّرُ فيها، وهي فرعٌ ميكانيكيٌّ يدرسُ العلاقاتِ التّفاعليّةَ بينَ العناصرِ المحرّكةِ التي تضمُّ قوى داخليّةً وأُخرى خارجيّةً. ويمكنُ الإشارةُ هنا إلى مجموعةٍ منَ العلومِ التي استلهمتْ هذا المفهومَ في أبحاثِها ودراساتِها: كعلْمِ النّفسِ الاجتماعيِّ الذي اهتمَّ بمبحثِ ديناميّةِ الجماعاتِ، بعَدِّهِ مجالاً يدرسُ المثيراتِ والاستجاباتِ التي تحدثُ داخلَ الجماعةِ في المواقفِ المختلفةِ التي تمرُّ بها.

وعلمُ الاجتماعِ مع أوغست كونت الذي تطرّقَ إلى ما سمّاه بـ«الدّيناميّةِ الاجتماعيّةِ مقابلَ السُّكونيّةِ الاجتماعيّةِ، باعتبارِ الأُولى تمسُّ ذلك الفرعَ من علمِ الاجتماعِ الذي يتناولُ التّقدّمَ الاجتماعيَّ»1، ثمّ نجدُ كذلك علْمَ الجغرافية الذي يهتمُّ بمفهومِ الدّيناميّةِ الحضريّةِ التي تَعني كلَّ نموٍّ يهمُّ المجالَ الحضريَّ، ويُسهمُ فيه النّموُّ السّكانيّ الذي يعرفُه هذا المجالُ.

أمّا في المجالِ الفلسفيِّ فتَعني الدّيناميّةُ الحركةَ والتّنقّلَ والتّغيُّرَ، وقد جاء في مُعجم لالاند الفلسفيِّ أنّ الدّيناميّةَ هي «قسمٌ منَ الميكانيك يعالجُ الحركةَ الطّبيعيّةَ والواقعيّةَ، بكلِّ خصائصِها.... والدّيناميُّ :

أ ـ مقابلُ السُّكونيِّ: ما يتضمّنُ تحوُّلاً أو صَيرورةً

ب ـ مقابلٌ آليٌّ ميكانيكيٌّ: ما يتضمّنُ ليس فقط حركاتٍ مترابطةً بالضّرورةِ وَفقًا لقوانينَ، بل يتضمّنُ أيضًا قوّةً فاعلةً .. وغائيّةً»2.

> **مفهومُ الدِّينَامِيّةِ منَ المفاهيمِ المتعدّدةِ الدّلالاتِ الغنيّةِ الإيحاءاتِ، والمنفتحةِ على مجموعةٍ منَ المجالاتِ العلميّةِ والمعرفيّةِ والثّقافيّةِ.**

ويؤكّدُ الدّكتور جميلُ صليبًا على خاصّيّةِ الحركةِ والتّغيّرِ في تحديدِه لمفهومِ الدّيناميكيّةِ، "والدّيناميكيّةُ مذهبٌ فلسفيٌّ مقابلٌ للميكانيكيّةِ أو الآليّةِ...وهو مذهبٌ ديناميكيٌّ يقرّرُ أنّ الموجودَ متحرّكٌ بذاتِه ...ويُطلقُ لفظُ الدّيناميكيّةِ أيضًا على المذاهبِ الفلسفيّةِ التي ترى أنّ الحركةَ أوِ الصّيرورةَ أوليّةٌ، وأنَّ حقيقةَ المادّةِ هي الحركةُ"3. وتتّفقُ مجموعةٌ منَ المعاجمِ الأُخرى على دلالةِ الدّيناميّةِ لمعاني: التّغيّرِ والحركةِ4.

ويرَى مرادُ وهبة في مُعجمِه الفلسفيِّ أنَّ مفهومَ الدِّيناميّةِ مُرتبطٌ بمعنى القوّةِ، وأصلُه «إفرنجيٌّ مشتقٌّ منَ اللّفظِ اليوناني دوناميسdunamwwwvis أي القوّةُ»5.

في حين يعدُّ الدّكتور أحمد زكي بدوي المذهبَ الدّيناميّ مذهبًا فلسفيًّا مقابلاً للميكانيكيّةِ ويفسّرُ جميعَ الظّواهرِ المادّيةِ بقُوًى لا ترجعُ إلى الكُتلةِ والحركةِ، وأنَّ الموجودَ متحرِّكٌ بذاتِه. ويُستخدمُ مصطلحُ ديناميّ dynamic بمعنيين: 6

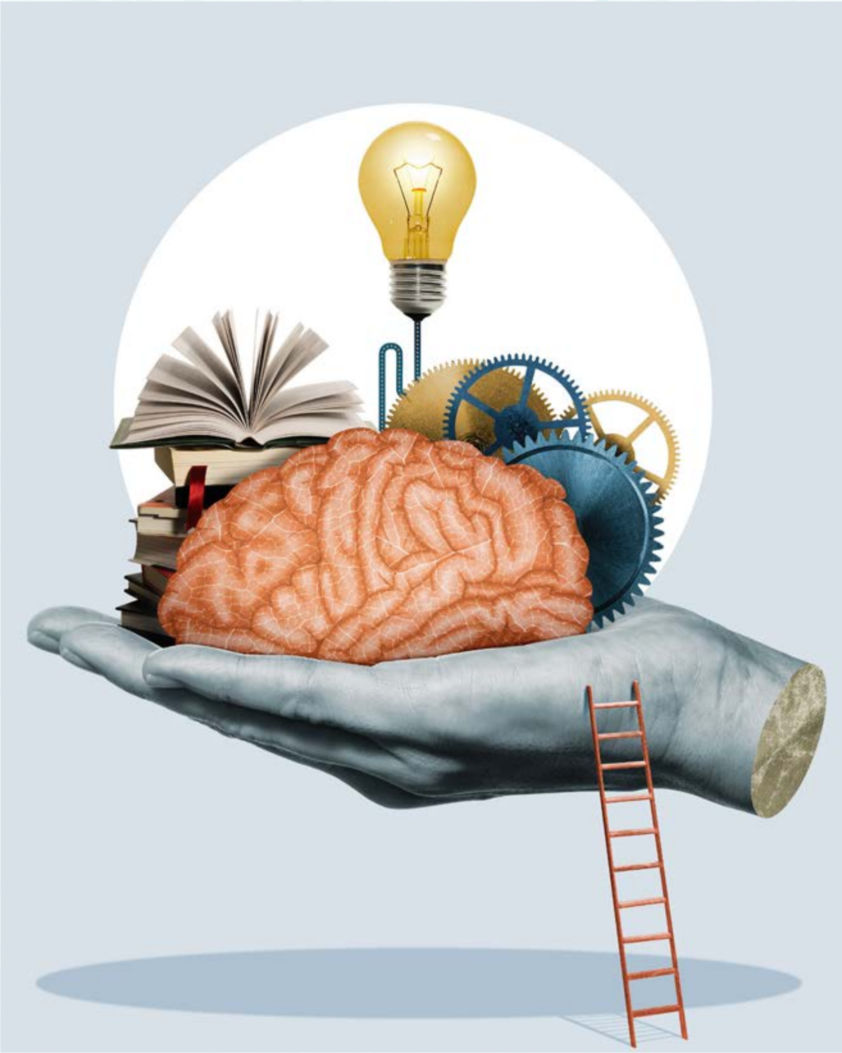
يُستخدمُ أحيانًا باعتباره مضادًّا لمفهومِ ثباتيّ static ومعناه حينئذٍ ما يتضمّنُ التّحوُّلَ والصّيرورةَ، وأحيانًا أخرى يُستخدمُ باعتباره مضادًّا لمفهومِ

آليّ mechanical ومعناه حينئذٍ ما يتضمّنُ مجموعةً منَ التّغيّراتِ المترابطةِ فيما بينها تبعًا لقوانينَ ضمنيّةٍ كما يتضمّنُ زيادةً على ذلك معنَى القوّةِ الدّافعةِ ونوعًا منَ الغائيّةِ.

وإذا انتقلنا إلى المجالِ اللُّغويّ، سنجدُ مجموعةً منَ المعاجمِ اللُّغويّةِ العربيّةِ (الحديثةِ) اهتمّت بمصطلحِ الدِّيناميّةِ المعرَّبِ منَ الأصلِ الأجنبيّ، من بينها المعجمُ الوسيطُ الذي يرى أنَّ علْمَ الدّيناميكيّةِ هو «علمٌ يبحثُ في الحركةِ بمعناها العامِّ»7. ثمّ معجمُ اللّغةِ العربيّةِ المعاصرةِ الذي يُعرّفُ الدّيناميّةَ بأنّها: « 1ـ نشاطٌ كبيرٌ: (هذا الرّجلُ يتّصفُ بديناميّةٍ لا مثيلَ لها) . 2ـ نظريّةٌ تفترضُ وجودَ قوّةٍ كامنةٍ في المادّةِ»8.

وعمومًا تشتركُ أغلبُ التّعريفاتِ التي أشرْنا إليها ـ والتي تنتمي إلى حقولٍ معرفيّةٍ متنوّعةٍ ـ في مجموعةٍ منَ المعاني التي ترتبطُ بمصطلحِ الدّيناميّةِ: التّحوّلُ/ الانتقالُ/ التّفاعلُ/ الحركةُ/ النّموُّ / التّغيّرُ/ القوّةُ / الصّيرورةُ... وهي معانٍ تحيلُ علَى عمليّةٍ تفاعليّةٍ، تقتضي التّغيّرَ والتّحوّلَ عبْرَ فعلِ الحركةِ الذي يُعدُّ شرطًا أساسيًّا في هذه الصّيرورة.

ومادَامَ عَديدٌ مِنَ المجالاتِ المعرفيّةِ يَستندُ على هذا الفعلِ (الدّيناميّة)، فإنَّ النّصَّ الإبداعيَّ هو الآخرُ ستتشكّلُ عناصرُه وخصائصُه الأسلوبيّةُ انطلاقًا من حركيّتِها الدّاخليّةِ، وتحوُّلِها الذّاتيّ، ونُموِّها التّفاعليّ. ويُمثّلُ النّصُّ الأدبيُّ أحدَ المجالاتِ الإبداعيّةِ التي تتميّزُ بديناميّةِ حدودِها التّعبيريّةِ وانصهارِ مكوّناتِها الجماليّةِ. فما المقصودُ بالدّيناميّةِ في الأدبِ؟ وما حدودُ هذا المفهومِ في المجالِ



الإبداعيّ؟ وما مميّزاتُ هذه الظّاهرةِ التي تطرأُ في جلِّ النّصوصِ الجماليّةِ؟

الدّيناميّةُ وتجليّاتُها في المجالِ الأدبيِّ:

مفهومُ الدّيناميّةِ هو مفهومٌ حديثٌ في السّاحةِ النّقديّةِ والأدبيّةِ، وقدِ ارتبطَ هذا المفهومُ في بداياتِه بمصطلحِ التّطوّريّةِ كمظهرٍ من مظاهرِ الدّيناميّةِ9. ومنَ المعلوم أنَّ مجموعةً منَ الباحثين قد تأثّروا بمناهجِ التّطوُّريّةِ وطبّقوها في دراساتِهم الأدبيّةِ والنّقديّةِ، ومن هؤلاء: ستاين تال في ألمانيا، وفيزلوفسكي في روسيا، وأدينكتون في إنجلترا، وفرديناند برونتيير في فرنسا. هذا الأخيرُ الذي اشتهرَ في السّاحةِ النّقديّةِ بكتابَيْه (تطوّرُ الأجناسِ في تاريخِ الأدبِ) و (موجزٌ في تاريخِ الأدبِ الفرنسيّ)، وهما نموذجان للبحوثِ التي اهتمّت بنقلِ المنهجِ التّطوّريّ البيولوجيِّ إلى مجالِ البحثِ الأدبيّ.

يتناولُ برونتيير في هذين الكتابَين قضيّةَ تحوّلاتِ الأجناسِ الأدبيّةِ عبرَ التّاريخ، وهي تختلفُ عنِ التّغيّراتِ التي لها علاقةٌ بالتّطوّرِ الدّاخليّ لكلِّ جنسٍ على حدةٍ، في حين نرى التّحوُّلات تَبْلُغُ علاقةَ الأجناسِ فيما بينَها «إذ أنَّ ظهورَ بعضِها في بقعةٍ معيّنةٍ، أو تاريخٍ معيّنٍ،

ينتجُ عنِ اختفاءِ أجناسٍ أُخرى»10. وإذا كانتِ النّظريّةُ البيولوجيّةُ التّطوّريّةُ هي المصدرَ الأوّلَ لمفهوم الدّيناميّة، فإنَّ هذه النّظريّةَ عرفت نُموًّا وانقسامًا إلى اتّجاهاتٍ عديدةٍ وتفرّعت عنها فلسفاتٌ اجتماعيّةٌ ولُغويّةٌ، فقد كانت «مصدرًا أساسيًّا ومُلهمًا فعّالًا للفلسفةِ الماركسيّةِ، وكانت مُوجّهًا ضروريًّا لمنهاجيّةِ البحثِ في اللّغةِ، وزادًا للدّراساتِ الاجتماعيّةِ، كما كانت موضعَ مناقشاتٍ وأبحاثٍ في طُولِ الأرضِ وعرْضِها»11..

ومن أشْهرِ الذين وظّفُوا هذا المصطلحَ في المجالِ الأدبيِّ الحديثِ لوسيان كولدمان، حيث تحدّثَ عَمَّا أسْماهُ بالبنيةِ الدّيناميّةِ الدّالّةِ، وهي خاصّةٌ بكلِّ عملٍ أدبيٍّ. جاء في (معجمُ المصطلحاتِ اللّغويّةِ والأدبيّةِ الحديثةِ) لسمير حجازي «ديناميّةُ البنْيةِ مثلًا تعني تحوُّلَها خلالَ الزّمن، فبنْيةُ الأثرِ عند جولدمان بنْيةٌ ديناميّةٌ متغيّرةٌ، ترتبطُ بتغيُّرِ الظّروفِ الموضوعيّةِ المحيطةِ بالأثرِ»12.

وقد وردَ في مُعجمِ سعيد علّوش، تحديدٌ للمفهومِ يُوضّحُ المعنَى المُشارَ إليه في تعريفِ حجازي (السّابق) حيث قال: «1- يرى (كولدمان) أنَّ كلَّ حدثٍ إنسانيٍّ- بما في ذلك الأدبيُّ- يدخلُ في عددٍ منَ (البنْياتِ الدّالّةِ الشّاملةِ)، حيث يسمحُ توضيحُها، بمعرفةِ الطّبيعةِ والدّلالةِ الموضوعيّةِ.

2- وتكادُ (البنيةُ الدّالّةُ الشّاملةُ) أن تكونَ مرادفًا لاصطلاحِ (رُؤية العالم) في هذا السّياق"13.

ومعنَى هذا أنَّ لكلِّ عملٍ أدبيٍّ ديناميّتَه الخاصّةَ به، فلا يمكنُ إدراكُه إلّا بدراسةِ أنْساقِه التّركيبيّةِ السّابقةِ



فرديناند برونتيير



سعيد علوش



روبرت شولز

ومسارِ تطوُّرِها، بالإضافةِ إلى تحليلِ العناصرِ البنائيّةِ الدّاخليّةِ المُنجذبةِ نحوَ المستقبل... إنّه عملٌ ديناميكيٌّ له ماضيه، ويتّجهُ نحو المستقبل، ولا يمكنُ استيعابُ بنْيتِه إلّا بتتبُّعِ ديناميّتِه هذه. فدراستُه هي عمليّةٌ مُزدوجةٌ مُتكاملةٌ: تقومُ على نفْيِ وتهديمِ بنْيةٍ قديمةٍ، وتأسيسِ بنْيةٍ جديدةٍ، وهذا مُرتبطٌ بفكْرِ ووعْيِ الجماعةِ، ومُرتبطٌ كذلك بسَيرورةِ التّاريخِ وبالتّغيّراتِ والتّحوّلاتِ التي تطرأُ على بنْيةِ الواقعِ الاجتماعيِّ، بِعَدِّهِ الكيانَ الموجَّهَ إلى لنّصِّ والمُبدعِ الأدبيِّ. فالبنْيةُ ليست سُكونيّةً ثابتةً، بل هي ديناميّةٌ حركيّةٌ تفاعليّةٌ خاضعةٌ لحركيّةِ الطّبقاتِ الاجتماعيّةِ.

ثمّ انتشرَ استعمالُ مفهومِ (الدّيناميّة) أكثرَ في المجالِ الأدبيِّ، فظهرتْ — في السّاحةِ النّقديّةِ — مُصطلحاتٌ أخرَى مثلَ النّزعةِ الدّيناميّةِ (Dynamique) وهي: «نظريّةٌ تفسّرُ الكونَ بلُغةِ القُوى وتفاعُلِها، وفي الأدبِ يُقصدُ بها عدمُ ثباتِ الواقعِ والبناءِ الفنّي للنّصّ"14. وهكذا أصبحتِ الدّيناميّةُ مفهومًا شائعًا في مجالاتٍ عدّةٍ: الدّراساتُ الأدبيّةُ، والنّقديّةُ، واللّغويّةُ، واللّسانيّةُ، والسّيميائيّةُ، وهذا ما أسْهمَ في إنشاءِ مفاهيمَ ومُصطلحاتٍ كثيرةٍ ومتنوّعةٍ مثل: ديناميّةِ النّصّ- ديناميّةِ الرّوايةِ - ديناميّةِ المسرحِ - ديناميّةِ السّينما...

وفيمَا يخصُّ الرّوايةَ، فقد برزَ مجموعةٌ منَ النُّقّادِ الذين اهتمُّوا بالبحثِ عن ملامحِ الدّيناميّةِ الرّوائيّةِ، باعتبارِ أنَّ هذا المجالَ الأدبيَّ هو جسدٌ إبداعيٌّ تتفاعلُ فيه مجموعةٌ منَ الأجناسِ والأنواعِ والأصواتِ. ويُعدُّ جورج لوكاش منَ الباحثين الذين أثارُوا مسألةَ التّعالُقِ هاتِه، حين ذكرَ" أنَّ التّصوّراتِ العقليّةَ التي كان لها دورٌ تكوينيٌّ وتأسيسيٌّ في اليونان ـ وذلك ما أتاح ظهورَ الملحمةِ ـ صارت بالنّسبة إلينا ذاتَ طابَعٍ تنظيميٍّ فقط ـ وذلك ما يسّرَ الانتقالَ منَ الملحمة إلى الرّوايةِ ـ لكنَّ هذا الانتقالَ لم يُعْفِ الرّوايةَ منَ الاستمرارِ في التّعبيرِ عنِ الرّوحِ الملحميّةِ»15.

كما تطرّقَ النّاقدُ الأمريكي روبرت شولز إلى ما سمّاه بنظريّةِ الأنماطِ المثاليّةِ، والتي تنطلقُ من "اعتبارِ الرّوايةِ عالمًا تخييليًّا تتداخلُ فيه عدّةُ أجناسٍ سرديّةٍ عن طريقِ التّجاوُرِ أوِ التّمازُجِ أوِ التّلاحم»16.

وسيقدّمُ ميخائيل باختين ملاحظاتٍ تتعلّقُ بنفسِ الموضوع، فبعد أن أبرزَ أنَّ



جورج لوكاش



جميل صليبا



أوغست كونت

النّثرَ الأدبيَّ والرّوايةَ يَنتمِيان إلى الأشكالِ البلاغيّةِ، لاحظَ أنَّ الرّوايةَ في تطوُّرِها اللّاحقِ، لم يتوقّفْ تفاعلُها العميقُ مع الأجناسِ البلاغيّةِ الحيّةِ – الصّحافيّةِ والأخلاقيّةِ والفلسفيّةِ – ولربّما كان في مُستوى قوّةِ تفاعُلِها مع الأجناسِ الأدبيّةِ، الملحميّةِ والدّراميّةِ والغنائيّةِ. «لكنْ في جميعِ هذه العلاقاتِ غيرِ المُنقطعةِ، احتفظَ الخطابُ الرّوائيُّ بأصالتِه النّوعيّةِ»17. وهذه الملاحظاتُ تنضافُ إلى الأفكارِ التي قدّمَها باختين عَنْ تعدّدِ اللُّغاتِ والأصواتِ، والعلاقاتِ الحواريّةِ بين اللُّغاتِ الاجتماعيّةِ في الرّوايةِ.

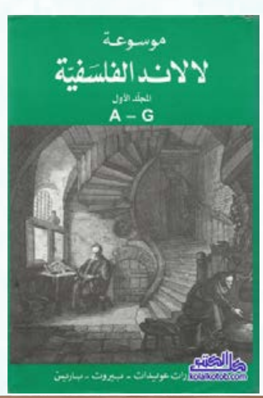
وفي اتّجاهٍ آخرَ، وفي محاولةٍ منه لكشْفِ مختلفِ العناصرِ التي تتفاعلُ داخلَ النّصِّ الرّوائيِّ، قارنَ فلاديمير كريزنسكي بين الرّوايةِ والخليّةِ: "فكما أنَّ الخليّةَ مكوّنةٌ من جُزَيْئياتٍ، فإنَّ الرّوايةَ تُوظّفُ مُعطياتٍ وراثيّةً تحدّدُ نمْذَجتَها"18.

وعمومًا فإنَّ مبحثَ الدّيناميّةِ تطوّرَ وسادَ في عديدٍ منَ المباحثِ الأدبيّةِ والنّقديّةِ، مُستفيدًا من النّظريّاتِ العلميّةِ العديدةِ التي ازدهرتْ في القرنِ العشرين. وإضافةً إلى الإشاراتِ السّابقةِ إلى تطوُّرِ المفهومِ، يمكنُ الإحالةُ كذلك على مجموعةٍ منَ النّظريّاتِ التي كانت وراءَ ترسيخِ مفهومِ الدّيناميّةِ في سياقِها الإبِسْتِمولوجيّ والعلميّ ثمّ الأدبيّ، ومن أهمِّ هذه النّظريّاتِ: النّظريّةُ السّيميُوطيقيّةُ، والنّظريّةُ الكارثيّةُ، ونظريّةُ الشّكلِ الهندسيِّ، ونظريّةُ الحرمانِ، ونظريّةُ الذّكاءِ الاصطناعيِّ، ونظريّةُ التّواصُلِ والعملِ...

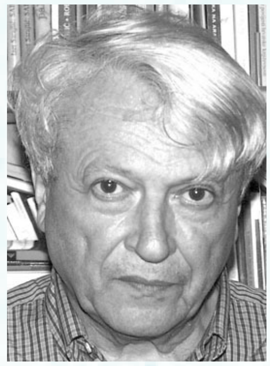
> **إنَّ مبحثَ الدّيناميّةِ تطوّرَ وسادَ في عديدٍ منَ المباحثِ الأدبيّةِ والنّقديّةِ، مُستفيدًا من النّظريّاتِ العلميّةِ العديدةِ التي ازدهرتْ في القرنِ العشرين.**

وما يُهمُّنا نحن من هذا الاستعراضِ هو تبيانُ أنَّ النّصَّ الأدبيَّ الحديثَ أصبحَ يسعَى إلى الانفلاتِ منَ القَيدِ التّجنيسيِّ التّقليديِّ، في سياقِ إنجازِ نصوصٍ أدبيّةٍ جديدةٍ يمكنُ أن تتفاعلَ مع مُعطياتِ العصْرِ بمُنجزاتِه العلميّةِ والتّقانيّةِ في مختلفِ صنوفِ العلْمِ والمعرفةِ ووسائلِ الاتّصالِ، إذ لم تعُدْ هذه النّصوصُ بنماذجِها الأجناسيّةِ القديمةِ قادرةً على أن تستجيبَ للتّطوّراتِ الهائلةِ الحاصلةِ في الحياةِ الحديثةِ بمفاصلِها المغايرةِ، على نحوٍ يتطلّبُ ضرورةَ "اختراقِ الصّورةِ الأجناسيّةِ والخروجِ بصِيغٍ وأشكالٍ جديدةٍ بوسْعِها تمثُّلُ الفضاءَ الجديدَ للرّؤيةِ العصريّةِ والمفهومِ العصريِّ، والاستجابةِ لمعطياتِها وضروراتِها"19. ولهذا لم يَعُدِ النّصُّ الأدبيُّ – كما كان في السّابقِ – كيانًا ذاتيًا مُنغلقًا وعقيمًا، بل أصبحَ لزامًا عليه التّفاعلُ مع الطّفرةِ التّكنولوجيّةِ والتّطوّراتِ التّقنيّةِ والتّغيّراتِ الاجتماعيّةِ التي يشهدُها





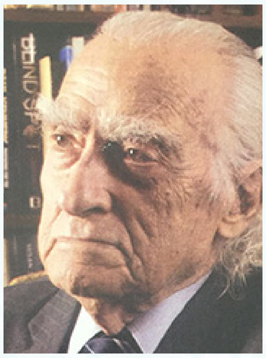




لوسيان كولدمان



ميخائيل باختين



مراد وهبة

واقعُ اليوم.

ويتميّزُ النّصُّ الرّوائيُّ بديناميته الخاصّةِ التي يكتسبُها انطلاقًا من تفاعُلِ عناصرِه الدّاخليّة، وانطلاقًا مِن انصهارِ مُكوّناته الذّاتيّةِ (الأسلوبيّةِ والتّعبيريّةِ) في ملمحٍ مُتداخلٍ مُتبادَلِ التّأثيرِ والتّأثّرِ، مع شبكةٍ منَ العلاقاتِ الحاضرةِ في هذا النّصّ. وهذا ما يجعلُه مُنفتحًا وممتدًّا على عديدٍ منَ المكامنِ الجماليّةِ والتّعبيريّةِ والإنسانيّةِ. فالنّصُّ الرّوائيُّ هو كيانٌ متعدّدُ الرّوافدِ والثّقافاتِ والمنابعِ، مُتنوّعُ القراءاتِ والتّحليلاتِ، جامعٌ في أَطْوائِهِ مُكوّناتٍ وسماتٍ متعدّدة. كلُّ هذه الإمكانياتِ تُؤَسَّسُ من خلال علاقاتٍ: تفاعليّةٍ، اندماجيّةٍ، حركيّةٍ، تحوّليّةٍ... الخ، تسعَى لبناءِ عوالمَ تخْييليّةٍ جماليّةٍ ذاتِ بُعدٍ إنسانيٍّ، وتستهدفُ الإيقاعَ بالمتلقّي كشريكٍ آخرَ في صهْرِ هذا العالمِ الإبداعيِّ.

إذن، فالنّصُّ يُنظرُ إليه «بوصْفِه بنْيةً شاملةً متراصّةَ الأطـرافِ، وباعتبارِه أجزاءً ومقاطعَ دالّةً تُكوِّنُ المعماريّةَ النّصيّةَ» 20. تُبنى ديناميّتُه انطلاقًا منَ الرّبطِ بين مكوّناتِه المتفاعلةِ داخليًّا، وبينَها وبين مُكوّناتٍ مماثلةٍ له خارجيًّا، مُستمدَّةٍ من مختلفِ المنابعِ الإنسانيّةِ والثّقافيّةِ والفكريّةِ؛ بُغيةَ التّوقّفِ عند الثّوابتِ والمتغيِّراتِ، واستخلاصِ مُقوّماتِ الدّيناميّةِ، واستجلاءِ مختلفِ العناصرِ التي تُسهمُ في أجرأتِها قاعدةَ التّجاوُزِ والتّفاعُلِ والتّعصّبِ والتّوتّرِ.

> **يتميّزُ النّصُّ الرّوائيُّ بديناميتِه الخاصّةِ التي يكتسبُها انطلاقًا من تفاعُلِ عناصرِه الدّاخليّةِ، وانطلاقًا مِنَ انصهارِ مُكوّناته الذّاتيّةِ (الأسلوبيّةِ والتّعبيريّةِ) في ملمحٍ مُتداخلٍ مُتبادَلِ التّأثيرِ والتّأثّرِ.**

وخلاصةُ القولِ، فإنَّ مفهومَ الدّيناميّةِ هو مصطلحٌ حديثٌ يُحيلُ على الحركيّةِ والنّموِّ ومختلفِ العلاقاتِ التّفاعليّةِ التي تميّزُ الخطابَ كيفما كان. فالأدبُ ـــ كنموذجٍ من نماذجِ الخطابِ ـــ هو عبارةٌ عن مؤسّسةٍ مُنفتحةٍ على الواقعِ

لائحة المراجع:

ـ أحمد اليبوري، دينامية النص الروائي، منشورات اتحاد كتاب المغرب ـ الرباط، ط1 ـ 1993، ص: 11.

2ـ أندريه لالاند، «موسوعة لالاند الفلسفية:معجم مصطلحات الفلسفة النقدية والتقنية»، تعريب: خليل أحمد خليل، إشراف: أحمد عويدات، عويدات للنشر والطباعة ـ بيروت، (د.ط) ـ 2008،ج/1، ص: 308-309.

3ـ جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، الشركة العالمية للكتاب ش م ل ـ بيروت، (د.ط) ـ 1994، ج1، ص:574ـ 575.

4ـ انظر : «المعجم الفلسفي»، مجمع اللغة العربية، القاهرة، تصدير: إبراهيم مذكور، (د.ط) ـ 1983،ص: 87 / و «الموسوعة الفلسفية: وضع لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين»، إشراف: م. روزنتال وب. يودين، ترجمة: سميركرم، مراجعة: صادق جلال العظم وجورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر ـ بيروت، ط7ـ 1997، ص:214.

5ـ مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة، (د.ط) ـ 2007، ص: 317.

6ـ أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية : انجليزي ـ فرنسي ـ عربي، مكتبة لبنان ـ بيروت، (د.ط) ـ1982، ص: 120.

7ـ أعضاء مجمع اللغة العربية (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار..)، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية ـ مصر، ط 4 ـ 2004، ص: 307.

والمجتمعِ والإنسانِ، ترتكزُ على اللّغةِ بِوَصْفِها وسيلةً لتحقيقِ التّفاعُلِ التّواصُليِّ بين المُبدِعِ ومُحيطِه، حيث تُصادفُه نماذجُ إنسانيّةٌ متعدّدةٌ، وأشكالٌ تعبيريّةٌ متنوّعةٌ. والأديبُ إنسانٌ كباقي البشرِ لا يحيا مُنعزلًا عنِ السّاحةِ الاجتماعيّةِ، ولا يعيشُ بمفردِه في فضاءٍ آخرَ أو عالمٍ آخرَ، مُغايرٍ للعالمِ الذي نعرفُه، بل يتفاعلُ مع قضايا عصْرِه ومُستجدّاتِ واقعِه، ويظلُّ المجتمعُ بهمومِه المتنوّعةِ إرهاصًا دائمَ الحضورِ في ذهنِه.

فالمُبدعُ حتى وإن كان يُصرّحُ بما تجيشُ به قريحتُه ويبوحُ بما تعبّرُ عنه مشاعرُه وعواطفُه، إلّا أنّه لا يمكنُ له أن يتملّصَ من صوتِ جماعتِه، ومن ثَـمَّ فنصوصُه الأدبيّةُ تبقَى مُنفتحةً ومُتحرّكةً وديناميّةً تتبعُ تطوّرَ عالمِه وتجدّدَ عوالمِه. ولِذا فَلَنْ تخلُوَ إنتاجاتُه الأدبيّةُ منَ المسحةِ التّواصليّةِ، ومنَ التّداخُلِ بطريقةٍ أو أُخرى مع الواقعِ الذي ينتمِي إليه، ممّا يَعني أنّ الابداعَ الأدبيَّ تنافذَ وتجاذَبَ بين الفرديِّ والجمْعيِّ، الدّاخليِّ والخارجيِّ، الثّابتِ والمتحرّكِ....وكلُّ ذلك يُفضِي إلى تشكُّلِ مؤسّسةٍ ثقافيّةٍ ديناميّةٍ تفاعُليّةٍ، سواءٌ حملتِ القيمَ المُهيمنةَ في المجتمعِ وقامت بنقْلِها حرفيًّا، أم لجأت إلى أسلوبِ المحاكاةِ الفنّيّةِ القائمِ على التّخْييلِ الجماليِّ لقضايَا الواقعِ.

ومعنى هذا فَـإنَّ لكلِّ عملٍ أدبيٍّ ديناميّتَه الخاصَّةَ به، فلا يمكنُ فهمُه إلّا بدراسةِ تطوُّرِه السّابقِ وتركيبتِه البنائيّةِ (الدّاخليّة) المُنجذبةِ نحوَ المستقبلِ ونحوَ الواقعِ الخارجيِّ... إنّه عملٌ ديناميكيٌّ له ماضِيه، ويتّجِهُ نحوَ المستقبلِ، ولا يمكنُ فهْمُ بنْيتِه إلّا بدراسةِ ديناميتِه هذه، فدراستُه هي عمليّةٌ مُزدوجةٌ ازدواجيّةٌ متكاملةٌ: تقومُ على تدميرِ بنْيةٍ قديمةٍ، وبناءِ بنْيةٍ جديدةٍ مُنفتحةٍ على العالمِ الخارجيِّ.



8ـ أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، دار عالم الكتب ـ القاهرة، ط1 ـ 2008، ص: 797.
9ـ أحمد اليبوري، مرجع سابق، ص: 11.
10ـ المرجع نفسه، ص: 13.
11ـ محمد مفتاح، دينامية النص (تنظير وإنجاز)، المركز الثقافي العربي ـ الدار البيضاء، ط2 ـ 1990، ص : 7.
12ـ سمير حجازي، معجم المصطلحات اللغوية والأدبية الحديثة: (فرنسي ـ عربي) (عربي ـ فرنسي)، دار الراتب الجامعية ـ بيروت، (د.ط) ـ (د.ت)، ص: 65.
13ـ سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت / سوشبريس ـ الدار البيضاء، ط1ـ 1985، ص: 53.
14ـ سمير حجازي، مرجع سابق، ص: 65.
15ـ أحمد اليبوري، مرجع سابق، ص: 17.
16ـ المرجع نفسه، ص: 25.
17ـ المرجع نفسه، ص: 19.
18ـ المرجع نفسه، ص: 19.
19ـ محمد صابر عبيد، دينامية النص الأدبي وإشكالية التجنيس، دار غيداء للنشر والتوزيع ـ عمان (الأردن)، ط1ـ 2017، ص: 9.
20ـ محمد الداهي، قضايا منهجية في دينامية النص الروائي، مجلة البيان الكويتية، عدد 374ـ سبتمبر ـ 2001، تصدر عن رابطة الأدباء في الكويت، ص: 90.

الرِّوَايَةُ، وجَمَالِيَّاتُ التَّعْبِيرِ

ثَمَّةَ مَيزَةٍ لفنِّ الرِّوَايةِ؛ كَمُنتَجٍ سَرْدِيٍّ لَهُ خُصُوصِيَّته، ولهُ مَهَامُه في (تَسريد) الواقع ومَزْجِه بالخَيَال، منْ خلالِ لُغَةٍ مُعبِّرَةٍ تتناوبُ بَينَ الواقعِ والمَجاز والصُّورة الشِّعريَّة، والتَّسْجِيليَّة أيْضًا للواقِع، ولكنَّها حَاملةٌ لدَلالاتِ هَذا الوُجُودِ، أوْ مُشيرةٌ إليْه في جَانبٍ آخَرَ منْ جوانِبِه الغَامِضَة الَّتي تكشِفُ عَنْها اللُّغَةُ بمعيَاريتِها، في رِحْلَةٍ قَدْ تَطالُ أغْوارَ النَّفْسِ البَشَريَّة، تَسْعَى مُستكشِفَةً وِهادَها وجِبالَها ومُستَنقعَاتها وصَحْراءَها شاسعَةَ الامْتِدادِ، والضَّاربةَ في غَوْرِ حَقيقةٍ مُراوِغَةٍ تكْتَنِزُ وتَذوبُ في دَاخلِ تلْكَ الذَّاتِ/ مَجْمُوعةِ الذَّواتِ الَّتي تُشكِّلُ بِنْيَةَ أيَّةِ بِيئَةٍ أوْ مُجْتمَعٍ، أوْ فئةٍ أوْ جَمَاعةٍ مُختارَةٍ يَنمُو بينَهُم حَدثٌ فارقٌ، فتَأتِي منْ خلالِه أوْ عَلَى أعْقابِه أوْ عَلَى هَامشِه بِنْيَةُ الرِّوايَةِ الَّتي لا تَحتَاجُ إلَى أنْ تَذْهَبَ بَعيدًا في الغَالبِ لتَبْدأَ في تَقطِيرِ تِلْكَ الأزْمَةِ الإنْسانيَّةِ وتَقديمِها عَلى طَبَقٍ منْ دَهْشَةٍ؛ هِيَ دَهْشَةُ التَّعامُلِ مَعَ لُغَةٍ مُناسِبةٍ وجَاذبَةٍ في المَقامِ الأوَّلِ.

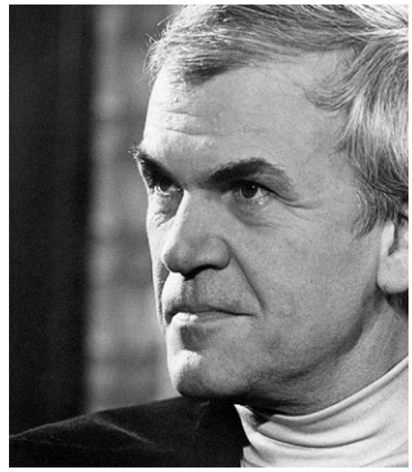


محمد عطية محمود
كاتب وناقد مصري

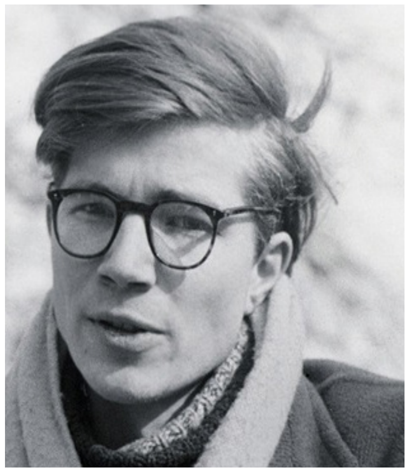
يَعْقُبُهَا فُضُولٌ مُحبَّبٌ فِي اسْتِكْنَاهِ تِلْكَ الحَقَائِقِ، ومِنْ ثَمّ اسْتِدْرَاجِ تِلْكَ الشُّخُوصِ كَي يُبْرِزُوا أقْوَى مَا فِي هَذَا الوَاقِعِ الجَدِيدِ الَّذِي يَقَعُ فِعْليًا بَيْنَ الوَاقِعِ والتَّخْيِيلِ فِي تِلْكَ البِنْيَةِ، الَّتي تَقَع فِي بَوْتَقَةِ اللُّغَةِ كَوِعَاءٍ وعِمَادٍ لهَا للتَّعْبِيرِ الَّذِي تَخْتَلِف جَمَالِيَاتُه بالتَّعانُقِ مَع جَمَالِيَاتٍ أُخْرَى: لِلُغَة، وللسَّرْدِ!

هَذِه العَلاقَةُ المُعقَّدةُ الَّتي لَا يَتوقَّفُ عِندَهَا الأمْرُ، وأنْتَ تَستَشْرِفُ/ تَكْتَشِفُ مَا للرِّوَايَةِ مِنْ قُدْرَةٍ عَلَى خَلْخَلَةِ الوَاقِعِ، والإحَاطَةِ والتَّنْوِيرِ دَاخِلَ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ بتِلْكَ المسَاحَاتِ الَّتي تَذْرَعُهَا طُولاً وعَرْضًا ببلاغَاتٍ لُغَويَّةٍ مُتَنوِّعَةٍ قَادرةٍ علَى التَّأثِيرِ والتَّجْسِيدِ مَعًا كَي تَحْرُثَ فِي النَّفْسِ، وتُقدِّمَها هَكَذا مَرَاتٍ مُتغَايرَة، ومُخْتَلِفَة فِي سِيَاقَاتِها المَعْرِفِيَّةِ والجَمَاليَّةِ المُبْهِرةِ الَّتي تُهَيِّئُ مُتلقِّيًا لتَحمُّلِ المَزِيدِ والمَزِيدِ مِنْ تِلْكَ الانْفعَالاتِ والشُّحْنَاتِ النَّفْسيَّةِ والوِجْدانيَّةِ الَّتي تُشْعِلُ صِرَاعَ الرِّوايَةِ، وصِراعَ المُتْعَة مَعًا، رُبَّما كَانَت غَايَةً مِن الغَايَاتِ الَّتِي تَسعَى إلَيْهَا الكِتَابَةُ بآليَاتِها المَعْرِفيَّةِ وبجَمَاليّاتِها المُتعدِّدَة، والَّتِي تَدخُلُ فِي غِمَارِ مُقَامَرَةٍ مَعَ اللُّغَةِ ومَعَ الشَّكْلِ أوْ بِنَائيةِ النَّصِّ/ مِعْمَارِيَتِه وكِسْوَتِه مِنَ التَّعَابِيرِ اللُّغَويَّةِ المُتَناسِبَةِ، والَّتِي قَدْ تَكُونُ أسَاسًا للعَمَليَّةِ الإبْدَاعيَّةِ اعْتِمادًا مِنَ النَّصِّ/ كَاتِبِهِ عَلَى التَّشْكِيلِ اللُّغَوي، وهُو مَا قَدْ يَكُون أوْ يَقتَرِب مِنْ سِمَاتِ مَا بَعدَ الحَداثَة، ومَعَ المَضْمُونِ المُغَايِرِ المُنْبَثِقِ مِنْ دَاخِلِ ذاتٍ/ ذوَاتِ الشُّخُوصِ، ومَعَ إشْكَالِيَّاتِ المَكَانِ، وتَأثِيرِ الزَّمَنِ كَلُعبَةٍ دَائِرَة، ومِنْ ثَمّ الدَّوَرَانِ فِي فَلَكِ الحِكَايَةِ سَواءً كَانَتْ مَسْرُودَةً أوْ قَائِمَةً عَلَى الاسْتِرجَاعِ والتَّذَكُّرِ أو التَّدَاعِي الحُرِّ، والاعْتِصَامِ بلُغَةٍ تتحَوَّل رُبَّمَا كَمُعَادَلَةٍ ذَهَبيَّةٍ إلَى كَائِنٍ مِطْوَاعٍ فِي يَدِ كَاتِبِهَا..

إن للرواية قُدْرَةً عَلَى خَلْخَلَةِ الوَاقِعِ، والإحَاطَةِ والتَّنْوِيرِ دَاخِلَ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ بتِلْكَ المَسَاحَاتِ الَّتِي تَذْرَعُهَا طُولاً وعَرْضًا ببلاغَاتٍ لُغَويَّةٍ مُتَنوِّعَةٍ قَادرةٍ علَى التَّأثِيرِ والتَّجْسِيدِ مَعًا.



ميلان كونديرا

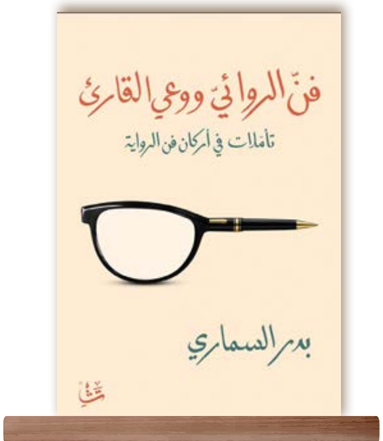


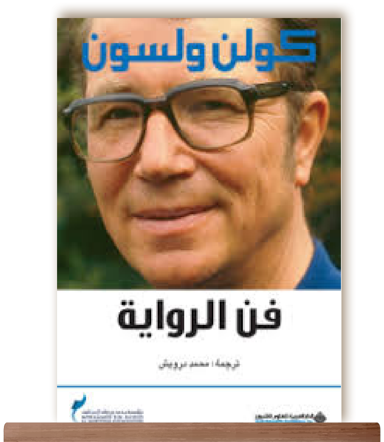
كولن ويلسون



وهُوَ مِنَ الجَمَالِيَّاتِ الجَدِيدَةِ للنَّصِّ الرِّوَائِي الَّذِي لَا يَعْتَمِدُ عَلَى الحَدَثِ فحَسْبِ، وإِنَّمَا قَدْ يَتَخَطَّاهُ لِيَعْتَمِدَ وَعاءَ اللُّغَةِ الَّتِي تَصْنَعُ حَدَثًا فِي حَدِّ ذَاتِها، وهُوَ مَا قَدْ نَجِدُهُ فِي تِلْكَ المُونُولُوجَاتِ (الغِنَائِيَّةِ) المُنْفَرِدَةِ أَوْ تِقْنِيَّةِ الرَّسَائِلِ أَوِ الأَصْواتِ السَّرْدِيَّةِ المُتَعَدِدَةِ (البُولِيفُونيَّة Poliphonie) حَيْثُ تَتَعدَّدُ وتَتفَاوتُ مُسْتَويَاتُ اللُّغَةِ والخِطَابِ، أوْ لُغَةِ المُخاطَبِ المُوجَهَّةِ للذَّاتِ/ الآخَرِ الَّتِي يَعْزِفُ عَلَيْهَا السَارِدُ/ الذَّاتُ السَّارِدَةُ/ المَسرُودُ عَنْهَا، عَبْرَ الوَعْيِ؛ كَي يُقدِّمَ (بَانُوراما) للوَاقِعِ والمُتَخَيَّلِ والذَّاكِرةِ والسِّيرَةِ مَعًا عَبْرَ تِلْكَ الإِشْكَالِيَّةِ النَّفْسيَّةِ الأَكْبَرِ، فَقَدْ يَلْجَأُ الرِّوائِيُّ إِلَى لُغَةٍ تَقرِيرِيَّةٍ تَسجِيلِيَّةٍ لَا تُغَادِر مُعْجَمِيَتَها ولا تَأَثُّرها بالجَذْرِ الفِعْلِي لَها، إِلَى لُغَةٍ إِبْدَاعِيَّةٍ قَد تَكُونُ مُغَايِرَةً إِلَى حَدٍ مَا، بِمَا فِيهَا مِن ابْتِكَارٍ، ورُبَّمَا تَنْزِعُ إِلَى غِنائِيَّةٍ مُفْرَطَةٍ فِي شَاعِرِيَتِهَا.

فَالرِّوَايَةُ أَصْبَحَتْ هَذَا الكَائِنُ الَّذِي بَاتَ يَسْتَوعِبُ كُلَّ شَيْءٍ فِي دَاخِلِه، ويُعبِّدُ طَرِيقَهُ مِنْ خِلالِ (مُوتيفَات motif) مَعَ المُفْرَدَةِ اللُّغَوِيَّةِ والدلَالِيَّةِ، وثَقَافَاتٍ سَمْعِيَّةٍ وبَصَرِيَّةٍ، تُشِيرُ وتُدلِّلُ، ورُبَّمَا لَا تُفْصِحُ إِلاَ مِنْ خِلالِ جَمَالِيَّاتِ اشْتِبَاكِ اللُّغَةِ مَعَ الصُّورَةِ، مَعَ الإيقَاعِ مَعَ اللَّحْنِ الشَّارِدِ الَّذِي تَأْتِي بِهِ نُصُوصٌ قَدْ تُفَارِقُ تَقْلِيدِيَّتِها إِلَى حَدٍّ بَعِيدٍ، لِتَعْبُرَ حِقْبَةً كَانَتْ الرِّوَايَةُ فِيهَا زَمَنًا خَطيًّا مُسْتَرسِلاً لَا يَحْفَلُ بالتِّقْنيَّاتِ ولَا الاشْتِباكَاتِ مَعَ اللُّغَةِ والعَالَمِ وفَلْسَفَةِ الوُجُودِ، فَكَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى الحِكَايةِ مِنْهَا إِلَى فِعْلِ الرَّوِيِّ والسَّرْدِ، دُونَ الاعْتِمَادِ عَلَى تِقْنِيَّاتِ لُغَةٍ مُعَبِّرَةٍ عَنْ وَاقِعِ الحَالِ وتَطَلُّعَاتِ النَّفْسِ للتَّعبِيرِ المُتَوائِمِ مَعَ تِلْكَ الحَالاَتِ المُتَبَايِنَةِ، إِلَّا أَنَّها رُبَّمَا تَجَاوَزَتْ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ نَمَاذِجَ رُوَائِيَّةٍ عَدِيدَةٍ، رُبَّمَا لَامَسَتْ تِلْكَ التُّخُومَ السَّاعِيَةَ لِإِدْرَاكِ غَايَاتٍ مُتَجَدِّدَةٍ مِنَ السَّرْدِ وجَمَالِيَّاتِه، والاعْتِمَادِ عَلَى جَمَالِيَّاتِ التَّعْبِيرِ باللُّغَةِ.







الفَضَاءُ النَّفسِيُّ فِي الرِّوايَة

«مَا خَفِيَ عَلَيْكَ مِثْلُ نَفْسِك».. رُبَّمَا تَحَقَّقتْ هَذِهِ المَقُولَةُ مِنْ خِلالِ فَضَاءٍ نَفْسِي، واشْتِباكَاتِ الوَاقِعِ مَعَ مُتَخَيَّلٍ سَرْدِيٍّ يُعْطِي لِلحِكَاية المَرْوِيَّة مَذَاقًا مُخْتَلِفًا وسَابِرًا للغَوْرِ، وتَعَارُكًا مَعَ ذَاتٍ تُمَارِسُ غِوَايَتَهَا فِي التَّشكُّلِ والتَّلوُّنِ مَعَ تَشَكُّلاتِ وتَلَوُّنَاتِ الحَقِيقَةِ، تِلْكَ المَعْزُوفَةُ الإنْسَانِيَّةُ عَمِيقَةُ الغَوْرِ، والَّتِي يَتَغَيَّاهَا كُلُّ نَصٍّ إبْدَاعِيٍّ يَدْخُلُ فِي تِلْكَ المِنْطَقَةِ الشَّائِكَةِ للنَّفْسِ البَشَرِيَّةِ الَّتِي لَا يَخْفَى عَلَى المَرْءِ شَيْءٌ أكْثَرَ مِنْهَا، ولَا أكْثَرَ مِنْهَا إغْوَاءً لِلكَينُونَةِ ذَاتِها، هَذَا الكَائِنُ الأَكْثَرُ إلْغَازًا، وإضْمَارًا، وجُنُوحًا نَحْوَ الظَّاهِرِ الَّذِي لَا يُعْطِي مَفَاتِيحَ كُلِّ شَيْءٍ، مَعَ مَا تُمَثِّلُه جَمَالِيَّاتٌ يَتَغَيَّاهَا النَّصُّ للتَّعْبِيرِ عَنْ جُلِّ تِلكَ الإشْكَالِيَّاتِ والطُّرُوحَاتِ وزَوَايَا المُعَالَجَةِ ومِنْ ثَمَّ التَّأثِيرِ، ومُحَاوَلاتِ تَبْئِيرِ أزْمَةِ الفَرْدِ فِي مُواجَهَةِ مُجْتَمَعٍ/ بِيئَةٍ، أوْ حَتَّى فِي مُواجَهَةِ نَفْسِه ذَاتهَا؛ فَلُغَةُ الخِطَابِ الذَّاتِي أوْ المُعَبِّرُ عَنِ الذَّاتِ فِي هَذِهِ الحَالَةِ تَخْتَلِفُ كُلِيَّةً عَنْ لُغَةِ السَّرْدِ النَّازِعِ إلَى تَجْسِيدِ الحَقِيقَةِ الوَاقِعِيَّةِ لَا الحَقِيقَةِ الرِّوَائِيَّةِ الأكْثَرَ إثَارَة، والَّتِي لَا يَأتِي التَّعْبِيرُ عَنْهَا إلَّا باللُّغَةِ الأكْثَرِ تَأثِيرًا وإثَارَةً.

تِلْكَ الإشْكَالِيَّةُ الَّتِي يَضْطَلِعُ بِهَا عَدِيدُ النُّصُوصِ الرِّوَائِيَّةِ القَادِمَة مِنْ أغْوارِ نَفْسٍ بَشَرِيَّةٍ مُوجِهةً رِسَالَتَهَا لِلعَالَمِ، ومُحَفِّزَةً عَلَى قِرَاءَةٍ دَاخِلِيَّةٍ للعَالَمِ الدَّاخِلِي/ الذَّاتِ الَّتِي لَا تَتَوَقَّفُ عَنْ إفْرَازِ مَا بِهَا مِنِ اعْتِوارٍ وخَلَلٍ واضْطِدَام مُبكِّرٍ بالوَاقِعِ، يَنْبُعُ مِنْ تَجَارِبَ ذَاتِيَّةٍ مَعَه، ارْتَبطَتْ بِشَكْلٍ مَا أوْ بِآخَر بمَوكِبِ الوُجُودِ الخَّاصِّ بآخَرِين، إلَّا أنَّ سِمَةَ التَّوحُّدِ مَعَ الكُلِّ فِي الهَمِّ الإنْسَانِي تَجْعَل هَذِهِ التِّيمَةَ مِنَ التَّعَاطُفِ مَعَ الذَّاتِ البَاحِثَةِ عَن مَكْمَنِ ألَمِهَا وتَشْرِيحِهَا عَلَى النَّحْوِ الَّذِي يَلتَمِسُ لَهَا أسْبَابَ الألَمِ والوَجَعِ، ومِنْ ثَمّ أسْبَابَ الانْعِزَالِ والتَّقَوقُعِ والابْتِعَادِ القَسْرِي عَنِ العَالَمِ بِمَا فِيهِ مِنْ رُمُوزٍ وعَلَامَاتٍ رُبَّما صَنَعَتهَا تِلكَ العِلاقَةُ غَيْرُ السَّوِيَّةُ مَعَ الوَاقِعِ، مَا يُفجِّرُ طَاقَاتِ لُغَةٍ مُخْتَلِفَةٍ ومُعَبِّرَةٍ.

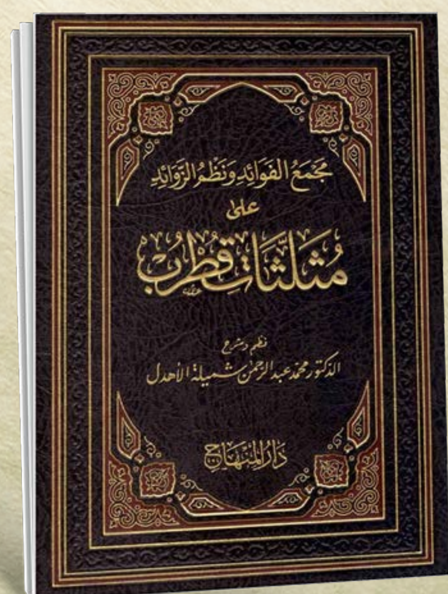
تُصِّرُّ الرِّوايَةُ الجَيِّدَةُ/ السَّردُ، دَائِمًا عَلَى التَّعَامُلِ بِمَا يَنْكَأُ الجِرَاحَ ويَكْشِفُهَا، بِلُغَةٍ مُنْفَتِحَةٍ عَلَى الدَّلالَةِ والتَّأوِيلِ، ورُبَّمَا التَّصْرِيحِ المُبَاشِرِ، رُبَّما لِتَنْدَمِل ذَاتَ مَرَّةٍ بِمِلْحِ التَّجْرِبَةِ ومِلْحِ الشِّفَاءِ، ورُبَّمَا لِتُعِيدَ عَلَيْنَا تَجَارِبَ الآخَرِينَ فِي سَرْدِيَّةٍ تُحَاوِلُ التَّصَالُحَ مَعَ العَالَمِ فِي هَذَا الحَيْزِ المُكْتَنِزِ مِنَ التَّفَاصِيلِ، بِرَغْمِ اتِّسَاعِ رُقْعَتِهَا تِقْنيًّا وفَنيًّا، ورُبَّمَا كَيْ نَرْفَعَ قُبَعَاتِنا لِهَذِهِ التَّجَارِبِ الصَّامِتَةِ الَّتِي لَا تَتوقَّفُ عَنْ مُمَارَسة أحَاسِيسِ المُرَاجَعَةِ والعِقَابِ والجَلْدِ، والتَّصمِيمِ عَلَى الفِكْرَةِ ذَاتِها أنَّ المَرْءَ لَا يَخْرُجُ مِنْ ألَمِهِ إلَّا بألَمٍ أشَدَّ مِنْهُ، ورُبَّمَا لتَكُونَ فِكْرَةً فَلْسَفِيَّةً عَمِيقَةَ الدَّلالَةِ والتَّأثِيرِ، تَكْمُن فِي أرْواحٍ مُعذَّبَةٍ بالسُّؤالِ، ومَا فِيهِ مِن عَلَامَاتٍ رُبَّما أرْشَدَتْ إلَى نَبْعٍ جَدِيدٍ مِن يَنَابِيعِ التَّحَاوُرِ مَعَ العَالَمِ بلُغَةِ الألَم، فَمَا بَيْنَ كُلِّ ألَمٍ وألَمٍ جَدِيدٍ رُبَّمَا احْتَاجَ لِلُغَةِ البَوْحِ الشَّفِيفَةِ المُعبِّرَة، رُبَّما وُجِدَت فُسحَةٌ مِنْ وَقْتٍ كَي نَبْرَأَ مِمَا قَبلَه أوْ نَتَعَافَى إلَى حَدٍّ ما، رُبَّما هَكَذَا نَرَى الكِتَابَةَ/ السَّرد كلُغَةِ إحْساسٍ وتَعْبِيرٍ وإعْلَانٍ، تَبدُو فِيهَا النَّفْسُ بِهَذِهِ الكَيفِيَّةِ مِنْ مُحَاوَلاتِ التَّصالُحِ مَعَ العَالَمِ/ الألَم، بَعِيدًا عَنْ تَسْجِيلِيَّةٍ لَا تَنْقل إلَّا وَاقِعًا قد لا يُبهِرُ ولا يُدهِش، إلَّا بِقُدْرَةِ اللُّغَةِ عَلَى فِعْلِ ذَلِك!!

(الحَرَّةُ - الحِرَّةُ - الحُرَّةُ)

الحَرَّةُ: الحَرارَةُ المَعْروفَةُ، وقيلَ هيَ أَرْضٌ ذاتُ حِجارَةٍ سَوداءَ كَأَنَّها أُحْرِقَتْ بالنّارِ، والحَرُّ جمع حَرور، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴾. [فاطر: 21].

الحِرَّةُ: العَطَشُ: ومِنْهُ قَولُ العَرَبِ: "رَماهُ اللهُ بِالحِرَّةِ تَحْتَ القِرَّةِ" أَيْ: دعا عَلَيهِ بالعَطَشِ والبَرْدِ مَعًا.

الحُرَّةُ: ضِدُّ الأَمَةِ، ويُقابِلُها (الحُرُّ) ضِدُّ العَبْدِ في الذَّكَرِ، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ﴾ [البقرة: 178].



Government of Sharjah حكومة الشارقة

مجمع اللغة العربيّة بالشّارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

إصدارات مجلّة مجمع اللغة العربيّة بالشّارقة



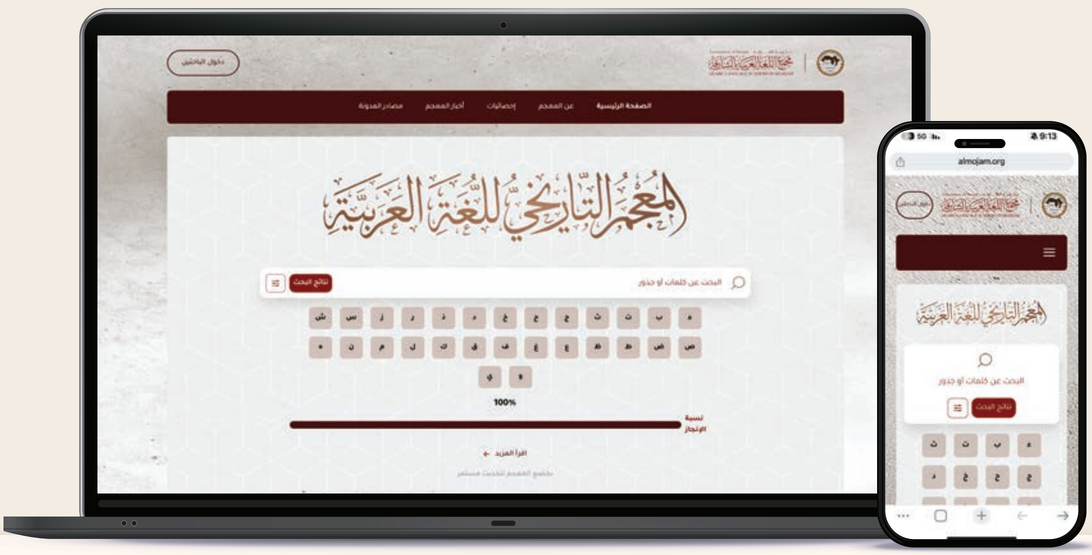
المدينة الجامعية – الشارقة –الإمارات العربية المتحدة | مبنى مجمع اللغة العربية | الدور الأول
هاتف: 400 60 51 6 971+ | فاكس: 410 60 51 6 971+ | ص.ب: الشارقة: 1973
البريد الإلكتروني:info@alashj.ae | الموقع الإلكتروني: www.alashj.ae

Government of Sharjah حكومة الشارقة

مجمع اللغة العربية بالشارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

المعجم التاريخي للغة العربية



Government of Sharjah حكومة الشارقة

مجمع اللغة العربية بالشارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

الإعلان عن التّرشح لجائزة الشّارقة للدّراسات اللغويّة والمعجميّة

الدورة الثّامنة 2025م

جائزة الشّارقة للدّراسات اللّغويّة والمُعجميَّة

Sharjah Linguistic and Lexical Studies Award

المحور الأوّل: الدّراسات اللغويّة: كتب تحقيق التّراث اللّغويّ.

المحور الثّاني: الدّراسات المعجميّة: المعاجم المختصّة في العلوم الإنسانيّة والشّرعيّة.



تُمنح الجائزة لأربعة فائزين:

اثنين في الدّراسات اللغوية واثنين في الدراسات المعجمية:

- الجائزة الأولى: 30 ألف دولار
- الجائزة الثّانية: 20 ألف دولار

لمزيد من المعلومات يُرجى الدخول على موقع الجائزة:

shj-arabic-award.shj.ae